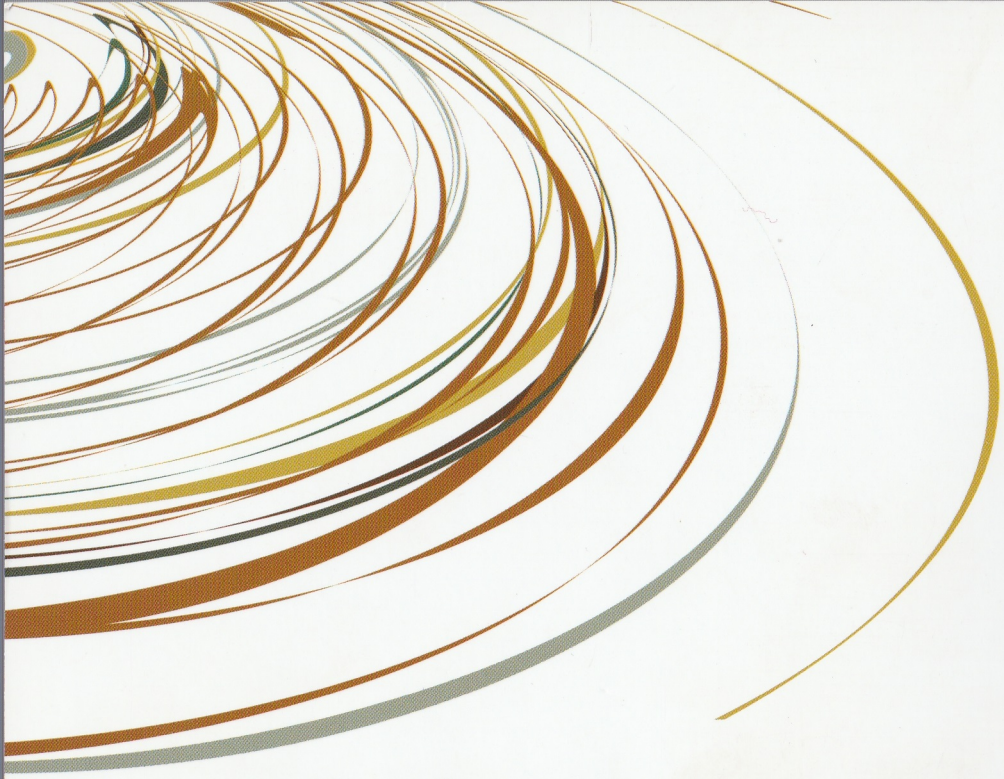

البؤرة

THE FOCUS

ما هي بؤرة المسيحية كما صورتها
أقلام كتبة العهد الجديد؟

أوسم وصفي

البـــــؤرة

أوسم وصفي

فهرس المحتويات

مقـدمة : ٧

الجـزء الأول : الغرض والسياق والفِكر ٢١

الفصل الأول : أمتدُّ إلى قُدَّام (الحياةُ بين قيامتين) ٢٩

الفصل الثـاني : لأعرِفَهُ وأوجَد فيه (الثقة والثبات) ٣٩

الجـزء الثـاني: المسيرة ٥٧

الفصل الثـالث : إن كان روحُهُ ساكناً فينا (رسالة رومية) ٦٧

الفصـل الرابـع : الذي أقامه سيقيمنا (رسالتيّ كورنثوس) ٧٩

الفصل الخامس: إن كُنتُم قد قُمتُم مَعَهُ (رسالة كولوسي) ٩٧

الجزء الثـالث: الاتِّزان ١١٣

الفصل السادس: معرفة الله والنفس (اللاهوت الكتابي وعِلم النفس) ١٢٧

الفصل السـابع : الإيمان والأعمال (اللاهوت والتدريبات الروحية) ١٤٥

الفصل الثـامن : الذات الحقيقية والذات المزيفة (التدريبات الروحية وعلم النفس) ... ١٥٧

خـتام ١٨٤

إهداء

إلى كُلِّ إنسانٍ يَتُوقُ مِن قَلبِهِ إلى حياةٍ أكثرَ عُمقاً وغِنىً

مقدمة

نشأت فكرة هذا الكتاب بعد محاضرَتين تحت هذا العنوان: «البؤرة» قمت بإلقائهما في المؤتمر الصيفيّ لكنيسة شبرا الإنجيلية في سبتمبر سنة ٢٠١٤. ولَمَّا شَعُرتُ أنَّ هَاتين المُحاضرتَين قَد قَامَتا بتَلخيص وتكثيف كثيرٍ مِمّا كَانَ يَجيشُ بصدري منذ وقتٍ طويل حَولَ احتياجِنا إلى ضَبطِ البؤرة في الكنيسة وفي الحياة المسيحية، قَرَّرتُ أن أقومَ بتحويلهما إلى كتاب. ثم نَمَت لدي الفكرة خاصةً بعد عِظةٍ ثالثة حول نفس الموضوع في مؤتمر العاملين بدار الكتاب المقدس بعنوان: «أسعى نحو الغَرَض.»

إنَّ هُناك الكثيرُ مِنَ الرَّغَبات المُقَدَّسَة والمُمَارَساتِ والأَنشِطَة الرُوحية الكثيرة والمجيدة في الكنيسة المسيحية على اختلاف مجموعاتها وطوائفها وكنائسها المحلية، لكن الخبرة العملية تُثبت كل يوم أنها لا تؤدي إلى ما كان ينبغي أن تؤدي إليه من تغييرٍ روحيٍ وسلوكي وأخلاقيّ في حياة من يعيشونها بكل صدقٍ وأمانة. بالطبع هُناك ثمرٌ وهُناك حصاد، لكِنَّهُ أَقَلَّ كَثيراً من الزَرع الذي يتمُّ زَرعَه وأقلَّ ممّا يَتوَقَّع الزارعُ والحاصدُ مَعاً. أتصوَّر أن السبب في ذلك هو عدم ضبط البؤرة جيِّدًا. عندما تكون القوى الكثيرة مُشَتَّتَةً بلا بؤرة تَصُبُّ فيها، فإنها لا تؤدي إلى تَحَرُّكٍ حقيقيٍ للأمام، بل رُبما يُضادُّ بعضُها بَعضاً فتكونُ المحصلةُ أَقَلَّ مِنَ الجَهدِ المَبذولِ. أما إذا تم ضبط البؤرة، فإن القوى تتجمع معاً مثلما تقوم العدسة المُحدّبة بتجميع أشعة الشمس في بؤرة واحدة شديدة السخونة، حتى أن قطعة صفيح مُلقاة يُمكن أن تشعل الغابات. وبالمثل، فإنه عندما يكون العَملُ الروحي له بؤرة واحدة مُنضبطة، فهو يؤدي إلى حصادٍ أوفر وحَركةٍ أسرع وأكثر ثباتاً نحو الهدف.

أتصورُ أن الإيمانَ والحياةَ المسيحية كَما يُقدِّمهُما العهدُ الجَديد يَدورَانِ حَول بؤرةٍ واحدةٍ (والبؤرةُ ينبغي دائماً أن تكونَ واحدةً) هذه البؤرة هي تلك **النَقلَة التطوُّرية التي ينتَقِلُها**

الإنسانُ من حالتِهِ الجَسَدِيَّة الضَعيفة الوضيعة لكي يرتقي إلى خليقة جديدة[1] هي أقرب إلى الطبيعة الإلهية نفسها.[2] هذه الخليقة سوف ترث مستقبلاً مجيداً بقدر المجد الذي حصل عليه المسيح عندما قام من بين الأموات وجلس عن يمين الله في الأعالي.

إن المسيحيةَ لا تعني شيئاً سوى أَنَّ اللهَ يريدُ أن يُعطينا طبيعةً جديدة. هذه الطبيعة الجديدة التي يتوقُ الله أن يمنحنا إياها هي أولاً طبيعة المسيح الروحية والأخلاقية التي يريد أن يبدأ في منحنا إياها هُنا والآن.[3] ثم سوف يَمنَحُنا أيضاً طبيعَتَهُ الجَسَدِيَّة المَجيدة التي قَامَ بها من بين الأموات،[4] وذلك عندما يقوم المسيحُ في مجيئة الثاني المجيد بتجديدِ الأَرضِ والسَماء، بما في ذلك أيضاً شَكلَ جَسَدِ تَواضُعِنا ليكونَ على صورةِ جَسدِ مِجده بحسب استطاعته أن يخضعَ لنفسه كل شيء.[5]

لقد أَخَذَ المَسيحُ طَبيعَتَنَا البَشَرِيَّة وعَبَرَ بها من بوابةِ المَوت لِكَي يَجعَلَها طَبيعةً جَديدةً أرقى. إنه مثل الصائغِ الذي يأخذُ معدناً رخيصاً مليئاً بالشوائب ليَعبُرَ به من بوتَقة اللهب ليجعل منه، ليس فقط معدناً من النفس النوع ولكن أنقى، وإنَّما ليجعَلَهُ مَعدَناً آخرَ أرقى. جسداً جديداً لا يعتريه الضعف والقصور، ولا يعودُ الموت قادراً أن يَنالَ مِنهُ كَما كان من قبل.

- إذاً ليست المَسيحيَّةُ في جَوهرِها ديناً يتكوَّن من عقيدةٍ يؤمنُ بها الإنسان ومنظومةٍ تشريعيةٍ يعيشُ بمقتضاها منتظراً ومُتَمَنِّياً مكافأةً من الله إن أطاعها. العقيدةُ والشريعةُ أمورٌ موجودة بالطبع في المسيحية لكنها ليست البؤرة.

---

١ كورنثوس الثانية ٥: ١٧
٢ بطرس الثانية ١: ٤
٣ رومية ٨: ٢٩ ؛ غلاطية ٤: ١٩ ؛ بطرس الأولى ٢: ٢١
٤ رومية ٨: ٢٣ ؛ كورنثوس الأولى ١٥: ٤٩
٥ رسالة فيلبي ٣: ٢١

- ليست المسيحية أيضاً مُجَرَّدَ فَلسفةٍ تُشَكِّلُ رؤيةَ الإنسانِ للعالم وتَصوغُ عَلاقتَهُ بالكَون والبَشر. هذا و إن كان موجوداً فيها، لكنه ليسَ البؤرة.
- وهي ليست مُجَرَّدُ عَلاقةٍ شَخصيةٍ فيها يتم التواصلُ الروحيّ بين الله والإنسان من خلال العبادة والشركة والإرشاد. العلاقةُ الشخصية مع الله موجودة في المسيحية، وشديدة الأهمية لكنها أيضاً ليست البؤرة.

العقيدة موجودة، والفلسفة حاضرة. الشريعةُ طَاهِرَة والعَلاقَةُ قَائِمَة. لَكِنَّ هناك بؤرةٌ ينبغي أن تكونَ وحدها في المنتصف، وعندئذ فإنَّ هَذِه البؤرة هي التي تَستطيعُ أن تُعطي المَعنى والاستمرارية لكل هذه الأجزاءِ المُهِمَّةِ من الصورة. هذه البؤرة هي أن المسيحيةَ **دعوةٌ إلى خليقةٍ جديدةٍ**.[٦] المسيحية هي بمثابة نقلة تطورية تُعلنُ عن ظُهور ما يُمكن أن نُسمِّيهُ نوعاً جديداً من الوجود الإنساني دَشَّنه المسيح بقيامته من بين الأموات.

يسوع المسيح هو الله الظاهر في الجسد، بهاءُ مجدِ الله ورسمُ جوهرِهِ وحاملُ كل الأشياء بكلمة قدرتِهِ. يسوع المسيح هو المولود من الله قبل كل الدهور والذي تجَسَّدَ في الزمان والمكانِ بشراً من أجلنا. المسيحُ هو المُخلص الذي مات كَفّارةً عن خَطايانا وقام لتبريرنا. والتطبيق النهائيُّ لكُلِ هذا هو أنه قد صَارَ باكورةً لنوعٍ جَديدٍ من الإنسانية يُمكن أن نعيشه هُنا والآن، وسوف نعيشه إلى الأبد في مستوىً آخر من الوجود يُسمِّيه الكتابُ المقدس «الأرضَ الجديدةَ والسماءَ الجديدة» أو «حياة الدهر الآتي» كما يُختَتَم قانون الإيمان النيقوي القسطنطيني، الذي هو قانون الإيمان الذي يعترف به المسيحيون في كافة أرجاء العالم على اختلاف طوائفهم ومذاهبهم.

إن هناك تداعياتٌ كثيرةً نَراها على أرض الواقع في نوعية حياة المسيحيين عندما يجعلون

٦ رسالة غلاطية ٦: ١٥

بؤرةَ حياتِهم المَسيحية شَيئاً آخرَ بخلافِ هذِهِ البُؤرة. إنَّ نَوعِيَّةَ حياةِ كُلِّ مَسيحي تَكشِفُ بصِدقٍ مَا هي البؤرة التي قد رَتَّب حَولَهَا حَياتَهُ. إذا كانت بؤرةُ الحياة المسيحية لدى إنسانٍ أو جماعةٍ ما، هي **العقيدة السليمة**، فسوفَ يَظهرُ ذلكَ في صورةِ قَضائِهِم أَغلَبَ أوقاتِهِم يتعلَّمون العقيدةَ ويُعلِّمونها ورُبما يَدخُلونَ في صِراعاتٍ مَريرةٍ مع الذين يَختلفون معهم في العقيدة حتى على مستوى أَدَقِّ التَفاصيل الصغيرة.

أيضاً يُمكن أن تكون بؤرةُ الحياة المسيحية هي **الكتاب المقدس**. وفي هذه الحالة تتحولُ الحَياةُ المَسيحيةُ إلى حفظٍ للآياتِ والتَفسيرِ الحَرفِيّ لَها. وأحياناً ما تؤدي المبالغةُ في التفسير إلى اختلاقِ معانٍ غَيرَ موجودة، وذلك لأنَّ وَضعَ الكتابِ المُقَدَّسِ في بُؤرة الحياة المسيحية ليس هو ما يُعَلِّم به الكتاب المقدس نَفسُهُ. وهذا بالتحديد كان توبيخ المسيح لليهود عندما قال لهم: فَتِّشُوا الْكُتُبَ لأَنَّكُمْ تَظُنُّونَ أَنَّ لَكُمْ فِيهَا حَيَاةً أَبَدِيَّةً. وَهِيَ الَّتِي تَشْهَدُ لِي. وَلاَ تُرِيدُونَ أَنْ تَأْتُوا إِلَيَّ لِتَكُونَ لَكُمْ حَيَاةٌ.[٧] الكُتُب ليست فيها حياةٌ في ذاتها، إلا بقدرِ ما تشهد للمسيح الذي هو الطريقُ والحَقّ والحياة.[٨] وبؤرة الحياة المسيحية ليست إذاً هي الكتاب المقدس، وإنما هي الحياة مع المسيح، وبؤرة الحياة مع المسيح هي الشَرِكَة معه والتَغَيُّر إلى صورَتِه.[٩]

---

٧ إنجيل يوحنا ٥: ٣٩- ٤٠

٨ إنجيل يوحنا ١٤: ٦

٩ لعل من أسباب فقدان بؤرة الكتاب المقدس هو ذلك التوجه الذي تبناه اللاهوتيون المدرسيون Scholastics قرب نهاية القرن السادس عشر عندما اعتبروا ليس فقط أن الكتاب المقدس ككُلٍّ هو كلمة الله، بل أن كل كلمة فيه هي كلمة الله مهما كان السياق، وبالتالي يمكن اقتطاع أي جزء من الكتاب المقدس مهما كان صغيراً واعتباره «كلمة الله.» وفي منتصف القرن التاسع عشر طوّر نلسون داربي Nelson Darby مدرسة لاهوتية كاملة مبنية على هذه المُقاربة للكتاب المقدس. وبالتالي أدى التركيز على الكتاب المقدس كآيات وحروف إلى فقدان رؤية الصورة الكاملة للكتاب المقدس وعدم إدراك بؤرة الكتاب المقدس التي تعطيه المعنى ككلمة الله. وبؤرة الكتاب المقدس ليس سوى المسيح ــ وبالتحديد «الإنجيل» الذي هو الحدث الخلاصي ليسوع المسيح الذي يؤسس لخليقة إنسانية جديدة تحيا في ملكوت الله إلى الأبد (Frank Viola and George Barna, Pagan Christianity p.226)

يُمكن أيضاً أن تكونَ بؤرةُ الحياةِ المَسيحِيَّةِ **غَابةً كَثيفةً من الطُقوسِ** وحفظ الأعياد والشهور والمواسم[١٠] مثلما كان الحال في العهد القديم. هذه الأعياد والمواسم كان هدفها أيضاً، مثل الكتب المقدسة، أن تشيرَ وترمزَ إلى المسيح، وليس أن تكون هي نفسهَا بؤرة الحياة الروحية.

و إذا كانت بؤرة الحياة المسيحية هي **النشاط والخدمة**، فسوف تجد ذلك ظاهراً في حياة وثقافة من يعيشون حياتهم حول هذه البؤرة. كُلنا نسمع هذه العبارة التي يُعرِّف بها كثيرون من المسيحيين أنفسهم، وبها يتكلمون عن الآخرين: «مؤمن وله خدمته». هذه العبارة تكشف أن الخطوة التالية التي تُعبِّر عن نمو الإنسان في الإيمان هي الخدمة. وهذا بالطبع يجعل المؤمنين يُقاتلون، ورُبما يقتلون أنفسهم و يعذبون زوجاتِهم وأولادِهِم من أجل أن يكون لكل واحد «خِدمَتَه».

و إذا كانت بؤرة الحياة عند جماعة المؤمنين هي **القُوَّةُ الرُوحِيّة** التي تظهر من خلال الآيات والقوات والعجائب، فإن أغلب حياتِهِم سَوفَ تَكونُ كَلاماً وتعليماً وصلاةً من أجل حدوث المعجزات في حياتهم وفي حياة من حولهم. وسوف لا يكون غريباً أن يَحكُمُوا على صدق الإيمان من خلال حدوث المعجزة. المُعجزات التي عَمِلَها المسيح في خدمته على الأرض كان هدفُها الأساسيّ الإعلان عن مجيء ملكوت ودخول الناس إلى هذا الملكوت وليس المعجزات في حد ذاتها. والأناجيل تشهد أنه كلما استشعر يسوعُ أن الجماهير تريد المعجزات للمعجزات، كان يمتنع عن صُنعها لأنها ليست بؤرة تعليمه، و إنما ملكوت الله والحياة مع الله.

ثم نأتي إلى البؤرة الأكثر خُبثاً، وهي بؤرة «**العلاقة الشخصية مع المسيح**» وهذه بالتأكيد

١٠ رسالة غلاطية ٤: ٨-١٠

بؤرة أقرب من الكُل للبؤرة الحقيقية التي يقدِّمها العهد الجديد.عندما تكون هذه هي البؤرة، فإن حياة المؤمن سوف تتميز بالكثير من الروحانية السرّية الباطنية، وسوف تعبر عن نفسها من خلال الصلاة والكلام إلى الله والرغبة في سماع صوته في كل الأمور. لكنها ربما تتحول تدريجياً إلى حياة بلا هَدَف سوى الصلوات والطِلبات والتَعزيات. يُمكن لهذه العلاقة الشخصية التي لا يوجد بها بُعد المُستقبل والميراث الإلهي، أن تتحول إلى عِلاقَة تُكَرِّس ارتباطنا بهذه الحياة الأرضية، أو على أفضل تقدير تجعل من حياتنا الروحية مُجَرَّدَ حياةٍ من التعزيات والخبرات الروحية، دون أن تستنير عيون أذهاننا، كما يقول الرسول بولس في رسالته لأهل أفسس، لنرى ما هو رجاء دعوة الله لنا (أي مستقبل دعوتنا المسيحية)، وغنى مجد ميراثه في القديسين (أي ما سوف نرثه مع المسيح كأبناء لله)[١١] وما هي عظمة قدرته الفائقة من نحونا نحن المؤمنين. هذه القدرة الفائقة ليست قُدرَة لتغيير واقعنا هنا على الأرض بقدر ما هي قُدرَتَهُ لتغيير نوعية وجودنا الروحي الأبدي. لذلك يُكمل الرسول بولس ويكتب:

«وَمَا هِيَ عَظَمَةُ قُدْرَتِهِ الْفَائِقَةُ نَحْوَنَا نَحْنُ الْمُؤْمِنِينَ، حَسَبَ عَمَلِ شِدَّةِ قُوَّتِهِ **الَّذِي عَمِلَهُ فِي الْمَسِيحِ، إِذْ أَقَامَهُ مِنَ الأَمْوَاتِ، وَأَجْلَسَهُ عَنْ يَمِينِهِ فِي السَّمَاوِيَّاتِ**، فَوْقَ كُلِّ رِيَاسَةٍ وَسُلْطَانٍ وَقُوَّةٍ وَسِيَادَةٍ، وَكُلِّ اسْمٍ يُسَمَّى لَيْسَ فِي هذَا الدَّهْرِ فَقَطْ بَلْ فِي الْمُسْتَقْبَلِ أَيْضًا، وَأَخْضَعَ كُلَّ شَيْءٍ تَحْتَ قَدَمَيْهِ، وَإِيَّاهُ جَعَلَ رَأْسًا فَوْقَ كُلِّ شَيْءٍ لِلْكَنِيسَةِ، الَّتِي هِيَ جَسَدُهُ، مِلْءُ الَّذِي يَمْلأُ الْكُلَّ فِي الْكُلِّ (أي لكي يُوَرِّثَهُ للكنيسة التي يملأها بحضوره في كل عضو فيها) » (أفسس ١: ١٩- ٢٣).

١١ يشير الرسول بولس إلى نفس المفهوم في رسالته إلى أهل رومية عندما يكتب: «الرُّوحُ نَفْسُهُ أَيْضًا يَشْهَدُ لأَرْوَاحِنَا أَنَّنَا أَوْلاَدُ اللهِ. فَإِنْ كُنَّا أَوْلاَدًا فَإِنَّنَا وَرَثَةٌ أَيْضًا، وَرَثَةُ اللهِ وَوارثُون مع المسيح.» (رومية ٨: ١٦، ١٧).

هذا هو مُستقبل العلاقة الشخصية مع المسيح وبدونه (أي بدون بُعد الرجاء في العلاقة مع المسيح)، يمكن أن تتحول هذه العلاقة إلى شيء آخر غير ما قد استهدفه الله.

كل هذه المظاهر للحياة المسيحية هي مظاهر صحّية، بل وضرورية لكنها ليست البؤرة السليمة للحياة المسيحية. وعندما يوضع أيٌّ منها في البؤرة فإنها لا تكفي لتجعل الحياة المسيحية مُستمِرَّة ومُلهَمة ومُلهِمة. العقيدة السليمة لا تكفي لإلهام الحياة، ولكنها ربما تكفي لإلهاب الصراعات الطائفية. الخِدمة لا تكفي لتغيير النوعية الروحية لحياة الإنسان، وإنما قد تكفي لتغيير نوعية الأنشطة التي يمارسها ذلك الإنسان وربما تؤدي إلى نوعٍ آخر من إدمانِ العمل والإنجاز وتزكية روح التنافس والتفاخر. الآيات والعجائب عندما تكون هي بؤرة الحياة سوف لن تفتح الباب إلى ظهور إنسان الملكوت الذي ينتظره العالم، بقدر ما سوف تفتح الباب إلى ظهور صانعي المعجزات. ولن تؤدي إلى مزيد من قداسة الحياة، وإنما قد تؤدي إلى المزيد من تقديس الأشخاص. وأسوأ الكُل أنها ربما تفتح الباب إلى ظهور الخرافات والمعجزات المُختَلَقَة المزيفة. أما عندما تكون البؤرة هي العلاقة الشخصية بالمسيح، فهي لكونها بؤرة أقرب من البؤر السابقة، فهناك فرصةٌ أكبر أن تؤدي هذه البؤرة إلى نوعية حياة أفضل، إلا أنها رُبما تؤدي بالإنسان إلى روحانية سرّية انعزالية، وربما تصيبه بالكبرياء الروحي، وإذا لم تؤد إلى كل هذه الأشياء، فإنها بالتأكيد سوف تؤدي إلى ما يُمكن أن أُسَمِّيه «المَلَل الروحي» وهو يصيب كثيرين خاصة في منتصف العُمر (الذي ربما يكون بالمصادفة هو منتصف العمر الإيماني أيضاً) وخاصة إذا كان محور هذه العلاقة الشخصية هو الحياة الأرضية.

إن من الأمور الأساسية في الإيمان المسيحي الذي يقدمه العهد الجَديد، أنه إيمان يتميَّز بالتطلّع والانتظار لغدٍ مجيدٍ في غاية الإثارة. الحياة الأخرى التي كان المؤمنون الأوائل

يتوقعونها (بين لحظة وأخرى) لم تكن مجرد حياة في «أحضان القديسين» كما اعتدنا أن نكتب في تأبين المنتقلين، أو أبدية من «الترنيم» كما يُحب قادة التسبيح أن يؤكدوا علينا دائماً. لقد كانت الحياة المسيحية في عصر العهد الجديد حياةً ينتظرون فيها ويتوقعون تغييراً حاسماً في طبيعتهم واختباراً جديداً للعلاقة مع المسيح، كُلَّما حاولوا تخيله شعروا بإثارة تجعلهم يتمنون أن يحدث ذلك في التوّ واللحظة.[١٢]

عندما قام المسيح من الأموات تَغَيَّرَت طَبيعَتَهُ وتَغَيَّرَ شَكلَه حَتّى أنهم لم يعرفوه في البداية. لذلك فإن المؤمنين الأوائل كانوا يتطلَّعون بإثارة إلى تَغَيُّرِ طَبيعتِهِم أيضاًعندما يأتي المسيح ثانيةً.[١٣] الحياة المسيحية التي يُقَدِّمُها العهد الجديد لتلاميذ المسيح هي حياة من التغيير والتطوُّر المستمر في طبيعة حياتهم الروحية والأخلاقية هنا على الأرض، منتظرين عملاً مثيراً فيهِ يَملكونَ على الأرض(بعد أن تَتَجَدَّد) ويتمتعون بسلطانٍ ينتظرون بشوقٍ أن يكتشفوا تفاصيله.[١٤]

بالنسبة لي شخصياً كل هذه البُؤَر السابقة لم تكفني ولم تعُد تُشبعُني بَعدَ حين. بل ولم تكن لتبقيني مَسيحياً فعلياً لا إسمياً حتى الآن. أَظُنُّ أنَّ قَضية «المَلَل الرُوحِيّ» هذه، قضيةُ حَقيقيةٌ جِداً بالنسبةِ لنوعِيَّةٍ مِنَ البَشر أظن أنَّني أَنتمي إليها. إذا كان المسيح هو فقط «المُخَلِّص» الذي سوف ينقذنا من الجحيم كما للأسف كثيراً ما يُقَدَّم المسيح، فهذه الفكرة لم تكن لتُبقيني مسيحياً حتى الآن، وأعتقد أنها رُبَّمَا قد أدَّت بالفعل إلى فُقدانِ إيمانِ الكَثيرين. هَذِهِ فِكرَةٌ رُبما تُساعِدُ على الإيمان في سنوات المُراهَقَةِ الأولى وخاصةً بالنسبةِ للشخصيات الوسواسية التي تَمَّت تَربيَتُها تربيةً دينية بحيث ترتعب من الخطأ والخطية، وهذه طريقة

١٢ رسالة فيلبي ٣: ٢١

١٣ رومية ٨ : ١٨- ٢٣ ؛ كورنثوس الأولى ١٥: ٢٢- ٢٣ ؛ كورنثوس الثانية ٥: ١٧ ؛ فيلبي ٣: ٢٠- ٢١ ؛ كولوسي ٣: ٤ ؛ يوحنا الأولى ٣: ٢

١٤ رؤيا يوحنا ٥: ١٠

تربية شائعة في مجتماعاتنا. إن الحياة التي هي مُجَرَّد إنقاذٍ من الموت (حتى ولو كان الموتُ الأبدي) يُمكنُ بسهولة أن نفقد اهتمامنا بها. فلا يستطيع الإنسان أن ينجذب طويلاً إلى مُجرَّد النجاة، خاصةً وإن كان لَم يَعُد يَشعر بالذَنب أو بالخَطَر. وإن كان المسيحُ هو مُجَرَّدُ «الصديقُ القَوِيّ» الذي في السماء والذي يُذلِّل لنا الصِعاب هُنا على الأرض كما للأسف يؤمن كثيرون، فهذا لا يكفيني لكي أعيش مَعَهُ ومن أجلِهِ، فالحياةُ هنا على الأرض لم تعد تُشبِعُ جوعي، وأظن أنها لا تُشبِع جوع الكثيرين. إن الإنسانَ بطبيعتِهِ الرُوحية، يتوقُ دائماً إلى ما هو «أكثر من ذلك» الإنسانُ دائماً ما يقول: «وماذا بعد؟» ماذا بعد السعادة هُنا والراحة هُنا والشفاء هُنا والبركة هنا؟ كل هذه الأشياء، للأسف، لا تكفيني، خاصةً وإني اعرف أنَّها كُلَّها سوف تنتهي.

أتصوَّر أن المسيحية عندما تقدم بهذه الطريقة، التي لا يقدمها العهد الجديد مُطلقاً، فإنها لا تَعيشُ طويلاً في قلوب الناس، بل أن الكثيرون «يَتَخَرَّجون» من الإيمان المسيحي بعد أن يرونه قد صار صغيراً جداً بالنسبة لهم. بالطبع هم لا يقولون هذا، ولا حتى يعترفون لأنفسهم به، لكن تشي به بوضوح طريقةُ حياتِهم. هذا لأن الإيمان المسيحي بهذه الطريقة، بالفعل صغيرٌ جداً. إنه يُصبِحَ مُجرد «عُكَّاز» نَتوكأُ عليه في هذه الحياة على الأرض، أو «أفيونٍ» نُخَدِّر أنفُسَنا بِهِ مِن آلامِ هذا العالم، أو نَتعاطاه لينقلنا إلى عالم آخرٍ نُنشئه لأنفُسِنَا من خلالِ ما يُسَمَّى «بالأجواء الروحية.»

لهذا السبب فإن الإيمان المسيحي بهذه الطريقة ربما يجتذبُ الشباب الذي يبحث عن أَبٍ بديلٍ، سواء كان هذا الأب البديل هو المسيح فعلاً أم قائد ديني يُجَسِّد المسيح. وفي هذا تَصدُق فينا مقولة فرويد أن الإنسان هو الذي صنع الله على صورته (أو صورة أبيه المفقود) وليس العكس. الإيمان المسيحي بهذه الصورة يمكن أيضاً أن يجتذب النساء المُحبَطاتِ

من زواجٍ فاشلٍ أو من زواجٍ لم يأتِ أَساساً. مثل هذا الإيمان قد يجتذب بطبيعة الحال من يخافون من العقاب أو يحلمون بالثواب أو يخافون من مفاجآت الحياة أو من يبحثون عن هُوِيَّةٍ أَفضَلَ أو أُسرَةٍ أفضل. بالطبع ليس عيباً أن تدفع هذه الأمور الإنسان للبحث عن الله وعن الحقيقة، فهو بالفعل أبو اليتامى وقاضي الأرامِل، لكنه ليس ذلك فقط، ونظلمه ونظلم أنفسنا كثيراً إذا رأيناه فقط هكذا ــ مُجَرَّدَ حَلٍ لحياتِنا الفَاشلة. وعندما تكون هذه هي صورته في عيوننا، فإننا سريعاً ما نفقد اهتمامنا به إذا فقدنا خَوفَنَا، أو إذا تَحَسَّنَت ظروفنا، أو إذا لم نَجدُ في حياتِنا المسيحية شيئا جديداً.

والمؤسفُ لحدٍ مُرَوِّع أن البؤرةَ الحقيقيةَ ليست فَقط تائهةً بين البؤَرِ المُختلفة، وإنما تكادُ تكونُ غير موجودةٍ أساساً. نحن لا نتكلم عن هذه البؤرة المُرتبطة أساساً بحدث القيامة، إلا مَرَّةً وَاحِدَةً في السنة في عيد القيامة، وكَثيراً ما لا نَربُطُ فيها بين قيامة المسيح وقيامتنا نحن. أما المرّات التي ربما تُقدَّم فيها هذه البؤرة بطريقة أقرب ما تكون للطريقة السليمة، فيكونُ في المناسبات التي يَكثُرُ فيها البُكاء، وعادة ما لا يستوعبها الناس لأنهم يعتبرون، ورُبَّما يكونون مُحِقّين، أننا فقط مُضطَرّون أن نتكلمَ بِهذهِ الطَريقة لَكي نُعزّي النَائِحين. في وَاقعِ الأمر، فإن الأصحاح الخامس عشر من رسالة بولس الرسول الأولى لأهل كورنثوس، الذي عادة ما لا يُقرأ ولا يتم التأمل فيه إلا في الجنازات، هو ما يبقيني حياً روحياً حتى الآن. والمثير للاهتمام أنَّهُ يبدأُ بأوَلِ قانونِ إيمانٍ (عقيدة) عَرَفَها المسيحيون.[١٥] وهذا في إشارة إلى أن العقيدة الوحيدة التي ينبغي أن نتبناها والوحيدة التي ينبغي أن نقاتل من أجلها ونختلف مع الدنيا كلها من أجلها، هي أن المسيح قد قام من بين الأموات فعلياً وحرفياً وجسدياً. بخلاف ذلك، فإنني أكاد أقول أن لا شيء يَهُمُّ كثيراً.

١٥ كورنثوس الأولى ١٥: ١-٦

إن ما يثيرَني فِعلاً في الحياة مع المسيح، ويجذبني إليها، هو أنه يَعِدُني بترقيةٍ، ويَحُثُّني أن أنتظرَ نُسخَةً جَديدةَ من الوجودِ بَدلاً من هذا الوجود الذي نعيشُهُ. هذا الوجودُ ليس فقط مؤلمٌ وفاسد، بل إنَّهُ مُملّ إلى حدِ المَوت. إنَّهُ وجودٌ قد عَتَقَ وشاخَ وقَرُبَ جداً من الفَنَاءِ والاضمحلال،[١٦] وإن كانَ لي رجاءٌ في المسيح في هذه الحياة فَقَط فهذا يجعَلُني من «أشقى جميع الناس».[١٧] لكننا عندما نعيش البؤرة الحقيقية للحياة المسيحية، فإن هذا سوف يسمح للروح القدس أن يملأنا ويصنع فينا الشوق والتَطَلُّع ويعطينا عربون هذه الحياة التي لا يُمكن أن يصيبنا فيها الملل.

إن قيامة المسيح وما تَعنيه من رَجاءٍ في نوعِيَّةٍ جَديدةٍ من الوجود، هي بؤرة الحياة المسيحية. إنها أهم عقيدة ينبغي أن نؤمن بها، وهي **المعجزةُ** العُظمى والأَهَمّ.[١٨] وهي أهم خبر يُخبرنا به **الكتاب المُقَدَّس** وبدونها لم يكن **للكنيسة** وجود والمناداةُ بها هو محور **الخدمة** المسيحية. إن القيامة هي رجاءُ **العلاقةِ الشَخصيَّةِ** مَعَ المَسيح. عندما تَدخُلُ فَتاةٌ عَاقِلَةٌ رَشيدة في علاقةٍ عاطفيةٍ مع شاب، يَنبغي أن تفكر في مستقبل العلاقة. والمستقبل الذي تحلم به كل فتاة هو أن تتحول علاقتها بحبيبها إلى علاقة زوجية. وعندما يتم الوعد بالزواج تتحول العلاقة من الكلام عن العواطف إلى الكلام عن الإعداد للزواج وللحياة الزوجية. أما العلاقات العاطفية التي لا تنتهي بالزواج، فهي علاقات يُسَمُّونها علاقات «بلا مُستَقبَل» حتى وإن كان مليئة بالكلام الجميل والمشاعر الجياشة. إن القيامة هي مُستَقبَل علاقتنا العاطفية بالمسيح. إننا نُشبه فتاةً جاءَها عريسٌ من بلد آخر، وعَقَد قرانه عليها وارتَبَط بها برباطٍ أبديّ، ثم ذهب لكي يُعدّ بيت الزوجية في البلد البعيد، وعندما يتم إعداد البيت، سوف

١٦ الرسالة إلى العبرانيين ٨: ١٣
١٧ كورنثوس الأولى ١٥: ١٩
١٨ إنجيل متى ١٢: ٣٩

يأتي و يأخذها حتى حيث يكون هو، تكون هي أيضاً.[١٩] ولذلك فإنه قبل أن يعود العريس، لن يكونَ محور اهتمامَهُما سوى بيت الزوجية الذي يقوم العريس بإعداده.[٢٠] و إن دار الحوارُ حول حياتها في البيت الذي تعيش فيه الآن، فإنه سوف يدور حول إعدادها هِي لكي تكون عروساً تليق بهذا العريس المجيد والبيتِ الجديد. كل رسائل بولس الرسول تقريباً تتناول، بل هي مبنية أساساً، على حقيقة القيامة (لقد قام المسيح من الأموات وجلس عن يمين الآب) ومعناها بالنسبة لنا (أقامنا معه وأجلسنا معه في السماويات)، ثم إعدادَنا نحن لكي نعيش كما يحق لهذه الدعوة المجيدة.

لذلك يكتب بولس الرسول، وهذه الفقرة سوف ندرسها في هذا الكتاب بالتفصيل و بالتحديد في الفصل الخامس:

فَإِنْ كُنْتُمْ قَدْ قُمْتُمْ مَعَ الْمَسِيحِ فَاطْلُبُوا مَا فَوْقُ، حَيْثُ الْمَسِيحُ جَالِسٌ عَنْ يَمِينِ اللهِ. ٢اهْتَمُّوا بِمَا فَوْقُ لاَ بِمَا عَلَى الأَرْضِ، ٣لأَنَّكُمْ قَدْ مُتُّمْ وَحَيَاتُكُمْ مُسْتَتِرَةٌ مَعَ الْمَسِيحِ فِي اللهِ. ٤مَتَى أُظْهِرَ الْمَسِيحُ حَيَاتُنَا، فَحِينَئِذٍ تُظْهَرُونَ أَنْتُمْ أَيْضًا مَعَهُ فِي الْمَجْدِ.

(إن كُنتُم تدركون بالفعل معنى قيامة المسيح وقيامتكم معه، فهذا سوف يجعل لعلاقتكم الشخصية به بؤرة جديدة، وهي أنكم سوف تعيشون من أجل المستقبل أكثر من الحاضر، ولن يُهم في الحاضر إلا ما سوف تأخذونه معكم إلى المستقبل وهو شخصياتكم الروحية).

١٩ إنجيل يوحنا ١٤: ٢ب، ٣

٢٠ الرسالة إلى أهل كولوسي ٣: ١- ٤

لذلك يُكمل:

- فَأَمِيتُوا أَعْضَاءَكُمُ الَّتِي عَلَى الأَرْضِ الزِّنَا، النَّجَاسَةَ، الْهَوَى، الشَّهْوَةَ الرَّدِيَّةَ، الطَّمَعَ....
- اطْرَحُوا عَنْكُمْ أَنْتُمْ أَيْضًا الْكُلَّ: الْغَضَبَ، السَّخَطَ، الْخُبْثَ، التَّجْدِيفَ، الْكَلاَمَ الْقَبِيحَ مِنْ أَفْوَاهِكُمْ.
- لاَ تَكْذِبُوا بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ، إِذْ خَلَعْتُمُ الإِنْسَانَ الْعَتِيقَ مَعَ أَعْمَالِهِ..
- الْبَسُوا كَمُخْتَارِي اللهِ الْقِدِّيسِينَ الْمَحْبُوبِينَ أَحْشَاءَ رَأْفَاتٍ، وَلُطْفًا، وَتَوَاضُعًا، وَوَدَاعَةً، وَطُولَ أَنَاةٍ ....

إلى آخر الفقرة، وربما إلى آخر الرسالة كلها يقدم توصيات تختص بالنمو الروحي في السلوك والكلام والعلاقات وكل شيء، استعداداً لهذا الميراث الإلهي العظيم.

في هذا الكتاب سوف نتكلم عن بؤرة الحياة المسيحية من خلال تأمل فقرات مُهمة من العهد الجديد وسوف نبدأ بتلك الفقرة التي كَتَبَها بولس الرسول في رسالته إلى أهل فيلبي في الأصحاح الثالث والأعداد من السادس إلى الرابع عشر، وفيها يقول:

لكِنْ مَا كَانَ لِي رِبْحًا، فَهذَا قَدْ حَسِبْتُهُ مِنْ أَجْلِ الْمَسِيحِ خَسَارَةً. بَلْ إِنِّي أَحْسِبُ كُلَّ شَيْءٍ أَيْضًا خَسَارَةً مِنْ أَجْلِ فَضْلِ مَعْرِفَةِ الْمَسِيحِ يَسُوعَ رَبِّي، الَّذِي مِنْ أَجْلِهِ خَسِرْتُ كُلَّ الأَشْيَاءِ، وَأَنَا أَحْسِبُهَا نُفَايَةً لِكَيْ أَرْبَحَ الْمَسِيحَ، وَأُوجَدَ فِيهِ، وَلَيْسَ لِي بِرِّي الَّذِي مِنَ النَّامُوسِ، بَلِ الَّذِي بِإِيمَانِ الْمَسِيحِ، الْبِرُّ الَّذِي مِنَ اللهِ بِالإِيمَانِ. لأَعْرِفَهُ، وَقُوَّةَ قِيَامَتِهِ، وَشَرِكَةَ آلاَمِهِ، مُتَشَبِّهًا بِمَوْتِهِ، لَعَلِّي أَبْلُغُ إِلَى قِيَامَةِ الأَمْوَاتِ. لَيْسَ أَنِّي قَدْ نِلْتُ أَوْ صِرْتُ كَامِلاً، وَلكِنِّي أَسْعَى لَعَلِّي أُدْرِكُ الَّذِي لأَجْلِهِ أَدْرَكَنِي أَيْضًا الْمَسِيحُ يَسُوعُ. أَيُّهَا الإِخْوَةُ، أَنَا لَسْتُ أَحْسِبُ نَفْسِي أَنِّي قَدْ أَدْرَكْتُ. وَلكِنِّي أَفْعَلُ شَيْئًا وَاحِدًا: إِذْ أَنَا أَنْسَى مَا هُوَ وَرَاءُ وَأَمْتَدُّ إِلَى مَا هُوَ قُدَّامُ، أَسْعَى نَحْوَ الْغَرَضِ لأَجْلِ جَعَالَةِ دَعْوَةِ اللهِ الْعُلْيَا فِي الْمَسِيحِ يَسُوعَ.

في الجزء الأول من الكتاب سوف أتناول **«الغَرَض»** أي الهدف الذي ينبغي أن نكون دائماً مُتَّجِهين نحوه في حياتنا المسيحية، وأيضاً **«السياق»** الذي يأتي فيه هذا الغرض من حيث تاريخ الفداء، ثُمَّ **«الفِكر»** الذي ينبغي أن نتبناه ونحن مُتَّجهون نحو هذا الغَرَض. ثم في الجزء الثاني سوف أتناول **«المسيرة»** التي يجب أن نسير فيها لكي نصل إلى هذا الهدف. أما الجزء الثالث والأخير فسوف أُخَصِّصَه لضبط **«الاتِّزان»** بين أمورٍ ثلاثة يؤدي التكاملُ المستمر والتوتر الجدلي الخَلَّاق بينها، إلى ضبط البؤرة فلا تَتَشَتَّت حياتُنا وننحرف عن الهدف.

«استهدفْ السَمَاء، فستَحصُلُ عَلى الأَرضِ فَوقَهَا. استهدفْ الأرضَ،
فَسَتحصُلُ على لا شَيء.»

ك. س. لويس

« لكن ما كان يُعتبر رِبحاً لي، اعتبره الآنَ خَسارةً من أجل المسيح

بل إني أعتبرُ كل شيءٍ خَسارةً بالمقارَنةِ مع الامتياز الفائق لمعرفة المسيح يسوع ربي

لهذا تَخَلَّيتُ عَن كُلِّ شيءٍ من أجلِهِ، وأعتبرُ كُلَّ شَيءٍ نِفايةً
لِكَي أَربَحَ المَسيحُ وأكونُ فِيهِ.»

الأصحاح الثالث من رسالة بولس الرسول إلى أهل فيلبي

أعداد ٧- ٩أ

(الترجمة العربية المُبَسَّطة)

الجزء الأول

الغرض والسياق والفِكر

ذَهبَ شاول إلى دمشق لكي يقبضَ هُناكَ عَلى المَسيحيينَ الذين كانوا يُسَمُّون في ذلك الوقت أتباعَ «الطريق»، ويسوقَهم مُوثقينَ إلى أورشليم. وعندما اقترب إلى المدينة، بغتةً أبرَقَ حَولَهُ نورٌ من السماء فسَقَط على الأرض وسَمَعَ صوتَ المسيح القائم من الأموات يُكلِّمُه. منذُ تلكَ اللحظة لم تعُد حياة شاول كما كانت، كما لم يعُد حتى يُدعى شاول بل بولسُ رسولَ يسوعِ المسيح إلى الأمم. عند تلك اللحظة أدرك شاول أن يسوع هو المسيح وأنه قام من بين الأموات. هذه الحقيقة غَيَّرت نظرته لكل شيء؛ للناموس وللكتاب المقدس ولتاريخ الخلاص الذي يرِد ذِكرُهُ في الكتاب المقدس مُنذ جنة عدن إلى مجيء المسيح، وأيضاً المستقبلِ الأبديّ لهذا الخلاص. ومُنذ ذَلكَ الحين عَاشَ بولسُ يَخدُمُ ويَكتُب ويَتَكَلَّم تحت هذا العنوان؛ إن كان المسيح قد قام، فكيف ينبغي أن نعيش؟ وكيف نُفَكِّرُ ونَسلُكُ؟ وَكَيف ينبغي أن تتغير أولوياتُنا؟ وكَيفَ ننظُر لأنفسنا وللبشر الآخرين وللعالمِ والوجود والمستقبل؟

وفي رسالته لأهل غلاطية يذكر بولسُ أنَّهُ بمُجَرَّدِ أن ظَهَرَ لَهُ الرَّبُ ودَعَاهُ عن طريق تلميذ مسيحي اسمه حنانيا أن يكون رسولَهُ للأمم،[1] لم يستشر إنساناً ولا صَعَدَ إلى أورشليم إلى الرُسُلِ الذين قَبلَهُ، بل انطلقَ إلى صحراءِ العربية (صحراء سورية) وقضى بها وقتاً، فيه رُبما يكون قد أَعاد قراءة العهد القديم كله وأعاد النظر في كل شيء في ضوء أن يسوعَ هو المسيح، وأنه قَام من بين الأموات.[2] منذ ذلك الحين، تَلَخَّصت حياة بولس الرسول في هدف واحد هو المسيح. صارت الحياة بالنسبة له هي المسيح لا أكثر ولا أقل.[3]

امتلأت رسائل بولس بهذه التعبيرات التي تشير إلى أن المسيح والتغيير إلى صورة المسيح،

١ أعمال الرسل ٩: ١٣- ١٩
٢ رسالة غلاطية ١: ١٥- ١٨
٣ رسالة فيلبي ١: ٢١

قد صار هو البؤرة التي تتجَمَّعُ فيها كُلُّ حياةِ بُولُسَ الرسول، ولعل تعبير «في المسيح» قد صار الخِتم والعلامة التي تُمَيِّز كتابات بولس كلها. وفي الفقرة التي أشرنا إليها في المقدمة من رسالة بولس الرسول إلى أهل فيلبي نَجِدُ تَعبيراتٍ عَميقةٍ تشير إلى ذلك التوجه الوجودي الذي صار يصوغ حياة بولس، مثل: «لأعرفه» و «لأربح المسيح» و «أوجد فيه».

كان بولسُ يتوقُ إلى رِبحِ النفوسِ، لكن كان يعرفُ أنَّهُ لن يربحَ نفساً واحدة إلا إذا رَبِحَ المسيحَ أولاً. كان يؤمنُ بأهمية أن يكونَ الإنسانُ في الكنيسة، وأن المسيح قد اختار أن يتَمَجَّد في الكنيسة، لكنه كان يُدرك أنه لا معنى أن يوجد الإنسان في الكنيسة دون أن يوجد أولاً في المسيح ويوجدُ المسيح فيه. صحيحٌ أن الأوراقَ والأزهار والثمار ظاهرةٌ وجميلة ومُفيدة، لكن كل من يَعملون بالزراعة يَعلمون أنَّ الجِذر الحَيّ للنبات هو أهم جزء فيه. الأوراق تذبل وتتساقط، والأزهارُ لا تتجاوزُ أعمارُها الساعات، والثمارُ تَمتَدُ الأيادي لتقطفَهَا. كُلُّ هذا لا يؤثرُ في حيوية النبات واستمرارِهِ طَالماً ظَلَّ جِذرُهُ الحَيّ قادراً على إنتاج المزيد من الأوراق والأزهار والثمار. عِندما يجعل الإنسان من الوجود في المسيح، والحياة فيه، والتشبه به، جِذرَ شجرة حياته، فإنَّهُ يَظَلُّ مُثمراً. أما من يعتبرُ أنَّ الحَياةَ هي الخِدمَةُ والثَمَر، فإنَّهُ يَكونُ مثلَ تلك البذور التي تُزهرُ ورُبما تُثمِرُ سَريعاً، لكن لا يدومُ ثَمَرُها، لأن ليس لها أصلٌ في التُربة ليصنع ثماراً مُتجدِّدَة.

كان هناك الكثير من مصادر الفخر لبولس، وكُلها مصادر فَخرٍ يُمكن أن نُطلِقَ عَليها أنها مصادر «روحية» للفخر، لكنه اختارَ ألا يفتخر بشيء إلا بالمسيح، ويَحسَبُ كُلَّ ما سِوى ذلكَ نِفاية، بل خَسارة، بالمقارَنَةِ بأن يربحَ المسيح. وإذا سألنا أنفُسَنا؛ ما الذي يقصده بولس بأن يَربَحَ الإنسانُ المسيحَ أو يُوجَدَ فيه؟ نَجدُ إجاباتٍ متعددة في أماكنَ متفرقةٍ في رسائله. فيقول في رسالة رومية مثلاً: «البسوا الربَّ يَسوعَ المَسيح، ولا تَنشغلوا بإشباع طَبيعَتَكُم

الجَسَدِيَّة بِشَهَوَاتِها.»[٤] ما معنى أن «يلبسَ» الإنسانُ المسيحَ؟ المَعنى المُباشر هو أن تَصيرَ شخصيةُ المسيح غالبةٌ على شخصيته وتَظهرُ ملامحَ المَسيحَ فِيهِ، تماماً مثلما يتقمَّصُ إنسانٌ (أي يَلبس قَميصَ) شَخصيةٍ أُخرى فيتصرَّفُ مثلها، ليس كمجردِ تقليد سطحي أجوف وإنما تَمَثُّلٍ عميقٍ للشخصية. هذا يحدُثُ من خلال عملٍ روحيّ سريّ، وعَملٍ عَقلِيٍّ واعٍ أيضاً. وذلك لا يعني إلغاءَ الشخصيات الإنسانية الفريدة، ولا يعني أن يصيرَ المسيحيون نُسخاً مُكرَّرَةً مَمسوخَةً، ولكنَّهُ يعني أن يسطعَ نُورُ المَسيحِ من خَلفِ شَخصيَّاتنا المُختلفةِ كَمَا يسطعُ نُورُ النَّهارِ من خَلفِ لَوحةٍ من الزُجاج المُعَشَّق التي بها قطعٌ مختلفةُ الأشكالِ والأَحجامِ والأَلوان، فتنيرُ بألوانِها المُختلفة مُكَوِّنة معاً صورة كبيرة للمسيح في الكنيسة.

هذه الصورة نراها أيضاً عندما يتكلم عن مَخَاض التَلمَذة، فيَقولُ في رسالتِهِ لأهلِ غلاطِيَّة: «يا أولادي، ها أنا أتألم الآن لأجلكم ثانيةً، كما تتألمُ المَرأَةُ عِندَ الوِلادَةِ، إلى أن تُصبِحوا مشابهين لصورة المسيح.»[٥] المَشهَد هنا يشير إلى امرأة تعاني آلام الولادة، لكنها تفرح عندما ينزل المولود حاملاً شَبَهَ أبيه. وبولس هنا يقول إنني عندما أرى صورة شخصية المسيح فيكم يا تلاميذي، تهون عليّ آلامَ الولادة والمخاض. هذه هي الدعوة وهذا هو الهدف وتلك هي بؤرة الإيمان؛[٦] أن يحلَّ المسيحُ بالإيمان في قُلوبِ المؤمنين به، ويَعمل فيهِم إلى أَن يَتَوَحَّدوا جَميعاً في إيمانهم وفي معرفتهم بابن الله، وينضجوا في كل شيء حتى يصلوا إلى شَبَه المسيح.[٧] بولس الرسول يقول هنا في رسالة فيلبي (وفي أماكن أخرى كثيرة بصورٍ أخرى) أنَّ تحقيقَ هَذه الخليقة مُبنيّ على أمرين لا ثالثَ لَهُما: عَملُ اللهِ المُعجزِيّ «قوَّةُ القِيامة» وجِهادُ الإنسانِ لتفعيلِ هذا العَمل المعجزي. في العدد

٤ رسالة رومية ١٣: ١٤ (الترجمة العربية المُبَسَّطة)

٥ رسالة غلاطية ٤: ١٩ (الترجمة العربية المُبَسَّطة)

٦ رسالة رومية ٨: ٢٩

٧ رسالة أفسس ٤: ١٢- ١٣

الثاني عشر من الأصحاح الثاني يكتب: إِذًا يَا أَحِبَّائِي، كَمَا أَطَعْتُمْ كُلَّ حِينٍ، لَيْسَ كَمَا فِي حُضُورِي فَقَطْ، بَلِ الآنَ بِالأَوْلَى جِدًّا فِي غِيَابِي، تَمِّمُوا خَلاَصَكُمْ بِخَوْفٍ وَرِعْدَةٍ، لأَنَّ اللهَ هُوَ الْعَامِلُ فِيكُمْ أَنْ تُرِيدُوا وَأَنْ تَعْمَلُوا مِنْ أَجْلِ الْمَسَرَّةِ.

وكلمة «تَمِّموا» هُنا لا تُشير إلى إكمالِ شيءٍ ناقص، و إنما إلى تَفعيل شيءٍ كامنٍ للوصولِ به إلى غَايَتِهِ. الكَلمةُ المُستَخدَمَةُ في ترجمة NIV الإنجليزية هي work out وكأنَّه عملٌ إلهيٌ داخليّ تامٌ لَكنَّه يحتاجُ لأن يَتِمَّ إظهارُهُ خَارجاً أو تفعيلُهُ من خِلالِ التدريب المستمر.[٨] في الترجمة العربية المُبَسَّطة تأتي هكذا: «ضاعفوا جهودَكُم بتوقيرٍ وخَوف، للوصول بخلاصِكُم إلى غَايته. فاللهُ هُوَ الذي يَضعُ فيكُم الإرادةَ لعملِ ما يُرضيه و يُعطيكم القُوَّةَ لتحقيقِ ذلك». فما هي «غاية الخَلاص» إلّا أن يكونَ المؤمنون مشابِهين للمسيح؟

الإرادة الروحية يُنشئُها الروحُ القدُسُ بعملٍ إلهيٍ سرّي (تجديدُ القلب)، والروح القدس يُعطي أيضاً القُوَّة للجهاد. كل هذا يَظَلُّ كامناً منتظراً الطاعةَ والتدريبَ لتحويلِهِ إلى حَقيقةٍ واقعةٍ مُتزايدَةٍ يَومياً. وبِقدرِ ما يكونُ هذا الجهادُ، بقدر ما يكون حجم تفعيل هذه الخليقة الجديدة، وهذا الحجم من التفعيل سوف يظهر في اليوم الأخير في صورة «ثِقلِ مَجدٍ»[٩] يختلفُ فِيهِ كُلُّ إنسانٍ عن الآخر. هذه هي «جَعَالَة دَعوةِ الله العُليا في المسيح يسوع.» وهذه الجعالة، أي الجائزة، يتكلم عنها بولس في رسالته الأولى لأهل كورنثوس عندما يُشَبِّهُهَا بجَعَالةِ الرياضي عندما يُنهي جهادَهُ.[١٠] هذه البؤرة، وهذا الغرض، عندما يوضع في مكانه في قلب الصورة، فإنه يضبط كل أجزاء الصورة. فعندما يصيرُ المؤمنونَ بالمسيح أكثرَ شبهاً بهِ وتتغيرُ طَبيعَتَهُم تدريجياً لتَحمِلَ طَبيعتَهُ في محبتِهِ وصَبرِهِ وفِكرِهِ وأحشائِهِ (مَشاعرِهِ)، فإنهم

٨ أعمال الرسل ٢٤: ١٦

٩ كورنثوس الثانية ٤: ١٧ ؛ كولوسي ٣: ٤

١٠ كورنثوس الأولى ٩: ٢٤- ٢٨

عندئذ يأتون بثمرٍ بشكلٍ يكادُ يكون تلقائيّ. يكتب ج. ك. تشسترتون G. K. Chesterton أن الحُجة الوحيدة التي لا يُمكن الرد عليها ضد المسيحية هي المسيحيين.[11] وهو يقصد بذلك أن طبيعة حياة وسلوك المسيحيين عندما لا تعكس شخصية المسيح، فمهما قالوا من كلامٍ جميلٍ وصحيح، فإنه لا يلقى آذاناً مصغية عند الناس. وبالتالي فإنه إذا كانت أقوى حجة ضد المسيحية هي المسيحيين، فإن أقوى حُجة في صالح المسيحية هي أيضاً المسيحيين، وذلك عندما يُظهرون بالفعل شخصيةَ المسيح.

في مقدمة كتابه *الوصيةِ الغائبة* يكتب دالاس ويللارد Dallas Willard عن احتياج العالم لتلاميذ المسيح:

> إن أعظم احتياج يواجِهُهُ العالمُ اليومَ، بكل ما فيه من احتياجاتٍ تَكسرُ القلوب، هو أنَّ الذين بشكلٍ أو بآخر ينتمون إلى «المسيحية»، يصبحون بالفعل تلاميذاً ليسوع. بمعنى أن يتمثلوا شخصِيَّته ويُقَلِّدُوه في كل شيء ويَجلبوا حياةَ ملكوتِ السَموات في كُلِ رُكنٍ مِن أَركان الوجود الإنساني.[12]

11 Peter Kreeft, *Fundamentals of Faith. Essays on Christian Apologetics* (San Francisco: Ignatius Press, 1988) 46.

12 Dallas Willard *The Great Omission. Reclaiming Jesus's Essential Teachings on Discipleship* (San Francisco: Harper One, 2006) xv.

الفصل الأول

أمتدُّ إلى قُدَّام

الحياةُ بين قيامتين

أهم ما يميزَ الإيمان المسيحيّ هو أنه إيمان تاريخيّ ومستقبليّ في نفس الوقت. إنه إيمانٌ بحدثٍ قد تَمَّ في الماضي، وانتظارٌ لحدثٍ سوف يتمَّ في المستقبل. الحَدَث الذي تم في الماضي هو قيامة المسيح من الأموات. والحَدَث الذي سوف يحدُث في المستقبل هو مَجيءِ المسيح الثاني وقيامة الأموات النهائية عندما يُقيم الله جميعَ البَشَر في حياةٍ جديدة في الدَهر الآتي ويُجازي كُلَّ واحدٍ بحَسب أعماله.[١٣]

يكتب اللاهوتي الأمريكي اللوثري تيد بيترز Ted Peters عن صورة الله في الإنسان أنها «الدعوة إلى المستقبل». الله يدعو الإنسان ويجتذبه نحو واقع مستقبليّ. إننا كبشر نعيش حالة من التَحَقُّق المُستمر. الخطية ونتائجها تقوم بتعطيل هذا التَحَقُّق، وبهذا المنظور فإن الخطية هي ببساطة التركيز على الواقع الحالي على حساب الواقع المستقبلي وبهذا نُعطِّل دعوة الله لنا للأمام نحو الخليقة الجديدة. الحياة هي التَطَوُّر والتَحَقُّق، والخطية هي التوقف وعدم التَحَقّق.[١٤]

لقد جاء المسيح إلى واقعنا المتواضع (ولا أقول الوضيع)، لكي يقفز بنا قفزة هائلة للأمام. هذه القفزة هي القيامة وظهور الخليقة الجديدة. لذلك فإن الحياة المسيحية هي الحياة في

---

١٣ مزمور ٩٦: ١١-١٣

14 Ted Peters, *God _ The World's Future. Systematic Theology of the Postmodern Era,* (Minneapolis: Fortress Press, 2000) 153- 155.

ضوء القيامة وفي انتظار اكتمالها التام. أنها هي الحياة بين الباكورة والمحصول التام. هذا يؤكده بولس الرسول عندما يضع هدف حياته بين هذين الحدثين: قيامة المسيح، وقيامة الأموات العامة، عندما يكتب: لأَعْرِفَهُ، **وَقُوَّةَ قِيَامَتِهِ**، وَشَرِكَةَ آلاَمِهِ، مُتَشَبِّهًا بِمَوْتِهِ، لَعَلِّي أَبْلُغُ إِلَى **قِيَامَةِ الأَمْوَاتِ**.[١٥] هدف الحياة بالنسبة لبولس هنا هو أن يعرف المسيح بين قيامته كبداية للحياة المسيحية وقيامة الأموات النهائية.

أنا هو القيامة!

لَمَّا سَمِعَت مَرثا أَنَّ يسوعَ آتٍ خَرَجَت لِلِقَاءِهِ قَبلَ أن يَصِلَ إلى البيت وقالت له: «يَا سَيِّدُ، لَوْ كُنْتَ ههُنَا لَمْ يَمُتْ أَخِي لكِنِّي الآنَ أَيْضًا أَعْلَمُ أَنَّ كُلَّ مَا تَطْلُبُ مِنَ اللهِ يُعْطِيكَ اللهُ إِيَّاهُ». قَال لها يَسُوعُ: «سَيَقُومُ أَخُوكِ». قَالَتْ لَهُ مَرْثَا: «أَنَا أَعْلَمُ أَنَّهُ سَيَقُومُ فِي الْقِيَامَةِ، فِي الْيَوْمِ الأَخِيرِ». «القيامة» التي أشارت إليها مرثا هي «قيامة الأموات» التي ينتظرها اليهود وينتظرها المسيحيون، والمُسلمون أيضاً، حتى أن الدارِجَ في ثقافتِنا أن نُشيرَ إلى نهاية العالم بتعبير «يوم القيامة». كان اليهود هُم الوحيدون في العالم القديم الذين كانوا يؤمنون بأن الله سيُقيمَ الموتى في النهاية، أي سيحضرهم مرة أخرى إلى نوعٍ جديدٍ من الوُجود الجسديّ بوصفه جُزءًا من وعدِهِ بتجديد كل الخليقة.[١٦]

لَكنَّ المسيحيين، بشكلٍ خاصٍ، يؤمنون أنَّ قِيامة يسوع المسيح من بين الأموات هي باكورة هذه القيامة (أي البداية المُبكِّرَة لَها) والدليلُ التاريخِيُّ فِي المَاضي على حدوثها العتيد في المستقبل. لقد قال لها يسوع: «أَنَا هُوَ الْقِيَامَةُ وَالْحَيَاةُ. مَنْ آمَنَ بِي وَلَوْ مَاتَ فَسَيَحْيَا، وَكُلُّ مَنْ كَانَ حَيًّا وَآمَنَ بِي فَلَنْ يَمُوتَ إِلَى الأَبَدِ.»[١٧] قال المسيح أنّهُ هو القيامة،

١٥ رسالة فيلبي ٣: ١١- ١٢

١٦ ن. ت. رايت، *الخَبر السار. هل الإنجيل خبّر سارّ فعلًا؟ ولماذا؟*، (عَمّان: أوفير، ٢٠١٥) ص ٥٨.

١٧ إنجيل يوحنا ١١: ٢٠- ٢٦

وأكَّدَ ذلك بأن قام هو نفسه من بين الأموات بجسد لا يموت بل يحيا إلى الأبد وليس بالجسد الذي كان فيه قبل الموت. ويستخدم بولس الرسول قيامة المسيح كدليل على حدوث القيامة العامَّة فيقول في الأصحاح الخامس عشر من رسالته إلى أهل كورنثوس، وهو الأصحاح الذي يدافع فيه عن القيامة مايلي: «لأَنَّهُ إِنْ كَانَ الْمَوْتى لاَ يَقُومُونَ، فَلاَ يَكُونُ الْمَسِيحُ قَدْ قَامَ. وَإِنْ لَمْ يَكُنِ الْمَسِيحُ قَدْ قَامَ، فَبَاطِلٌ إِيمَانُكُمْ. أَنْتُمْ بَعْدُ فِي خَطَايَاكُمْ! إِذًا الَّذِينَ رَقَدُوا فِي الْمَسِيحِ أَيْضًا هَلَكُوا! إِنْ كَانَ لَنَا فِي هذِهِ الْحَيَاةِ فَقَطْ رَجَاءٌ فِي الْمَسِيحِ، فَإِنَّنَا أَشْقَى جَمِيعِ النَّاسِ. وَلكِنِ الآنَ قَدْ قَامَ الْمَسِيحُ مِنَ الأَمْوَاتِ وَصَارَ بَاكُورَةَ الرَّاقِدِينَ. فَإِنَّهُ إِذِ الْمَوْتُ بِإِنْسَانٍ، بِإِنْسَانٍ أَيْضًا قِيَامَةُ الأَمْوَاتِ. لأَنَّهُ كَمَا فِي آدَمَ يَمُوتُ الْجَمِيعُ، هكَذَا فِي الْمَسِيحِ سَيُحْيَا الْجَمِيعُ.»

لقد كانت قيامةُ المَسيح زِيارةً لَنا من الدَهرِ الآتي ليُخبِرَنا من خلالِها بمُستقبِلِنا الذي سَوفَ يكون. إنها تُشبِهُ ما تُصَوِّرُهُ أفلام الخيال العلمي عندما يقومُ شَخصٌ من القرن العشرين مثلاً بركوب آلة الزمان والعودة لأحد الأزمنة التاريخية القديمة، فيكون هذا الشخص بالنسبة لِمَن يَعيشونَ في ذَلك الزمن، زائراً من المستقبل.

> المُسيح القائم من بين الأموات هو الزائر الذي جاءنا من المستقبل لكي يخبرنا بالمصير الذي يُعدّه الله لنا والذي يُمكننا أن نشترك فيه بالإيمان.

المُسيح القائم من بين الأموات هو الزائر الذي جاءنا من المستقبل لكي يخبرنا بالمصير الذي يُعدّه الله لنا والذي يُمكننا الآن أن نشترك فيه بالإيمان. هذا المُستقبَل هو حالة وجودية أخرى بقوانين مادّية أخرى مثلما كانت مادّة جسد المسيح بعد القيامة من نوعٍ مُختلِف، تأكُلُ وتَشرَبُ ويُمكن أن تُلمَس وفي نفس الوَقت تَدخلُ وتَخرُجُ والأبوابُ

مغلقة.[١٨] أي أنها تخضعُ لقوانينَ أخرى غير القوانين التي يخضعُ لها وجودُنا البشري الحاليّ. هذا الدَهرُ الآتي وتلك الحالةُ الأُخرى كانَت مَوجودةً دائماً لَدى الله وقد زارَت دَهرَنا زياراتٍ مُختلفة على مَدى التاريخ الفدائي كُلِّه، بدءًا من العُليقة التي كَانت تشتعل بنارٍ ولا تَحتَرِق (نورُ ونارُ بلا فناءٍ ولا دَمار)، مُروراً بكُلِّ أشكالِ المعجزاتِ الفائِقة التي يتلامسُ فيها دهرٌ آخر لهُ قوانينٌ أُخرى مع دهرِنا. رُبما هَذا هو ما حدث أيضاً عِندما مَشى يسوعُ على الماء، وعِندما تَجَلّى لتلاميذه عَلى الجَبَل. لِكنه لم يُستعلن بشكلٍ كاملٍ وباقٍ إلّا عندما قامَ المسيحُ من الأموات، وفَتَح الدَهرين على بَعضهما البعض بشكلٍ تامٍ ومُستمر، فأَنَارَ كُلاً من الحياةِ والخلود بواسطة الإنجيل.[١٩]

التَطَوُّر الروحيّ

هذه النَقلَة التطورية الأخيرة للإنسان لم تحدث تدريجياً (بالنقاط) عن طريق الارتقاء والانتخاب الطبيعي، وإنما كانت (بالضربة القاضية). لقد وجه الله ضربة قاضية للموتِ والفناء والفساد والخطية عندما أقام يسوع من بين الأموات. بعدها ظهرت باكورة الخليقة الجديدة، وصار «الانتخاب» فيما بعد ليس الانتخاب البيولوجي الطبيعي وإنما انتخاب الإيمان الروحي.[٢٠] لقد كان آدم الذي هو أعلى مستويات التطور البيولوجي، نفساً حية، أمّا آدم الثاني فهو روحاً مُحيياً. كان آدم الأول من الارض ترابيّ، أما آدم الثاني فهو الرَّبُّ من السماء. إنَّه الذي أحبّ إلى المُنتهى ومات لكي يُميت الموتَ نفسَهُ.[٢١] مُعلناً أن المحبة أقوى من الموت، ومن يضع ثقته في انتصار المحبة على الموت فإنه ينضم

١٨ إنجيل لوقا ٢٤: ٣٩- ٤٢

١٩ رسالة بولس الرسول الثانية إلى تيموثاوس ١: ١٠

٢٠ إنجيل متى ٢٠: ١٦

٢١ رسالة بولس الرسول الأولى إلى أهل كورنثوس ١٥: ٤٥، ٤٧

و ينتمي إلى هذه الخليقة. هذا ما قاله يسوع لمرثا عندما قال: «أَنَا هُوَ الْقِيَامَةُ وَالْحَيَاةُ. مَنْ آمَنَ بِي وَلَوْ مَاتَ فَسَيَحْيَا، وَكُلُّ مَنْ كَانَ حَيًّا وَآمَنَ بِي فَلَنْ يَمُوتَ إِلَى الأَبَدِ».

لقد كان المسيحيون الأوائل ببساطةٍ شديدة يؤمنون أن الله سوف يفعل مع الكونَ كله ما فعله مع يسوع في القيامة.

لم يكن المسيحيون الأوائل يؤمنون بأن العالم يتقدم نحو الأفضل تدريجياً، سواء بمفرده أو حتى بمعونة الله، و إنما كانوا يؤمنون أن الله سوف يفعلُ شيئاً جديداً دَفعَةً وَاحِدَةً، يَضعُ به كُلَّ الأمور في نصابها الصحيح. كما أنهم لم يؤمنوا أيضاً أن العالمَ يتحرك نَحو الأسوأ وأن عليهم فقط أن يَهرُبوا من هذا العالم. لم يكن المؤمنون الأوائل ثنائيّ العقيدة، ولم يعتقدوا بأنَّ المَادَّةَ شَرٌ والروح خَيرٌ مِثلما كَان يعتَقِدُ الغُنوسيون والأفلاطونيون الجُدُد المعاصرون لهم. ولأن أغلب المسيحيين الآن للأسف يؤمنون بواحدٍ من هذين السيناريوهين فقط فيما يتعلق بالأيام الأخيرة، فإنهم يندهشون عندما يُدركوا أن المسيحيين الأوائل كانت لهم نظرةٌ ثالثةٌ. لقد كان المسيحيون الأوائل ببساطةٍ شديدة يؤمنون أن الله سوف يفعل مع الكونَ كله ما فعله مع يسوع في القيامة.[٢٢]

يضع الّاهوتي الانجليزي ن. ت. رايت N. T. Wright في كتابه *فائجني الرجاء* المُكَوِّنات الثلاث الأساسية للرجاء المسيحي كما يلي:[٢٣] أولًا: **الخليقة صالحة**. وليست الخليقة صالحة في ذاتها كما يعتقد المؤمنون بوحدَةِ الوُجود،[٢٤] و إنما ينبع صلاحُها من خالِقِها وراعِيها الذي يَضبُطها و يمُدّها دائماً بقوة الوجود. ثانياً: **الشرُّ حقيقي**. الشرّ حقيقيّ وقويّ لكنه ليس أصيلاً. ليس الشرّ إلهاً آخر ينازِعُ الله مثلما يعتقدُ المؤمنونَ

22 N. T. Wright, *Surprised by Hope*, (London: SPCK, 2007), 104.

23 Ibid

24 Pantheism

بثنائية الوجود، كما أنه ليسَ مخلوقاً من الله بشكل مقصود. الشرُّ هو غيابُ الخير كما أن الظلام هو غياب النور. لقد اختارَ الله ألّا يفرضَ الخَيرَ فَرضاً، و إلا لا يكونُ الخيرُ خَيراً أخلاقياً حُرّاً لكائناتٍ رُوحِيّة حُرّةٍ كالبشر. هذا الخيار الإلهي الأساسي فَتَحَ البابَ لغياب الخير عندما لا يَختارَهُ الإنسانُ وهَكَذا يكون الشر. والشر أيضاً ليس مرتبطاً بالمادّة، فالمادة المخلوقة من الله خيرٌ وليست شراً.[٢٥] الشرُّ في المفهوم المسيحيّ هو التَمَرُّد وعبادةُ الإنسان لنفسه وانحصاره فيها. هذا الشر نفسه يحتاج إلى الخير لكي يكون، فالإنسان لكي يمارس حتى التمرد، فإنه يحتاج إلى القدرات الصالحة التي أعطاها الله له من إرادة وذكاء وقوة. لذلك فلكون الشَرّ غير أصيل وغير مخلوق، فحتى هو يعتمد في وجوده على الخير الذي خلقه الله.[٢٦] ثالثاً: **خطة الفداء**. لا يعني الفداء مَحو كل ما هو موجود والبداية من جديد، و إنما يعني انعتاق ما هو موجود، من عبودية الفساد.[٢٧] ولأن طبيعة الشر روحية وليست مادّية، ولأن الشر هو التَمَرُّد، فإن طريق الانعتاق هو أيضاً روحيّ، ومن خلال الطاعة والخضوع.

السياق التاريخي

لقد كان كُتّاب العهد الجديد وأهمهم بولس الرسول يكتبون وهم مُدركين تماماً خَطَّ الزمن الذي يعيشون فيه و يعرفون في أي مرحلة من تاريخ الفداء يعيشون. في واقع الأمر ينتمي مجيء المسيح الأول وحياته على الأرض إلى العهد القديم. لأن العهد الجديد قد تم تكريسه بدم المسيح،[٢٨] وقد بدأ فعلياً بقيامة المسيح من بين الأموات. مُنذ ذلك الحين

٢٥ رسالة تيموثاوس الأولى ٤: ٤

26 Peter Kreeft, *Making Sense of Suffering*, (Michigan: Servant Books, 1986).Location 628.

٢٧ رسالة رومية ٨: ٢١

٢٨ إنجيل متى ٢٦: ٢٨

والكنيسة تعيش مُنتظرة مجيء المسيح الثاني أو بالأحرى ظهوره.[٢٩] عندئذٍ سوفَ يرى العالم كله قُدرة حضوره الفائقة لتغيير العالم وبداية حياة الدهر الآتي. لذلك فإن قانون الإيمان النيقاوي القسطنطيني (نسبة إلى مجمعي نيقية و القسطنطينية) يُختتم بهذه العبارة: «وننتظر قيامة الأموات وحياة الدهر الآتي. آمين.»

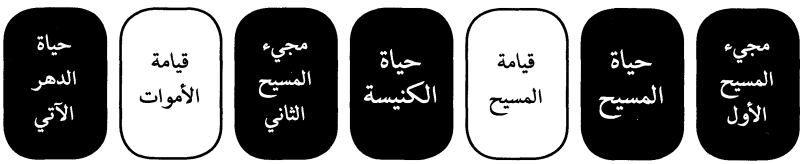

آمن المسيحيون الأوائل أن القيامة قد بدأت بالفعل مع يسوع وسوف تُستَكمل في القيامة النهائية في اليوم الأخير. كما آمنوا بأن الله قد دعاهم للعمل معه بقوة الروح القدس لتطبيق ذلك الإنجاز الذي قام به يسوع، متوقعين قوة القيامة في حياتهم الشخصية وأيضاً في حياتهم العامة. في مُقاومة الخطية في فكرِهِم وسلوكِهم، وأيضاً في مقاومة كل أشكال الخطية والشَرّ والفساد في العالم. لقد كانوا يؤمنون أنَّ الروحَ القُدُسَ يُمَكِّن أَتبَاعَ يسوع ويُحَمِّلهم المسئولية لتغيير الحاضر بقدر ما يستطيعون، في ضوء المستقبل الذي سوف يقوم الله بصناعته.[٣٠] إنّ قيمة قيامة المسيح لا تكمُن فقط في أنها تجلب طمأنينة للذين يواجهون الموت، سواء موتَهم هم أو موتَ أحبابهم. الأهميةُ الحقيقية لقيامةِ المسيح هي أنها تُمَثِّل بداية عالم الله الجديد.[٣١]

٢٩ رسالة كولوسي ٣: ١- ٤

30 N.T. Wright, *Surprised by Hope.*

31 N.T. Wright, *Simply Good News*, p 54.

للأسف يتجنب المسيحيون الكلام الكثير عن مجيء المسيح الثاني والأحداث المُصاحبة له لكي يتجنبوا الخلاف حول علاقة مجيء المسيح بالمُلك الألفي المُشار إليه في الأصحاح العشرين من سفر الرؤيا. في الواقع أنه مهما كان الاختلاف بين المسيحيين حول هذا الأمر[٣٢] إلا أنهم جميعاً يؤمنون بمجيء المسيح الثاني الذي سوف يُكرِّس بداية حياة الدهر الآتي. وقد أدى إهمال المسيحيين للكلام والتعليم والترقب لمجيء المسيح الثاني إلى مُشكلة خطيرة في الروحانية المسيحية، فالروحانية المسيحية مبنية أساساً على انتظار مجيء المسيح الثاني، لذلك ينبغي أن يكون مجيء المسيح الثاني هو محور التعليم وبؤرة الرجاء المسيحي، وإلا فما هو الدافع الذي يُمُدّنا يومياً بقوة الحياة والصبر والجهاد؟ هذا التساؤل يُقدمه بولس الرسول مشيراً إلى أن هذا الرجاء المُبارك هو الدافع وراء كل ما يفعل ويحتمل:

«وما الذي يدفعنا نحن إلى مواجهة الخَطر في كل وقت؟ إني أواجه الموتَ كل يوم أيها الإخوة الذين أفتخر بكم في المسيح يسوع ربنا. فإن كنت قد حاربت وحوشاً في أفسس من أجل أسباب بشرية، فما الذي كسبته من وراء ذلك؟ وإن لم يكن الموتى يقومون، إذاً «فَلْنَأْكُلْ وَنَشْرَبْ لأَنَّنَا غَدًا سنَمُوتُ!»[٣٣]

ألسنا مثل بولس نواجه الخَطر كل يوم؟ وإن لم يكن خطر الاضطهادات (مع أننا بالفعل في الشرق الأوسط قد دخلنا إلى عصر استشهاد واضطهادات لا يقل عن عصر دقلديانوس[٣٤])

٣٢ تؤمن بعض الطوائف المسيحية أن مجيء المسيح الثاني سوف يكون قبل الملك الألفي (القبل- ألفيون) والبعض الآخر أن مجيء المسيح سوف يكون بعد المُلك الألفي (البعدألفيون) وتؤمن فئة ثالثة بعدم وجود المُلك الألفي حرفياً (اللاألفيون).

٣٣ رسالة كورنثوس الأولى ١٥: ٣٠- ٣٢ (الترجمة العربية المُبَسَّطَة).

٣٤ إمبراطور روماني حكم من ٢٨٤ إلى ٣٠٥ ميلادية تميزت الفترة الأخيرة من حُكمه باضطهاد شديد للمسيحيين وحرق الاناجيل والكتب الدينية ومنع المسيحيين من التجمع، وقتل أكثر من ١٠٠٠ مسيحي وقام بتحريم القيام بأي طقوس أو صلوات مسيحية وانتهى هذا الاضطهاد على يد الملك قسطنطين الذي اعتنق المسيحية في النهاية.

فهناك خطر الأمراض المتزايدة وحوادث الطُرق وغيرها. في هذه الفقرة يربط بولس الرسول بوضوح بين الإيمان بالقيامة وانتظارها، وحياة التعفف والطهارة الأخلاقية وذلك عندما يقول: «وإن لم يكن الموتى يقومون، إذاً فَلْنَأْكُلْ وَنَشْرَبْ لأَنَّنَا غَدًا سنَمُوتُ!»

لا نستطيع أن نفصل بين الفشل الأخلاقي الذي كانت تعيشه كنيسة كورنثوس وبين عدم وضوح الأمر بالنسبة لهم في قضية القيامة من الأموات

لذلك فإننا في واقع الأمر لا نستطيع أن نفصل بين الفشل الأخلاقي الذي كانت تعيشه كنيسة كورنثوس وبين عدم وضوح الأمر بالنسبة لهم في قضية القيامة من الأموات. صحيح أنه لا يوجد بيننا من يقول: «إنه لا توجد قيامة أموات»، لكننا نادراً ما نتكلم عن الموت والقيامة باعتبار أن هذا «فَأَلٌ سيء!» فأصبحنا نعاني من نفس النتائج الروحية والأخلاقية. لعل فارقاً أساسياً بين مؤمني هذا العصر ومؤمني العهد الجديد أن الموت الجسدي والقيامة بالنسبة لهم لم يكن فألاً سيئاً وإنما كان هو الفرح الحقيقي والرجاء المُنتَظَر الذي كان يضرِمون نار انتظاره من أسبوعٍ لأسبوعٍ وهم يحتفلون بقيامة المسيح. وفي الرسالة الثانية لأهل كورنثوس يُكرر نفس هذا المفهوم مؤكداً أن الإيمان والاتكال على الله الذي يُقيم الأموات هو الأساس في احتماله، هو ومن معه، لكل المصاعب:

«أيها الإخوة، نريد أن تعرفوا بالضيقة التي مررنا بها في مقاطعة آسِيّا، فقد كانت ثقيلة جداً وفوق طاقتنا، حتى فقدنا كل أمل في البقاء أحياء. وقد شعرنا في قلوبنا أننا محكومٌ علينا بالموت. وذلك لكي نتعلم ألا نتكل على أنفسنا، بل على الله الذي يُقيم الأموات إلى الحياة. لقد أنقذنا الله من خطر موتٍ شديد، وسيواصل إنقاذنا. فقد وضعنا رجاءنا فيه بأنه سينقذنا دائماً.»

يؤمن بولس والذين معه أن الله أنقذهم وسوف ينقذهم دائماً. لكن شجاعتهم لم تكن مبنية على أنه سوف ينقذهم من الأخطار، بقدر ما كانت مبنية على أنه الإله الذي يقيم الأموات إلى الحياة، مثلما أشار من قبل في رسالته الأولى لأهل كورنثوس. إذا كان إيماننا فقط مرتبط بالإنقاذ من الموت، فهذا الإيمان مُعرَّضٌ للإحباط كل يوم، لأنه في بعض المرات لا ينقذنا الله من الموت الجسدي. على أي حال لم يَعِد المسيح بالإنقاذ من الموت الجسدي مُطلقاً، بل كان وعده مبنيّ على عمله وعلى مصيره هو نفسه. لا بأس أن نصلي من أجل الحماية والإنقاذ، لكن الوعد الذي نتمسك به ونتوقعه دائماً «كمسيحيين» أي أتباع وتلاميذ للمسيح، أنه مثلما حدث للمسيح سيحدث لنا، وكما مات المسيح وقام، فإن الله سوف يُقيم أجسادنا بروحه الساكن فينا.[٣٥] فمرة ثانيةً وثالثة، إن كان لنا في هذه الحياة فقط رجاءٌ في المسيح فإننا أشقى جميع الناس.[٣٦]

٣٥ الرسالة إلى رومية ٨: ١١

٣٦ رسالة كورنثوس الأولى ١٥: ١٩

الفصل الثاني

لأعرِفَهُ وأوجَد فيه

الثقة والثبات

عندما يقول الرسول بولس أن كُلَّ غَرَضَهُ وهَدَفَهُ في الحياة والوجود هو أن يَعرف المسيح ويوجد فيه فإنني أَتَصَوَّرُ أَنَّهُ يتكلمُ عن فراغٍ داخلِ قلبِهِ وعُمقِ كِيَانه حاوَلَ من قَبل أن يملأه بأشياءٍ كثيرة فَفَشَلَت هذه الأشياء في أن تملأ فراغه وتؤنس وحدة كيانه الأعمق. ولعلي أتساءل معه: هل أَحتاجُ لمعرفةٍ الحقائق والإجابة عن الأسئلة؟ نعم، لكنني حتى لو حصلت على كل الإجابات وعرفت كل الأسرار وكُل علم، سوف يظلُّ بداخلي جوعٌ نابِضٌ لما هو أكثر. هل إذا شُفيت من أمراضي وضعفي وحُلَّت كل مشكلاتي الاقتصادية وأصبحت في سلام مع كل البشر سوف أشعر بالأمان والسلام والاكتفاء؟ ربما لبعض الوقت، لكنني سوف أظل جائعاً إلى قيمةٍ أعمق أستطيعُ أن أُواصِل الحياةَ من أجلِها. هل إذا حَصُلتُ على نجاحٍ في عملي وخِدمَتي وحققت كل الأهداف سوف أشعر بالشِبَع والاستقرار؟ بالتأكيد سأشعر ببعض الشِبَع والاستقرار، لكن وَحشَ المَلَلِ لن يَلبَثَ أن يَفتكَ بكلِ شيءٍ ويحوله إلى لا شيء. يبدو الأمر وكأن هُناك مكانٌ ما عميقٌ في قلبي لا تستطيعُ كل هذه الأشياء أن تصل إليه. هذا المكان ينبُضُ باحثاً عَمّا لا يُمكن أن يُحتَوَى أو يَنتَهي ولا يَرضى بسواه. هذا هو مصدر الجوع الوجودي للإنسان الذي لا تستطيع الحياة بكل ما فيها أن تُشبِعَهُ.

حتى لو حصلت على كل الإجابات وعرفت كل الأسرار وكُل علم، سوف يظل بداخلي جوعٌ نابِض لما هو أكثر.

قبل أن يَتَعَرَّفَ بولس الرسول على يسوع المسيح شخصياً في الطريق إلى دمشق، كان يحاول بكل أمانة أن يُشبِعَ جوعَهُ الوجوديَّ بهذه الأشياء، لكن يبدو أنه كان لا يزال يشعر بجوع مستمرٍ ومتزايد. من جهة التراث القومي والديني مختونٌ في اليوم الثامن، من جنس إسرائيل، من سبط بنيامين، عبرانيٌّ من العبرانيين. من جهة الناموس فريسيّ. من جهة الغيرة مضطهد الكنيسة (وكانت هذه علامة الغيرة اليهودية في ذلك الوقت). من جهة البر الذي في الناموس، بلا لوم.[1] من جهة الثقافة والتعليم، كان يتكلم ويكتب اليونانية ويقرأ للشعراء والفلاسفة والُحكماء اليونانيين. من جهة المُوَاطَنة، كان يمتلك «جواز سفر» أقوى دولة في العالم في ذلك الوقت، وليس فقط بالتَجَنُّس وإنما قد وُلِد فيها.[2]

> الجوع الوجودي غير المُشبَع هو المصدر الحقيقي والأعمق لكل أشكال التَطَرُّف، بما في ذلك التطرُّف الديني والإرهاب.

لكن رغم كل هذا كان لا يزال يبحث عن شيءٍ أكبرَ ليُشبِعَ به جوعه للمعنى والقيمة والهدف. ربما لذلك قَرَّرَ أن يطارد المسيحيين في دمشق ويسوقهم إلى أورشليم لَعَلَّ هذا يُشعرَهُ بمزيدٍ من القَصدِ والقيمة. يظلُّ الجوعُ الوجوديُّ غيرِ المُشبَع هو المصدر الحقيقي والأعمق لكل أشكال التَطَرُّف، بما في ذلك التطرُّف الديني والإرهاب. وكانت هذه هي نهاية المَطاف التي وَصَل إليها شاول الطرسوسي. لقد صار الفريسي إرهابياً. أَمَّا في اللحظةِ التي أَبرَقَ حَولَهُ نورٌ وكَلَّمَهُ المسيح المُقام، فقد شَعَرَ شاول بشبعٍ لم يشعر به في حياته. لم يُبرِق النور فقط حوله، بل قد دَخَلَ نورٌ باهرٌ إلى مكانٍ ما في عُمق وجوده لم يَكُن قد وَصَلَ إليه أي نورٍ من قبل. لقد رَشَفَ كيانَهُ الداخليّ الجاف قطرةَ ماءٍ حَيٍّ لأول مرة في حياته.

١ رسالة فيلبي ٣: ٥-٦
٢ أعمال الرسل ٢٢: ٢٥-٢٨

لأولِ مَرَّةٍ وَصَلَ الماءُ إلى جنين البذرة العطشان القابع وراء قشور سميكة من الكبرياء الديني والقومي. هذا العطش كان يدفعه طوال حياته لأن يشرب ويشرب من كل نبعٍ وكل بئرٍ لعله يرتوي ولم يرتو.

لأعرِفَهُ

مُنذ ذلك الحين، لم يعد بولسُ يشبع ولا يرتوي إلا بالمزيد من معرفة المسيح والوجود فيه. ليس بالحصول على المعرفة منه، ولا بالمعرفة عنه، بل بمعرفته هو. ليس بالوجود مع الناس أو حتى بالوجود مع المسيح، بل بالوجود **فيه**. إنه صار يشبه ذلك الطفل الفطيم الذي لا يشعر بالراحة والأمان ولا يستطيع أن ينعَسَ إلا داخل حِضنِ أبيه الذي يحتويه بالكامل. لقد وَجَدَ بولس ما كان يبحث عنه طوال حياته ولم يكن وَقتَها يدري أنه يبحث عنه. وعندما وَجَدَهُ فإنه لن يتنازل عنه أبداً، بل أنه يحسب كل ما كان له ربحاً، وكل ما كان يحاول أن يُشبع به نفسه، نفايةً وخسارةً إن كان يجعله يفقد لحظةً واحدةً يقضيها في قلب الحياة وبؤرة الوجود التي اكتشفها أخيراً وأصبح مستعداً أن يبيع عمره كله ويظل فيها.

معرفةُ المسيحِ وربحُ المسيحِ والوجودِ فيه، كُلُّها تعبيرات روحية وُجودية عن الإيمان بالمسيح. هذا الإيمان الذي يُغيِّر الحياة تماماً ليس فقط التغيير الفكريّ العقائديّ، وليس فقط التغيير السلوكيّ الأخلاقيّ، وإنما التغيير في كل شيء: في الإرادة والأولويات، في الفكر والمعتقدات، وفي المشاعر والرغبات. وليس كل ذلك فقط بل إنه سيشمل الجسد أيضاً عندما يتم فداء أجسادنا وتجديدها حيث تلبس صورةً أخرى جديدة هي صورة جسد مَجدِ المسيح الذي لا يعتريه الضعف أو الفساد.

هذا الإيمان ليس عمليةً معرفيةً عقلية وإنما هو عمليةٌ روحيةٌ وجودية. المعرفة العقلية

هي بمثابة النظر في مرآة، في لُغز، ستكون دائماً مشوبة بالحيرة والشك. أما هذه المعرفة الوجودية التي سوف تكتمل في الحياة الأخرى، فهي كما يكتب بولس أيضاً في رسالته الأولى لأهل كورنثوس: أن نعرفه كما يعرفنا هو.[٣] أن نَعرِفَهُ بنفس الطريقة الوجودية العميقة التي يعرفنا هو بها، فهو لا يعرف عَنّا، وإنما يعرفنا حتى ونحن لم نَزَل فكرة لم تتحول بعد إلى جسد، وشفرة لم تتحول بعد إلى حياة.[٤]

الإيمان هو الثقة

كيف يقول بولس الرسول أن غرضه هو أن يعرف المسيح؟ هل لم يعرفه بعد؟ بالتأكيد قد تَعَرَّف بولس على يسوع المسيح شخصياً، وإنماعندما يُصرِّح بولس أن هدفه في الحياة هو أن يعرف يسوع المسيح، فهذا يعني أن معرفة المسيح لها أعماق لا يُسبَرُ غَورُها، ولها آفاقٌ لا تراها العين المجردة. لقد أدرك بولس أن معرفة المسيح المُتزايدة في العُمق لا تأتي إلا بالثقة المتزايدة به في كل شئون الحياة والوجود. أي الثقة به في أمور، ثم الثقة به في أمور أعمق وأخطر، وهكذا حتى تصبح الحياة كلها ماضٍ وحاضرٍ ومستقبل زمني وأبدي هي المسيح.

يكمُن الفارقُ بين الاقتناع العقلي والثقة الوجودية في شيء واحدٍ فقط وهو **المخاطرة**. الخطوة التي تفصل بين الاقتناع العقلي بطبيب والثقة الوجودية فيه هي مُخاطرة تناول الدواء الذي يصفه، أو الاستلقاء أمامه على طاولة الجراحة. يكمن الفارق بين الاقتناع العقلي بسائق والثقة الوجودية به في مخاطرة استقلال السيارة أو الطائرة التي يقودها. الإيمان بلا ثقة و بلا مُخاطرة ليس هو الإيمان بالمسيح الذي يتكلم عنه العهد الجديد.

٣ كورنثوس الأولى ١٣: ١٢

٤ مزمور ١٣٩: ١٣- ١٦

يكتب برنان مانج Brennan Manning عن الثقة: « إنني أستطيع أن أُقرِّر بلا أدنى تَرَدُّد أن ثقة الأطفال هي الروح المُمَيِّزة للتلمذة الحقيقية.»[٥]

ليست الثقة بالمسيح مبنية على مشاعر وآمال وأحلام. إنها مبنية على الحقيقة التاريخية لقيامة المسيح التي وَلَدَت الإيمان المسيحي منذ أكثر من ألفيّ عام، وهي نفس الثقة التي تجعل المؤمنين به يُصدِّقونه عندما قال أنه سيأتي ثانية ليُجدد الأرض والسماء. صحيحٌ أننا لم نكن مُعاصِرين لحدث القيامة مثلما كان المؤمنون الأولون، لكننا نستطيع بالبرهان المنطقي أن نقتنع أن حدوث القيامة أكثر منطقية من عدم حدوثها. ولعل أهم البراهين المنطقية، أن التلاميذ قد فقدا إيمانهم بيسوع بعد موته، ثم عاد لهم هذا الإيمان، بل وصار أقوى مما كان عندما كان يعيش بينهم. المنطق يقول أن حدثاً شديد الأهمية لابد وأن يكون قد وقع ليُكسِبَهُم هذه الجُرأة والشجاعة بعد أن كانوا خائفين ومختبئين في «غرفة فوق السطوح» بعد القبض على يسوع وقتله. تلك الجرأة التي جعلتهم يطوفون العالم القديم كله ليعلنوا له هذه الأخبار السارة، ويموتوا شهداء وهم يُعلنوها.[٦]

يُخبرنا الكتاب المقدس دائماً أن الإيمان بالله مُعتَمِدٌ على حدثٍ تاريخيّ فيه يتدخل الله فعلياً وموضوعياً في حياة البشر. لم يولد الإيمان بيهوه أنه ليس فقط إلهاً محلياً لشعب إسرائيل وإنما هو الخالق رب السماء والأرض، إلَّا من خلال حدثٍ تاريخيٍّ معجزيّ وذلك عندما أخرج الرب شعب إسرائيل الضعيف المُستَعبَد من بين براثن أمّة من أقوى الأمم في العالم القديم، وهي مصر. هذا الحَدَث هو الذي صنع الدين اليهودي وزرَعَ شَعبَ إسرائيل

5 Brennan Manning, *Ruthless Trust. The Ragamuffin's Path to God* (San Francisco: Harper Collins e-books,2000), 120.

٦ أوسم وصفي، وماهر صموئيل، *معرفة الله والنفس* (عمان: أوفير ٢٠١٣) ص. ١٨٢.

بين أمم وقبائل العالم القديم. تُضاف إلى ذلك الحروب التي قام بها ذلك الشعب لامتلاك تلك المنطقة المحدودة من أرض كنعان.

في القرن الأول الميلادي كان اليهود يعيشون في البلاد التي تُسيطر عليها الإمبراطورية الرومانية في مجتمعات صغيرة منعزلة يعبدون يهوه، تماماً مثلما كانت توجد مجتمعات مختلفة تعبد آلهة محلية مختلفة في تلك الإمبراطورية. صحيحٌ أنهم كانوا يؤمنون أن يهوه ليس مُجرَّد إلهٍ خاصٍ بهم، وإنه هو هو رب السماء والأرض، وأن كل آلهة الشعوب أصنام لا تنفع ولا تضر. لكنهم لم يحاولوا أن يدعوا أحداً إلى هذا الدين، وذلك لأنه لم يكن هناك تدخلٌ إلهيٌ معجزي يسمحُ لهم بذلك، بل كانوا (ومازالوا) ينتظرون مجيء المسيا الانتصاريّ العظيم في اليوم الذي يدين فيه الأحياء والأموات. ثم فجأة تظهر مجموعة من هؤلاء اليهود، وأهمهم بولس الرسول، يجترأون أن يدخلوا المجتمع اليوناني الروماني ليعلنوا عن حدث تاريخي جَلَل تدخل الله به بصورة معجزية في حياة البشر. ثم بدون مال ولا قوة عسكرية، ينتشر هذا الإيمان في كل ربوع العالم القديم، بل وتخضع له الإمبراطورية الرومانية نفسها في القرن الرابع الميلادي ويُصبِح حتى يومنا هذا، الدين الأول والأكثر انتشاراً في العالم. من أين أتت هذه القوة؟ لم يوجد أي دين تجاوز انتشارُهُ الحدود الجغرافية لنشأته بهذه الدرجة من الانتشار بدون حروب، إلا الإيمان بالمسيح المُقام.

هذا هو البُرهان المنطقي، أما البُرهان الوجودي لهذه الثقة فهو أنها تُعيد تشكيل حياتنا هُنا والآن. لم تَكُن الثقة بقيامة المسيح فقط منطقية ومعقولة، بل لقد غيَّرت هذه الثقة شكلَ حياة تلاميذه الأوائل، وهي تفعل نفس الشيء في حياة كل تلميذٍ مُعاصِر يضعُ ثقتَهُ في المسيح مُنذ ذلك الوقت. الإيمان المسيحي مَنطقيّ. وبالرغم من أن العقل البشري

يستطيع استقبال المنطق والحُكم على الأمور باستخدام المنطق، إلّا أن هُناك أبعادٌ من المنطق[٧] لا يستطيع العَقل البشري الوصول إليها. هذه الأبعاد يستطيع الإنسان أن يصل إليها بالقلب (الروح) أي بالقرار الإرادي بالثقة في الله. هذا القرار الإرادي تَثبُت منطقيته من خلال تأثيره على الحياة، ولذلك بظهور طبيعة الله في الإنسان الذي يثق ويسلك بهذه الثقة. هذه الطبيعة هي المحبة غير المشروطة التي تؤدي للأخلاق السامية.

الحياة هي بُرهان السِرّ، مثلما الثمرة هي بُرهان ما يحدث تحت الأرض من عمليات حيوية تجعل النبات ينمو ونحن لا نعرف كيف.

فإن كان إيمانٌ ما يجعل كُل من يؤمن به ويعيشه بأمانه، أفضل من غيره، فهذا بُرهانٌ منطقيّ على صدق وسمو هذا الإيمان. هذا ما يُسمى «بالسِرّ» Mystery في الحياة المسيحية. والمسيحية في ذلك تَخَالُفية Paradoxical أي أنها عقلانية وسِرّية في نفس الوقت. الإفراط في أي من طرفيها يُفقدها قُوَّتها. الإفراط في عقلانيتها يُقَرِّبها من الفلسفة، وهي أعظم من الفلسفة. والإفراط في سِرّيتها يُقَرِّبها من الخُرافة، وهي بالطبع ليست خرافة. ولكَونِ السِرّ جزءًا لا يَتَجَزَّأ من المسيحية، فإن جزءًا لا يتجزأ من الدفاع عنها أيضاً يكون بإظهار تأثيرها، تماماً مثلما لا يُمكن رؤية الريح إلا من خلال آثارها. وهذا يكون بإعادة تشكيل الحياة لتصبح المحبة للجميع محورها، والحُرية من الخطية سِمَتها الأساسية. هذا التشكيل ينتج من قرار الثقة (وإن لم نفهم كل شيء)، والنمو في هذا القرار يومياً.

٧ المنطق Logic هو العقل العام Logos هو عقل الله الذي به خَلَق العالمين. والإنسان كائن عقلاني منطقي. أي أنه يستطيع أن يستقبل المنطق ويُفكر بصورة منطقية. لكن عقل الإنسان محدود ومادّي (المخ) فهو لا يستطيع أن يحتوي المنطق.

ليكن فيكم هذا الفِكر

الحياة المسيحية لها «بؤرة» وهي التغيُّر إلى صورة المسيح، وتُعاش في «سياق» تاريخي بين قيامة المسيح والقيامة النهائية، وهي أيضاً حياة يقودها «فِكرٌ» أو «تَوَجُّه» خاص. هذا الفكر هو أن تتحول الحياة من «مركزية الذات» إلى «مركزية المسيح». توجَد خلف الأفكار والمبادئ والآيديولوجيات التي يمتلئ بها العالم فكرة واحدة ومبدأ واحد وهو أن يكون الإنسان مركزاً لحياة نفسه وبؤرة لوجوده. لذلك عندما تحدّى بولس الرسول مؤمني رومية وكل المؤمنين بالمسيح أن يتوقفوا عن مُشاكلة (التَشَبُّه) بهذا الدهر بتجديد أذهانهم، أَردَفَ مُوَضِّحاً ما هي بالتحديد الفكرة المحورية التي تسود على هذا الدهر والتي ينبغي تغييرها لأنها هي السبب الحقيقي للشكل الذي عليه العالم الذي تسوده الكراهية والأنانية والتنافس والشهوة واللهاث خلف المال والأشياء والكرامة الفانية. هذه الفكرة هي أن الإنسان يظن أنه مركز الوجود وأن هدف حياته الأسمى هو أن يُمَجِّد نفسه ويجتذب نحو نفسه كل شيء. إنها فكرة أن يحاول الإنسان أن يكون كُل شيء. إنها فكرة مجنونة مثل فكرة أن تحاول الأذن أن ترى أو الأنف أن تسمع.[٨] ما يريد بولس الرسول هنا أن يقوله هو أن هذا الدَهر قد اشترى فكرةً مجنونةً، لذلك فأنه يدعو المؤمنين إلى «التَعَقُّل». هذه الفكرة المجنونة في عُمقها هي أن الإنسان يريد أن يصير هو القادر على كل شيء ولا يرضى بما لا يستطيع تغييره. هذه الفكرة هي بمثابة «فيروس» أصاب البشرية منذ فجر وجودها. هذا الفيروس يتكون من كلمتين فقط لكنه استطاع أن يقلِبَ الوجود البشري كله رأساً على عقب. هاتان الكلمتان هما «تَكُونَانِ كَاللهِ».[٩]

بالطبع لا يُدرك الإنسان واعياً أنه يُفكر بهذه الطريقة، فهي أفكارٌ لا يقبلها المنطق.

٨ رسالة رومية ١٢: ٣- ٥

٩ تكوين ٣: ٥

ولا يستطيع الإنسان أن يستوعبها في عقله الواعي و إنما في أماكن بعيدة عن الوعي حيث تتكاثر هذه الأفكار غير المنطقية وتبدأ في قيادة المشاعر والسلوك، تماماً مثل الفيروس الذي يسيطر على كل عمليات الخلية دون أن يُدركَ الإنسان وجوده وبالتالي لا يستطيع مقاومته لأنه قد اتَّخَذَ غُلافاً من بروتينات الجسم نفسه حتى يخدع جهاز المناعة فيُعامله على أنه جزء من الجسم، وبالتالي فإن الإنسان إذا حاول أن يُميت هذا الفكر، فإنه يشعر وكأنّه يميت نفسه. لهذا السبب يوصي الرسول المؤمنين الذين يُطالبهم بتجديد أذهانهم، أن يكونوا مُستعدين أن «يُقَدِّموا أجسادهم ذبيحةً حَيّةً».

في الرسم التالي مقارنة بسيطة بين مبدأ العالم ومبدأ الملكوت. مبدأ العالم هو: أنا في المنتصف. وكل شيء ينبغي أن يدور حولي ويأتي إليّ. هذا الفكر (أو نظام التشغيل) هو ما يسميه العهد الجديد «الجَسَد» أو «الطبيعة العتيقة». أما مبدأ الملكوت ونظام تشغيله، فهو أن الله هو الذي في المنتصف، والإنسان فينبغي أن يكون دائماً خارجاً من نفسه (دون كراهيتها أو تجاهلها أو احتقارها)[١٠] نحو الله والعالم والناس. هذه هي «الخليقة الجديدة»، وهذا هو التَشَبّه بالمسيح فهكذا كان المسيح.

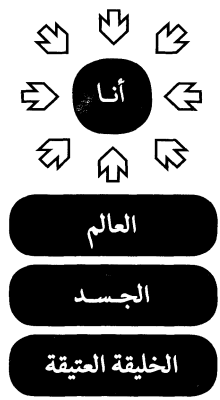

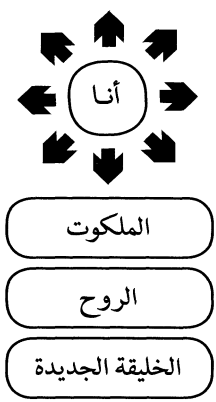

١٠ تيموثي كلر، *حرية نسيان الذات*، (عمان: أوفير، ٢٠١٤) ص ٣٥.

يُعبر الرسول بولس عن ذلك في الفقرة الأولى من الأصحاح الثاني (الأعداد ١-١١): «فإن كان لكم تشجيع المسيح، وتعزية محبته، وشركة روحه، فتمموا فرحي بأن تكونوا أيضاً مُتَّحِدين في فكرٍ واحدٍ ومحبةٍ واحدةٍ، بنفسٍ واحدةٍ وقصدٍ واحدٍ. ولا تفعلوا شيئاً بدافع الغيرة والغرور، بل تواضعوا. وليعتبر كل واحد أخاه أفضل من نفسه. فلا ينبغي أن يهتم كل واحد بمصالحه الخاصة فقط، بل ينبغي أن يراعي مصالح الآخرين أيضاً.»[١١]

ما معنى أن تُشَجِّعوا (تعظوا) بعضكم بعضاً بتشجيع المسيح؟ ما معنى أن تُعَزّوا بعضكم بعضاً بمحبة المسيح؟ ما معنى أن تكون لكم شركة روح المسيح (شركة الروح القدس)؟ إنها ليست مجرد صلاة بركة تُقال، ولا شِعارات تُرفع، ولا ترانيم نَصدَحُ بها وتَتَعالى من مُشَغِّلات الموسيقى التي نحملها في كل مكان. التعزية بالمحبة والشركة في الروح لا تَعنِيَان إلا شيءٍ واحدٍ، وهو أن يكون كل واحد مستعداً أن يخرجَ من طريقهِ ليَشعُرَ بالآخر، ويفهَم كيف يفكر، ويهتم بمصالح هذا الآخر مثلما يهتم بمصالحه الشخصية.

ثم من العدد الخامس يُقدم بولس الرسول تلك الترنيمة التي تُلَخِّص الحياة المسيحية وهي: فَلْيَكُنْ فِيكُمْ هذَا الْفِكْر الَّذِي فِي الْمَسِيحِ يَسُوعَ أَيْضًا: الَّذِي إِذْ كَانَ فِي صُورَةِ اللهِ، لَمْ يَحْسِبْ خُلْسَةً أَنْ يَكُونَ مُعَادِلاً للهِ. لكِنَّهُ أَخْلَى نَفْسَهُ، آخِذًا صُورَةَ عَبْدٍ، صَائِرًا فِي شِبْهِ النَّاسِ. وَإِذْ وُجِدَ فِي الْهَيْئَةِ كَإِنْسَانٍ، وَضَعَ نَفْسَهُ وَأَطَاعَ حَتَّى الْمَوْتَ مَوْتَ الصَّلِيبِ. لِذلِكَ رَفَّعَهُ اللهُ أَيْضًا، وَأَعْطَاهُ اسْمًا فَوْقَ كُلِّ اسْمٍ لِكَيْ تَجْثُوَ بِاسْمِ يَسُوعَ كُلُّ رُكْبَةٍ مِمَّنْ فِي السَّمَاءِ وَمَنْ عَلَى الأَرْضِ وَمَنْ تَحْتَ الأَرْضِ، وَيَعْتَرِفَ كُلُّ لِسَانٍ أَنَّ يَسُوعَ الْمَسِيحَ هُوَ رَبٌّ لِمَجْدِ اللهِ الآبِ.

لَقَد تَمَجَّدَ يسوع بقدر ما قد أَخلَى نَفسَهُ وبقدر ما احتمل في جسده من ضيقات حتى إلى

١١ الترجمة العربية المُبَسَّطة.

موت اللعنة والعار ـ موت الصليب. نحن أيضاً عندما «نُظهَرُ معه في المجد»[١٢] سيكون لك واحد فينا «ثقل المجد الأبدي»[١٣] أي «الجَعَالة»[١٤] أي «الكنز الذي في السماء»[١٥] بقدر ما قد تَحَمَّلَ هو أيضاً «خفة الضيقات الوقتية»[١٦] وحَمِلَ مع المسيح «حِملَه الهين ونيره الخفيف».[١٧] فكَمّا قد قام يسوع بتفعيل هذه القوة إلى أقصى حدّ بممارسة الطاعة الكاملة للآب حيث «أخلى نفسه تماماً، فرَفَّعَهُ الله واعطاه اسماً فوق كُل اسم»،[١٨] فإن نفس الشيء يحدث في حياة كل واحد فينا بقدر ما يكون له «هذا الفكر»[١٩] و«يعيش شركة آلامه متشبهاً بموته»[٢٠] وبقدر ما «يلبس الرب يسوع المسيح ولا يصنع تدبيراً للجسد لأجل الشهوات»[٢١] وبقدر ما «يهتم بما فوق، لا بما على الأرض»[٢٢] وبقدر ما «يطرح عنه الغضب، السَخَط، الكلام القبيح من فمه، ويلبس كمختاريّ الله القديسين أحشاء رأفات ولطفاً وتواضعاً ووداعة»[٢٣] أي أن «يخلع من جهة التصرف السابق الإنسان العتيق الفاسد بحسب شهوات الغرور، ويتجدد بروح ذهنه ويلبس الإنسان الجديد المخلوق بحسب الله في البر وقداسة الحق».[٢٤] هذا هو المِحور والبؤرة التي يدور حولها تعليم العهد الجديد كُلّه كما نُلاحظ من الاقتباسات المُتَعَدِّدَة.

١٢ رسالة كولوسي ٣: ٤
١٣ كورنثوس الثانية ٤: ١٧
١٤ فيلبي ٣: ١٤
١٥ متى ٦: ١٩- ٢١
١٦ كورنثوس الثانية ٤: ١٧
١٧ متى ١١: ٢٩- ٣٠
١٨ فيلبي ٢: ٧- ٩
١٩ فيلبي ٢: ٥
٢٠ فيلبي ٣: ١٠
٢١ رومية ١٣: ١٤
٢٢ كولوسي ٣: ٢
٢٣ كولوسي ٣: ٨، ١٢
٢٤ أفسس ٤: ٢٢- ٢٤

السعادة والراحة الحَقِيقِيَّتان

> يا ويل الذي يدور في فلكِ نفسه! فهو يدور ويدور حتى يُصاب بالدُوار.

لأول وَهلة لا يبدو هذا الفكر ولا تبدو هذه الطريقة للحياة جَذَّابَة أو باعثة للسعادة، لكن من اختبر، ولو قليلاً، هذا النوع من الحياة يستطيع أن يشهد أن هذه هي السعادة الحقيقية. المصدر الأول للشقاء والهموم في هذه الحياة هو أن الإنسان يعيش حاملاً حِملَ نفسِهِ باستمرار. كيف يَحصُلُ على الأَشياء؟ وكيف بعد أن يحصُلُ عَلَيها أن يُحافظَ عليها؟ هذا بالإضافة للخوف المستمر من فقدانها. عِندما يفشل في شيء يلوم نفسه، وعندما ينجح فيه يخاف على نجاحه من منافسات الآخرين. عندما يحصل على الحُب يفرح، وعندما تفتر محبة الآخرين يشعر بالغدر والخيانة. عندما لا يتزوج يحزن، وعندما يتزوج يعيش في صراعٍ مستمر لأنه يريد أن يُسيطر على شريك حياته ويجعله يُسدِّد احتياجاته باستمرار. عندما لا يُنجِب يَحزَن، وعندما يُنجِب الأولاد والبنات ويكبروا ويتركونه يُحبط ويشعر بالتَركِ والإهمال. يا ويل الذي يدور في فلكِ نفسه، فهو يدور ويدور حتى يُصاب بالدُوار.

إننا نحن البَشر، ندور في أفلاك أنفسنا ولا نخرج خارجها إلا لنُقَيِّمها ونُقارنها بالآخرين وعندما نجد أنفسنا غير مُمَيَّزين، يزداد إحباطنا وهكذا ندور في هذه الدائرة حتى الدَوَار. أما الخروج خارج النفس فهو مصدر السعادة الحقيقية والباقية والتي تتزايد، بعكس سعادة الانحصار في النفس التي لا تلبَث دائماً أن تتناقص.

تَكمُن الصعوبة في أن سعادة الخروج خارج النفس لا نحصُل عليها مُباشرة، وإنما بالتدريب. الأمر يُشبه الرياضة كثيراً. إذا تساءلنا مثلاً كيف تكون الراحة الجسدية؟ هل هي بالكسل والاسترخاء أم بممارسة الرياضة؟ الإجابة المتسرِّعة السطحية هي بالطبع

الكسل والاسترخاء والأكل والشُرب. نعم هذا هو الحال على المدى القريب المباشر، فمن الواضح أن الكسل يؤدي للراحة، والجري ومارسة الرياضة تؤدي للتعب والإرهاق. لكن عندما يَتَبَنَّى الإنسان الرياضة كأسلوب للحياة، فإنه على المدى الطويل يشعر بمزيد من الراحة. عندما يصعد السلالم يشعر بالراحة، بينما يشعر بالإرهاق من عاش حياته في الكسل والاسترخاء والإفراط في الأكل. عندما يحمل حقيبة سَفَرِهِ الضَخمة يشعر في ذراعه بألم أقل، لأن ممارسة الرياضة أعطته عضلات ذراعين أقوى ممن لا يمارس الرياضة. وعِندما يضطر لأن يجري لكي يلحق بالقطار الذي يهم بالانطلاق، سوف يشعر بقدرة أكبر وبراحة أكثر ممن يضطر لأن يجري وهو لم يمارس الرياضة من قبل.

أيضاً الذي يعيش وهو يُدَرِّب نَفسَهُ ويذكر نفسه كل يوم أنه ليس مركز الكون، وأن العطاء مغبوط أكثر من الأخذ، فإنه إذا فَقَدَ شيئاً (وهذا يحدث) لا يشعر بالحزن الشديد مثلما يشعُرُ من يعيش مُعتَبِراً نَفسَهُ مركزَ الحياة ومحورها، ويؤمن إن المَكسَب الدائم هو أهم شيء في الحياة. ربما إذا فَقَدَ شيئاً يقولُ في نفسِهِ: لَعَلَّ أحداً قد وَجَدَهُ ويستمتع به الآن. إذاً لا بأس. وإذا أَخَطَأَ أحَدَهُم في حَقِّهِ أو أَهَانَهُ (وهذا يحدث) لا يغضبَ مثلما يغضب من يعتبر نفسه أَهَمَّ إنسانٍ في الوجود. رُبما يقول في نفسه مثلاً: هذا الإنسان يراني هكذا. هذه مشكلته. أَحمَدُ الله أنني لست هكذا فعلاً وهذا هو الأهم. وإذا ظهر خطرٌ من بعيد، فإنه لا يخاف مثلما يخاف من يعيش معتبراً سلامته الشخصية أهم شيء في الوجود. ربما يقول في نفسه: لا خَطَر يُمكن أن يفصلني عن محبة الله، وهذه هي الطمأنينة الحقيقية.

من لا يعيش وكأنه محور الكون يشعر بالسعادة عندما يأخذ وعندما يعطي. عِندَما تَبتَسِمَ الحياة يفرَح، وعندما تَعبُس فلا يحزن كثيراً لأنها لم تعد كل شيء بالنسبة له. هذه هي السعادة الحقيقية، وهذا ما يقصده بولس الرسول في رسالته لرومية عندما يقول أن كل

الأشياء تعمل معاً للخير للذين يحبون الله.[٢٥] الذين يُحِبّون الله يستطيعون أن يروا الخير في كل شيء ولو كان فيه شرّ، و يستطيعون أن يروا الخير الذي لا يُمكن لأي شرٍ أن يمحوه. وعبارة «يُحِبّون الله» هذه لا تعني المُتديِّنين، و إنما الذين يعيشون الحقائق الروحيّة في الحياة ولا يتعلّقون أكثر من اللازم بالأمور الماديّة الزائلة.

من لا يعيش وكأنه محور الكون يشعر بالسعادة عندما يأخذ وعندما يعطي. عندما تبتسم الحياة يفرح، وعندما تعبس فلا يحزن كثيراً لأنها لم تعد كل شيء بالنسبة له.

هذا الفكر تبناه أيضاً فلاسفة قدماء عديدون مثل سُقراط وأفلاطون وبيثيوس. ينادي سقراط بهذا الشعار الأزلي «يا أيها الإنسان اعرف نفسك» وأساسيّ في تعريف سقراط لنفس الإنسان أنها أعمق من الجسد والأحاسيس الجسدية المُباشرة والمشاعر السطحية. نفسُ الإنسان هي قلبه وروحه واختياراته الإرادية الأخلاقية العميقة التي تستطيع أن تحوِّلَ كل شرٍ إلى خير. الخير والشر، السعادة والشقاء ليسوا في الأحداث والأشياء والأشخاص، و إنما في رؤية الإنسان لها. يردد ذلك أيضاً أفلاطون في كتابه الكلاسيكي **الجمهورية**[٢٦] عندما يقول «لا شَر يُمكن أن يحدث لإنسان صالح». يرى أفلاطون أن المنطق العام (اللوجوس) يمنَعُ أن يَحدُثَ شرٌ للإنسان الصالح. لكن بالتأكيد سوف يقول قائل: الشر يحدث أحياناً لأناس صالحين. والرد هو أنَّ الشرَّ لا يصيب من الصالحين إلا القشرة الخارجية: الجسد، وربما المشاعر. لكن روح الإنسان الصالح (أي قلبه و إرادته وخياراته الوجودية) محفوظة تماماً.[٢٧] و يتبع أرسطو نفس السلسلة إذا يقول:

٢٥ رومية ٨: ٢٨

26 *The Republic*

٢٧ أيوب ٢: ٦ المعنى المباشر في العهد القديم لحفظ النفس هو «حفظ الحياة» وهذا ما حدث حيث لم يمت أيوب. لكننا في ضوء العهد الجديد (بعد قيامة المسيح) نفهم حفظ النفس أنه حفظ الروح الأبدية من الهلاك.

«ليست السعادة مشاعر». بالنسبة لأرسطو كانت السعادة هي الغاية النهائية للحياة. ولكن السعادة بالنسبة له ليست كما نظن نحن الذين نعيش في العصر الحديث. السعادة بالنسبة للقدماء لم تكن «أن تحدث لك أحداثاً جَيِّدَة» و إنما كانت أن تكون أنتَ نفسَكَ «إنسانٌ جيِّد». هذا المفهوم قد صارَ غريبا، بل ومَرفوضاً بالنسبة لعصرنا الذي سادَهُ الفكر الاستهلاكي الذي يقول أن الاستمتاع الفوريّ المُباشر هو السعادة. السعادة بالنسبة لأرسطو والقدماء لم تكن أمراً شعورياً ذاتياً و إنما كانت أمراً موضوعياً. السعادة لم تكن بالنسب لهم في المتعة واللذة، و إنما في الصلاح الداخلي والاتساق بين الإنسان ونفسه؛ بين أفكاره ومشاعره، وبين إرادته وسلوكه، وبين ضميره وأسلوب حياته. والعذاب هو أن يعيش الإنسان صراعاً داخلياً بين هذه الأمور. أما بيثيوس فيقول في كتابه تعزية الفلسفة[٢٨] أن «كل ما يحدث هو للخير». هذه الفكرة الشديدة الجرأة التي يقولها بيثيوس تشير إلى نفس ما يقوله سقراط وأفلاطون أنه لا يُمكن أن يحدث شيء غير صالح لإنسان صالح لأن صلاح الإنسان هو في حد ذاته الخير الأقصى الحادث بالفعل له، والذي يُمكن أن يحول كل شر إلى خير.[٢٩]

الإيمان هو الثبات

كما أنا الإيمان هو الثقة، فالإيمان أيضاً هو الثبات ـ الثبات على هذه الثقة. إن السير عكس اتِّجاه أَجسَادَنا وعكس الفكر الذي في العالم ليس أمراً سهلاً، فهو يحتاج إلى قوة إلهية. إننا لكي نسير في العالم عكس

كما أنا الإيمان هو الثقة، فالإيمان أيضاً هو الثبات ـ الثبات على هذه الثقة.

28 *The Consolation of Philosophy*

29 Peter Kreeft, *Making Sense out of Suffering*, locations 1040- 1056

اتجاه التَيَّار، نحتاج إلى قوة ليست من هذا العالم لكي نثبت أمام ذلك التَيّار القويّ. إننا مثل الذي يَصعد أعلى الجبل عكس اتجاه الريح، يحتاج للثبات أمام كل القوى التي تدفعه للاستسلام والسقوط. إنها قوى العالم والشيطان التي تحاول دائماً استغلال ضَعفَنا البشريّ واحتياجاتنا الحقيقية لكي تدفعنا من أعلى الجبل إلى السفح. تَكَلَّمَ يسوع كثيراً في إنجيل يوحنا بالتحديد عن الثبات فيه والثبات في مَحَبَّته. المرة الأولى كانت في الأصحاح السادس عندما قال: « مَنْ يَأْكُلْ جَسَدِي وَيَشْرَبْ دمي يَثْبُتْ فيّ وأنا فِيهِ.» هُنا كان يشير إلى الثبات فيه من خلال الإيمان بعمله الخلاصيّ وقُدرتهُ أن يُدخِل المؤمنين به إلى الحياة الجديدة (حياة القيامة). لماذا أكل آباؤهم من الخُبز وماتوا في البرية؟ لأنهم لم يؤمنوا أن الرب قادرٌ أن يُدخِلَهم إلى أرض الموعد. أما من يؤمن بالمسيح أنه قادر أن يُدخله الأرض الجديدة الروحية (أورشليم السماوية)، فإنه وإن مات في هذا الدَهر، فسيحيا في الدهر الآتي، كما قال ليسوع لمرثا قبل أن يقيم لعازر أخاها.

في الأصحاح السادس من إنجيل يوحنا يشير يسوع بكل وضوح إلى الإيمان: «أَنَا هُوَ خُبْزُ الْحَيَاةِ. مَنْ يُقْبِلْ إِلَيَّ فَلاَ يَجُوعُ، **وَمَنْ يُؤْمِنْ** بِي فَلاَ يَعْطَشُ أَبَدًا. وَلكِنِّي قُلْتُ لَكُمْ: إِنَّكُمْ قَدْ رَأَيْتُمُونِي، وَلَسْتُمْ **تُؤْمِنُونَ**. لأَنَّ هذِهِ هِيَ مَشِيئَةُ الَّذِي أَرْسَلَنِي: أَنَّ كُلَّ مَنْ يَرَى الابْنَ **وَيُؤْمِنُ** بِهِ تَكُونُ لَهُ حَيَاةٌ أَبَدِيَّةٌ، وَأَنَا أُقِيمُهُ فِي الْيَوْمِ الأَخِيرِ.» ثم في الأصحاح الثامن يقول لليهود المؤمنين به: «إِنَّكُمْ إِنْ ثَبَتُّمْ فِي كَلاَمِي فَبِالْحَقِيقَةِ تَكُونُونَ تَلاَمِيذِي، وَتَعْرِفُونَ الْحَقَّ، وَالْحَقُّ يُحَرِّرُكُمْ.»[٣٠] وأخيراً في الأصحاح الخامس العشر يتكلم كثيراً عن الثبات في هذا الإيمان من خلال طاعة الوصية المحورية وهي وصية المحبة (أي الخروج من النفس لله وللآخرين) التي هي جوهر الإيمان:

٣٠ إنجيل يوحنا ٨: ٣١- ٣٢

«اُثْبُتُوا فِي مَحَبَّتِي. إِنْ حَفِظْتُمْ وَصَايَايَ تَثْبُتُونَ فِي مَحَبَّتِي، كَمَا أَنِّي أَنَا قَدْ حَفِظْتُ وَصَايَا أَبِي وأَثْبُتُ فِي مَحَبَّتِهِ. كَلَّمْتُكُمْ بِهذَا لِكَيْ يَثْبُتَ فَرَحِي فِيكُمْ وَ يُكْمَلَ فَرَحُكُمْ. «هذِهِ هِيَ وَصِيَّتِي أَنْ تُحِبُّوا بَعْضُكُمْ بَعْضًا كَمَا أَحْبَبْتُكُمْ.»

يُمكن أن نختصر هذه الفقرة ونختصر مفهوم الثبات في الإيمان في هذا الحوار البسيط بين المسيح والمؤمن:

- المسيح: اثبت فيّ
- المؤمن: كيف أثبت فيك؟
- المسيح: اثبُت في محبتي؟
- المؤمن: وكيف أثبت في محبتك؟
- المسيح: أطِع وَصِيَّتي
- المؤمن: وما هي وَصيَّتَك؟
- المسيح: أحبب الآخرين.

«الإيمان هو أن تُصدِّق ما لا تراه. أما مكافأة الإيمان فهي أنك سوف ترى ما قد صدَّقته دون أن تراه»

أغسطينس

«أنا لا أقول إنّي حققت كل شيء،

أو أني وصلت إلى الكمال.

لكنِّي أسعى للوصول إلى الهدف الذي اختارني المسيح يسوع من أجله.

وأنا لا أعتبر أيها الإخوة أنّي قد وصلت بعد، لكنِّي أُصِرّ على شيءٍ واحد:

أن أضَعَ الماضي ورائي، وأتقدَّم إلى الأمام. أسعى إلى خط النهاية لكي أربح الجائزة

التي دعاني الله إليها دعوةً سامية في المسيح يسوع.»

الأصحاح الثالث من رسالة بولس الرسول إلى أهل فيلبي

أعداد ١٢ - ١٤

(الترجمة العربية المُبَسَّطة)

الجزء الثاني

المسيرة

تتميز مسيرة من يرى الهدف واضحاً بأنها مسيرةٌ لا يتخللها كثيراً النظرُ للوراء. مَهمَا كان فيما وراءِهِ من إنجازاتٍ و إحباطاتٍ فإن لَمَعانِ الهدف أمامه يَدفَعَهُ دائماً لأَن يسيرَ خلف الهدف ناسياً ما كان وراء وممتداً إلى الأمام. وكلما يسير، كلما يرى الهدف أوضح، فيخلُبُ الهدَفُ لُبَّهُ أكثَرَ فأكثَر، و يستولي على جوارحه كلها حتى أنه لا يفعل شيئاً إلا أن يستمر و يتقدم للأمام. أما الهدف (الغرض) الذي يسعى بولس نحوه فقد حَدَّدَهُ بدقةٍ ولَخَّصه بشدةٍ في ثلاث كلمات فقط: لأعرفه، وأربحه، وأوجد فيه.

- أن يعرف المسيح و يثق به أكثر فأكثر في نواحٍ متعددة من حياته حتى يُسَلِّم له الحياة بجملتها،
- و يثبُتُ فيه أَعمَقَ فأعمق، كما تَضرِبُ الشجرةُ في عُمق التُربة إلى أعماقٍ سحيقةٍ حتى تصلَ للمياه الجوفية، فلا تبحث بعدئذ عَمَّن يسقيها، ولا تهتَمَّ كثيراً إن سَقَطَت الأمطار أو لم تَسقُط،
- وعندما يثبُتُ فيه، تصيرُ أغصانُ حياتِهِ شبيهةً بالكرمة التي تم تطعيمه فيها، و يَحملُ نَفسَ ثِمَارِها.

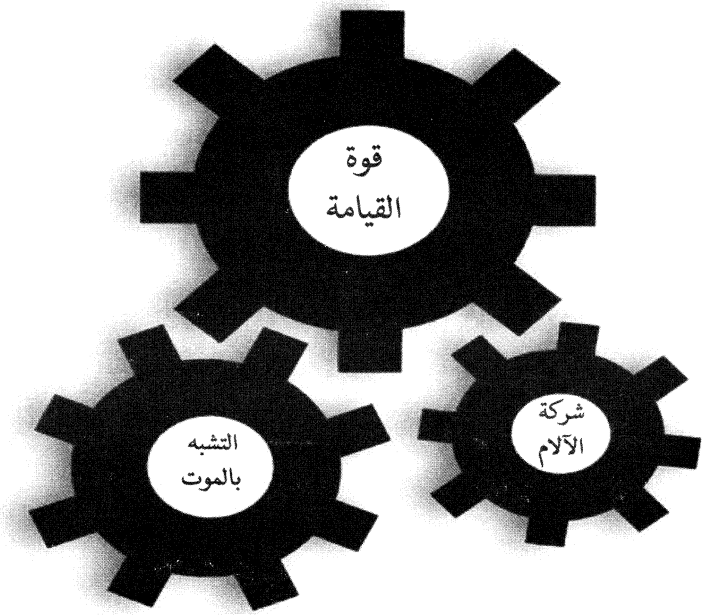

أما «مُحَرِّك» هذه المسيرة فيتكوَّنُ من ثلاثِ تروسٍ حَدَّدَها بولس الرسول هكذا:

- قوة قيامته،
- شركة آلامه،
- والتشبه بموته.

يعكس دالاس ويلارد هذه الأمور الثلاثة أيضاً عندما يكتب في كتابه الكلاسيكي *المؤامرة الإلهية* عَمَّا يُسَمِّيه: المثلث الذهبي للنمو الروحي والذي يؤدي لما أسماه الحياة الرائعة والطائعة في المسيح.[1] على قمة هذا المثلث نجد **عمل الروح القدس** الذي يتحرك داخل نفوسَنا، لكي يقدم لنا شخص المسيح وحَقيقةِ الملكوت. الروحُ هو يساعدنا أن نصل للقرار ان المسيح هو بالفعل السيد والرب،[2] وهو الذي يَلِدَنَا من فوق،[3] ويشهد لأرواحنا أننا أولادُ الله،[4] وبِقُوَّتِهِ نُميتُ أعمالَ الجسد،[5] وهو أيضاً الذي يُثمر فينا ثماره.[6] هذه هي قوة قيامَتِهِ التي يشير إليها بولس في رسالة فيلبي، فقوَّةُ القيامة هي قوة الروح القدس. فالروح القدس هو الذي أقام يسوع من بين الأموات (رومية ٨: ١١).

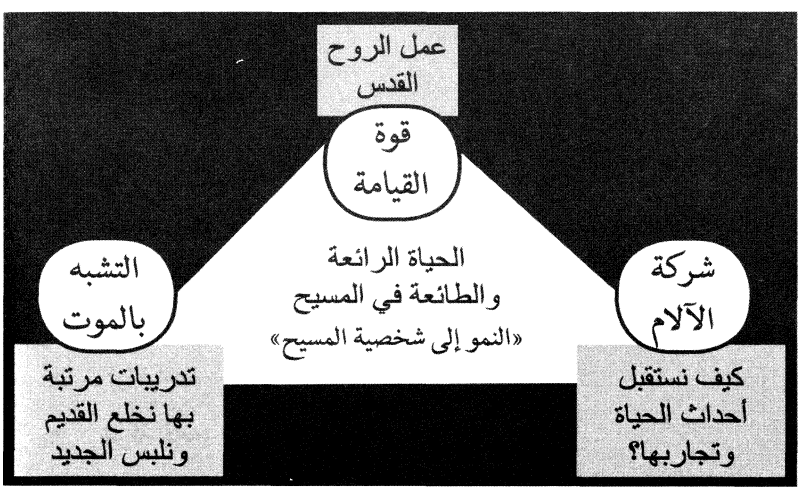

1 The Abundant and the Obedient Life in Christ.

٢ كورنثوس الأولى ٢: ١٢

٣ إنجيل يوحنا ٣: ٥

٤ رومية ٨: ١٦

٥ رومية ٨: ١٣

٦ غلاطية ٥: ٢٢-٢٦

وفي قاعدة المُثلث يضع ويلارد **أحداث الحياة وتجارَبَها** عندما نستقبلها بإيمانٍ وثقةٍ بالمسيح. هذه هي **شركة آلامه**. عندما جاءَ يسوعُ إلى هذا الكوكَب الساقِط الموبوء بالخطية كان من الطبيعي أن يَتَألَّم. وكل من يعيش على هذا الكوكب يتألم بأشكال ودرجات مختلفة من الألم.[٧] أما الفارق فتَصنَعُهُ الطريقة التي نستقبل بها هذه الآلام. عندما نتذمر ونتمرَّد، لا تكون هذه الآلام فرصةً لتنمية الصَبر والتَخَلُّص من التَعَلُّق المُبالغ فيه بالعالم، خاصّة وإن كان مثل هذا التعلُّق يؤدي بنا إلى خسارةٍ أفدَح، عندما يُشوِّه كياننا الرُوحيّ الداخليّ بالخطية،[٨] أما عندما نستقبلها بصبر باعتبارها أحد أشكال الشركة مع المسيح،[٩] فهذا يحوِّلها من ضغوط يُمكن أن تَكسِرَنا، إلى تدريبات تُنمِّي كَيانَنَا الداخِليّ الأَبقى.[١٠] إنها التجاربُ المُتَنَوِّعَة التي نَحسبُهُ كُلَّ فرحٍ عِندَما نقعُ فيها عالمين أن امتحان إيماننا يُنشئ صبراً. وهذا الصبر من المُمكِن أن يُتَمِّمُ عَمَلَهُ فينا، فيجعَلَنا تامّين وكامِلين غيرَ ناقِصين في شيء.[١١] إنَّهُ الضيقُ الذي يُنشئ صبراً والصبرُ تزكيةً والتزكيةُ رجاءًا لا يخزى، لأن محبة الله قد انسكبت في قلوبنا بالروح القُدُس المُعطى لنا.[١٢]

عندما أنظر إلى حياتي، لا أَجِدُ فيها ألماً كافياً، لذلك عندما كتبتُ كتاباً عن الألم منذ عدة سنوات[١٣] كان عليَّ أن أعتذر لمن في حياتهم ألمٌ أكثر مِمّا في حياتي، فأنا لست مؤهلًا للحديث عن الألم. وعندما اشتركت مؤخَراً في برنامج تلفزيوني بعنوان: «لماذا نتألَّم؟» شعرتُ أنه من الواجِب عليَّ في بداية البرنامج أن أعتَذر لأَنني أتكلم عن الألم وهُناك من

٧ رسالة بطرس الأولى ٤: ١٢
٨ رسالة بطرس الأولى ٤: ١- ٥
٩ رسالة كولوسي ١: ٢٤
١٠ رسالة كورنثوس الثانية ٤: ١٦- ١٧
١١ رسالة يعقوب ١: ٢- ٤
١٢ رومية ٥: ٣؛ رومية ٧: ٢٤
١٣ أوسم وصفي، *الألم* (عمان: أوفير، ٢٠١٠)

يعرفون الألم أكثر منّي كثيراً. ولولا أن الأمر كان سيصبحُ مُملّاً لكُنت قد كَرَّرت الاعتذار في بداية كل حلقة من حلقات البرنامج الستة والعشرين.

ماذا يفعل إذاً من لا يوجد في حياتهم قدرٌ كافٍ من ألم يفطُمهم عن هذا العالم؟ إنهم يحتاجون إلى التدريبات الروحية لتقوم بهذا الفِطام. لذلك ففي الزاوية الثانية لقاعدة المثلث يضع ويلارد **التدريبات الروحية المختلفة** التي بها نخلع العتيق ونلبس الجديد. إننا هكذا **نتشبه بمَوتِهِ**. هذه التدريبات تساعدنا أن نُميتَ بإرادتنا ما يُسمّيه بولس في رسالة رومية «اهتمام الجسد» الذي هو التركيز المُبالغ فيه على الجسد واحتياجاته وشهواته، وهذا هو الموت الذي فينا.[١٤] إننا عندما نُميتُ هذا الموت، نختبِرُ حياةً روحيةً أقوى وأعمق. إننا عندما نُمارسُ التدريبات الروحية وبالذات تدريبات عدم الفعل (مثل الاختلاء والصمت والتعفف والصوم والبساطة) فإننا نُضعِف من اتصالنا بالعالم المادّي الذي من خلاله تأتي التجارب، فتزداد قوّتنا على مقاومة الخطية.

على سبيل المثال، فإن مَن يتدربُ على الاختلاء، يصبحَ أكثرَ قدرةً على إماتة الخطايا المرتبطة بالناس مثل إرضاء الناس على حساب الحق،[١٥] والكبرياء والرغبة المُبالغ فيها في الحصول على رضا الناس أو الكرامة منهم.[١٦] ومَن يَتَدَرَّبُ على الصَمت، يَصبحُ أكثرَ قدرةً على إماتة خطايا اللسان مثل الغضب والسَخَط والكلام القبيح والنميمة،[١٧] ومن يَتَدَرَّبُ على الصوم، يصبح أقدر على مقاومة النَهَم،[١٨] ومن يَتَدَرَّبُ على التَعَفُّف (الصوم عن الجنس

١٤ رومية ٨: ٦
١٥ غلاطية ١: ١٠
١٦ فيلبي ٢: ٣
١٧ كولوسي ٣: ٨ ؛ أفسس ٤: ٢٥ – ٢٦ ؛ رومية ١: ٣٠
١٨ فيلبي ٣: ١٩

المشروع)[١٩]، يُصبح أقدر على التعامل مع الخطايا الجنسية،[٢٠] ومن يَتَدَرَّبُ على البساطة وعدم المُبالغة في الشراء والإنفاق والمأكل والمشرب ووسائل الترفيه، يصبح أقدر على التعامل مع خطايا الطَمَع وشهوة المال والأشياء،[٢١] وهكذا.

في هذا الجزء من الكتاب سوف أتناول هذه المسيرة بمكوناتها الثلاث من خلالِ دراسة ثلاث فقرات كتابية في ثلاث فصول متتالية: أولاً من رسالة رومية، ثم من رسالتَيّ كورنثوس، وأخيراً من رسالة كولوسي. والهدف من ذلك هو توضيح أن هذه المسيرة هي المحور الذي يدور حوله العهد الجديد كُلُّهُ، وقد قَدَمَها كُتَّابَهُ (وبالأَخَصّ بولس الرسول) بأكثر من صورةٍ وفي أكثرَ من فقرةٍ كتابية. كل هذه الفقرات تشترك في بنيانٍ فكريٍّ واحدٍ يدور حول الأسئلة الثلاثة التالية:

- إن كانَ الله قد قام بهذا العمل العظيم إذ أقام المسيح من بين الأموات، فكيف ينبغي علينا إذاً أن نعيش هنا والآن في ضوء هذه الحقيقة؟
- وكيف تؤثر حياتنا هُنا والآن على بنيان شخصياتنا الروحية؟
- وكيف يؤثر بنيان شخصياتنا الروحية على حياتنا العتيدة في العالم الجديد؟

١٩ رسالة كورنثوس الأولى ٧: ٥

٢٠ كولوسي ٣: ٥أ ؛ وغلاطية ٥: ١٩

٢١ كولوسي ٣: ٥ب ؛ ويوحنا الأولى ٢: ١٦ (شهوة العيون وتعظم المعيشة)

الفصل الثالث

إن كان روحُهُ ساكناً فينا

المسيرة في رسالة بولس الرسول إلى أهل رومية

«١١وَإِنْ كَانَ رُوحُ الَّذِي أَقَامَ يَسُوعَ مِنَ الأَمْوَاتِ سَاكِنًا فِيكُمْ، فَالَّذِي أَقَامَ الْمَسِيحَ مِنَ الأَمْوَاتِ سَيُحْيِي أَجْسَادَكُمُ الْمَائِتَةَ أَيْضًا بِرُوحِهِ السَّاكِنِ فِيكُمْ. ١٢فَإِذًا أَيُّهَا الإِخْوَةُ نَحْنُ مَدْيُونُونَ لَيْسَ لِلْجَسَدِ لِنَعِيشَ حَسَبَ الْجَسَدِ. ١٣لأَنَّهُ إِنْ عِشْتُمْ حَسَبَ الْجَسَدِ فَسَتَمُوتُونَ، وَلكِنْ إِنْ كُنْتُمْ بِالرُّوحِ تُمِيتُونَ أَعْمَالَ الْجَسَدِ فَسَتَحْيَوْنَ. ١٤لأَنَّ كُلَّ الَّذِينَ يَنْقَادُونَ بِرُوحِ اللهِ، فَأُولئِكَ هُمْ أَبْنَاءُ اللهِ. ١٥إِذْ لَمْ تَأْخُذُوا رُوحَ الْعُبُودِيَّةِ أَيْضًا لِلْخَوْفِ، بَلْ أَخَذْتُمْ رُوحَ التَّبَنِّي الَّذِي بِهِ نَصْرُخُ: «يَا أَبَا الآبُ». ١٦اَلرُّوحُ نَفْسُهُ أَيْضًا يَشْهَدُ لأَرْوَاحِنَا أَنَّنَا أَوْلاَدُ اللهِ. ١٧فَإِنْ كُنَّا أَوْلاَدًا فَإِنَّنَا وَرَثَةٌ أَيْضًا، وَرَثَةُ اللهِ وَوَارِثُونَ مَعَ الْمَسِيحِ. إِنْ كُنَّا نَتَأَلَّمُ مَعَهُ لِكَيْ نَتَمَجَّدَ أَيْضًا مَعَهُ.» (رسالة بولس الرسول إلى أهل رومية الأصحاح الثامن: ١١- ١٧)

في هذه الفقرة من الأصحاح الثامن من رسالة رومية (مع الرجوع أحياناً لباقي الأصحاح وللأصحاحين الخامس والسادس من نفس الرسالة) سوف نقتفي أثر الأضلاع الثلاثة لمثلث النموّ الروحي (التي هي أيضاً التروس الثلاثة لمسيرة بولس الرسول لكي يعرف المسيح و يوجد فيه): قوة قيامته، وشركة آلامه، والتَشَبُّه بموته. قبل أن نتأملَ هذِهِ الأمورَ الثلاثة ينبغي أن نؤكد أنها أمور لا يُمكن الاستغناء عن أيٍّ منها. هكذا التروس المتشابكة، فإذا تَوَقَّفَ أحدُها توقفت كُلُّها.

قوة قيامته (عمل الروح القدس)

لا تَكاد تخلو رسالةٌ من رسائلِ بولسَ الرسول من تقديم قيامة المسيح باعتبارها المبرِّرَ الأوحَدَ لأي شيء متعلق بالإيمان والبِرّ والحياة الروحية. هذا لأن قيامة المسيح بالنسبة لمؤمني العهد الجديد لم تكن «عقيدة دينية» كما للأسف قد أصبحت بالنسبةِ لنا الآن، وإنما كانت «حقيقة تاريخية» أدركوها بالدليل المادِّي.[٢٢] أما بالنسبة لنا الآن لكي نقف على نفس الأرض التي يقفون عليها، ينبغي أن نُدرِك ونتأكد من حقيقة قيامة المسيح بالبرهان المنطقي.[٢٣]

إننا لا نستطيع أن نتأكد من القيامة تجريبياً كما فعل توما، ولكن يُمكن أن نقتنع ونؤمن بها منطقياً. عندما قال المسيح لتوما: «لأنّك رأيْتني يَا تُومَا آمَنْتَ! طُوبَى لِلَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَرَوْا» لم يقصد أن يُوبّخ من يشُكّ ويريد أن يتأكّد قبل أن يؤمن. كَما أنَّهُ لم يُطَوِّب من يؤمن إيماناً يلغي العقل، كما قد فسر الكثيرون هذه الآية عبر العصور. أَظُنّ أنا ما قَصدَ يسوع أنه يقوله هو: «يا لسوء حظ من لا يؤمن إلا إذا اختبر اختباراً تجريبياً (باللمس والرؤية)! لأن كثيراً من الأشياء التي حدثت تاريخياً لا يُمكن تكرارها لكي يختبرها الإنسان بهذه الطريقة. وفي نفس الوقت، يا لحُسن حظ الذي سوف يحاول التَحَقُّقَ من حدوث الأشياء باستخدام المَنطِق! فالمنطق يمكن استخدامه في كل حين» بكلماتٍ أخرى: «يا لسوءِ حَظِّ من يُصِرّون على استخدام عيونِهم وأياديهم! ويا لحُسن حظ من يُقرِّرون استخدام عقولهم!»

في مُستهل رسالته لأهل رومية يشير بولس الرسول إلى يسوع المسيح ابن الله الذي صار

٢٢ رسالة كورنثوس الأولى ١٥: ٥-٦

٢٣ أوسم وصفي، *المحبة (٢)* (القاهرة، ٢٠١٤) ٦٠- ٦٥ ــــ البُرهان المنطقيّ لحدوث القيامة.

من نسل داود من جهة الجسد، وتعيِّن ابن الله بقوة، من جهة روح القداسة بالقيامة من الأموات.[٢٤] أي أن يسوع قد استُعلِنَ وثَبَتَ أنه ليس ابن داود فقط، وإنما ابن الله أيضاً، وذلك من خلال شيءٍ واحدٍ فقط هو القيامة من الأموات. هذه القيامة التي هي بشكل نقيّ تماماً، عملُ الروح القدس (روح القداسة). لعل هذا يبدو أوضح في الترجمة العربية المُبَسَّطة كما يلي: «وهي البشارة المختصة بابنه الذي يعود نسبه من حيث بشريته إلى داود. وبالروح القدس أُقيمَ من الموت، فبَرهَنَ بقوة أنه ابن الله».

ثم يعود في الأصحاح السادس من نفس الرسالة ليُشير إلى أن قوة الروح القدس ليس فقط أقامت جسد يسوع وسوف تقيم أجساد المؤمنين به في اليوم الأخير، لكنها أيضاً هي القوة الروحية التي يسلك المؤمنون بها هُنا والآن في حياتهم الإيمانية. يبدأ بولس الرسول هذه الحُجة من العدد الثالث من الأصحاح السادس فيقول:

«أم أنكم لا تعلمون أننا نحن الذين تعمَّدنا متحدين بالمسيح يسوع، قد تَعَمَّدنا لنشترك معه في موته؟ فقد دُفِنّا معه من خلال معموديتنا لنشترك معه في موته، حتى كما أقيم المسيح من بين الأموات بقوة الآب المجيدة، نسلك نحن أيضاً في حياة جديدة. فبما أننا اتَّحَدنا معه في موت يشبه موته، فَسَنَتَجَدَّد معه أيضاً في قيامة تُشبه قيامته.»[٢٥]

إذاً فإن المُبرَّرَ الوحيد والأملُ الفاعلُ في أن نعيش حياةً جديدةً لا يأتي إلّا من حقيقة القيامة، وبقوة روحية إلهية هي نفسها قوة القيامة.

> المُبرر الوحيد والأمل الفاعل في أن نعيش حياة جديدة لا يأتي إلاّ من حقيقة القيامة وبقوة روحية إلهية هي نفسها قوة القيامة.

٢٤ رسالة رومية ١: ٣- ٤

٢٥ رسالة رومية ٦: ٣- ٥ (الترجمة العربية المُبَسَّطَة).

إنه يقول للمؤمنين: لا تنخدعوا بالقوى التي تدفعكم نحو الخطية، مثل قوة الرغبة الجنسية أو قوة الاحتياجات المادّية، أو قوة الخوف أو الخزي، أو قوة المجتمع والثقافة، فكل هذه القوى لا تُقارن بالقوة المتاحة لكم لكي تحيوا حياة البر. إنها القوة التي أقامت يسوع من بين الأموات، ولم تُقِمهُ لكي يعودَ كما كان، ولكن أعطته جسداً مُمَجَّداً وصنعت خليقةً إنسانيةً جديدة تماماً، المسيح باكورَتُها وأنتم حَصَادُها الكامل. هذه الخليقة وإن كانت تنتظر اليوم الأخير لتُستَعلَن جسدياً، لكنها هُنا والآن قادرةٌ أن تجعلكم تعيشون حياةً رُوحيةً تتفوق على كل القوى الروحية التي في العالم والتي تجذبكم نحو الخطية، وتُميتون في أنفُسِكُم ما يجعَلَكُم مُتعلقين بالخطية. إن الخطية خاطئة جداً لأنها حياةٌ على مستوى أقل، بينما أنتم مدعوون لحياة على مستوى أعلى. إنها التعلق بحاضرٍ وضيع، بينما أنتم مدعوون لمستقبل رفيع.

«وإن كان روح الذي أقام المسيح من بين الأموات ساكناً فيكم، فإن الذي أقامه من بين الأموات سيعطي أيضاً حياةً لأجسامَكُم الفانية بروحِهِ الساكنِ فيكم. لذلك فإننا لسنا ملتزمون، أيها الإخوة، نحو طبيعتنا الجسدية لنعيش حَسَبَهَا. لأنكم إن عشتم حسب طبيعتكم الجسدية، فستموتون. لكن إذا أَمَتُّم أعمال تلك الطبيعة بالروح فستحيون.»[٢٦]

ثانياً، بعد أن يُشجع الرسول المؤمنين أن يعيشوا حياة تَليقُ بمستقبلَهُم الأبديّ، يشير إلى ذلك المستقبل الأبدي المجيد بكلمات مليئة بالقوة والفخر والحماس. هُناك مستقبلٌ أبديّ وطبيعة جديدة سوف لا نستطيع أن نحياها بشكلٍ كامل إلا في الأرض الجديدة والسماء الجديدة، حيث أنه لا يُمكن أن تُعاش هذه الطبيعة بالتمام في هذه الأرض الموبوءة بالمرض والفساد والخطية.

٢٦ رسالة رومية ٨: ١٠ ب – ١٣ (الترجمة العربية المُبَسَّطة).

« فإن العالم المخلوق ينتظر باشتياق ذلك الوقت الذي فيه سيعلِن الله أبناءه. فقد أُخضِعَ هذا العالم المخلوق لحالةٍ فَقَدَ فيها قيمتَهُ لا باختياره بل بمشيئة الله نفسه. لكن هناك رجاء، وهو أن يتحرر هذا العالم من عبودية الفساد، و يتمتع بالحرية المجيدة التي لأبناء الله.»[٢٧]

هذا العالم يعيش حالَةً فقد فيها قيمته، بمشيئة الله نفسه. لكن هُناكَ رجاءٌ. هذه العبارة تُشبه كثيراً ما نقوله عن الأجهزة الالكترونية عندما نقول: هذا الطراز قد فقد قيمته بمشيئة الشركة المُنتجة نفسها لأنها قد صَنَعت طرازاً أفضل. ولأن ذلك الطراز الأرقى قد صُنع بالفعل، فبشكل تلقائي تَنَاقَصَت بِشدة قيمة الطراز الأقدم. ومع الوقت سيُصبِحُ الطرازُ الذي معك (من التليفون المحمول مثلاً) غير قابلٍ للعمل، حيث لن يتم تصنيع قطع غيارَهُ وسوف تكون تكلُفة إصلاحِهِ قريبة من تكلُفَة شراء الطراز الجديد. لذلك فإن الشَرِكة المُصَنِّعة تقول لك أن تتَحَوَّل إلى الطراز الجديد، لأن الطراز القديم قد فقد قيمته. إن الخطية بهذا المفهوم، هي أن نستمر في استخدام ما قد مات فنموت معه (إن عشتم حسب الجسد فستموتون). أم البر فهو أن نحيا حياةً متطلعةً إلى الرجاء في الترقية، فالعالم سوف يتحرّر من هذا «الطراز القديم» الفاسد إلى حُرية الخليقة الجديدة.

تجارب الحياة (شركة آلامه)

إلى أن يُعتَقَ العالَمَ من عبودية الفساد، فنحن سوف نعيش في هذا العالم ونتألم بما فيه من ألمٍ، ونعاني مما في من معاناة. حتى يسوع المسيح ابن الله عندما جاء إلى هذا العالم لم يُستثنَ من هذه الآلام. لذلك عندما نستقبل هذه الآلام التي في العالم ونحن مُدركِين أنه اشترك معنا فيها ونحتملها معه، فهذا يُغير منظورنا لها تماماً. على وجه العموم يحتمل

٢٧ رسالة رومية ٨: ١٩- ٢١ (الترجمة العربية المُبَسَّطة).

الإنسان الألَمَ بصورةٍ أكبر عندما يكون للألم **نهاية وتعويض**، وعندما يوجد **شخص مُحِب ومحبوب يشاركه** نفس هذا الألم، وعندما يكون للألم **معنى وهدف إيجابي**.

يحتمل الإنسان الألم بصورة أكبر عندما يكون للألم نهاية وتعويض، وعندما يوجد شخص مُحِب ومحبوب يشاركه نفس هذا الألم، وعندما يكون للألم معنى وهدف إيجابي.

أولاً، **النهاية والتعويض**. يُشَبِّه بولس الرسول آلام الزمان الحاضر بالآلام التي تعانيها امرأة أثناء الولادة، وبعد أن يولد الجنين الجديد تنسى المرأة آلام المخاض لأن طفلاً جديداً جميلاً قد وُلِدَ في العالم.[٢٨] إننا، مع العالم نمر بآلام تجديدنا وتجديد العالم معاً، وعندما نختبر الخليقة الجديدة والعالم الجديد، سوف ننسى تماماً كل آلام ذلك المخاض. يكتب بولس الرسول: « فأنا أعتبر أن آلامنا في هذه الحياة لا شيء بالقياس مع مجد المستقبل الذي سيكشفه الله لنا... ونحن نعلم أنه حتى هذا اليوم، يَئِنُ العالمُ المخلوق كُلُّهُ معاً كامرأة في آلام الولادة. وليس العالم المخلوق وحده، بل نحن أيضاً نئن في أعماقنا، نحن الذين أخذنا الروح القدس كأوّلَ حصاد بركات الله. ونحن أيضاً ننتظر بشوقٍ أن يتبنانا الله بشكلٍ كامل، حين يُحَرِّر أجسامنا.»[٢٩]

ثانياً، **الشركة الحميمة**. عندما يأتي شخصٌ من دولة غنية ويترك بيته الفخم المُريح ويسكن مع مجموعة من الفقراء في بلدهم الفقيرة ويعاني معهم نفس معاناتهم، فإن هذا يُشعِرهم بقيمتهم وقيمة حياتهم. «فماذا نقول في ضوءِ هذا كُلُّهُ؟ إن كان الله إلى جانبنا، فمن يَصمُد ضدنا؟ وإن كان الله لم يمنع عَنّا ابنه الوحيد، بل أسلمه للموت من أجلنا جميعاً، أفلا يكون

٢٨ إنجيل يوحنا ١٦: ٢١

٢٩ رسالة رومية ٨: ١٨، ٢٢- ٢٣ (الترجمة العربية المُبَسَّطة).

مُستعداً لإعطائنا كل شيء معه؟ .... فمن يقدر أن يفصلنا عن محبة المسيح؟ أتقدر على ذلك الضيقات، أم المَشَقّات، أم الاضطهادات، أم الجوع، أم العُري، أم الأخطار، أم الموت أم السيف؟»[٣٠]

ثالثاً، أما بالنسبة **لهدف شركة الآلام** والدور الذي تلعبه في ترقية نوعية حياتنا الروحية، فهذا نجده في الأصحاح الخامس عندما يقول: « كما صار لنا امتياز الدخول بالإيمان إلى هذه النعمة التي نعيش فيها الآن. ونحن مبتهجون لأننا نتوقع المُشاركة في مجد الله. وليس هذا فقط بل إننا نبتهج حتى في ضيقاتنا. لأننا نعرف أن الضيق يُنتِجُ صبراً، والصبر برهان القوة وهذا البُرهان يُنتج رجاءً.»[٣١] إننا عندما نحتمل مع المسيح آلام الزمان الحاضر فهذا يُنتِج فينا صبراً وهذا الصبر هو القوة التي تعطينا رَجاءَ حياةٍ أفضل في العالم الجديد.

التدريبات الروحية والأسرار المقدسة (مُتَشَبِّهاً بموته)

يضيف دالاس ويلارد التدريبات الروحية في الزاوية الثالثة من المُثلث. وأود أن أضيف مع التدريبات الروحية أيضاً الأسرار المقدسة. بالإضافة لقبول آلام الحياة بصبر، فإن النمو الروحي أيضاً يحتاج للزاوية الثالثة من المثلث وهي الأسرار المقدسة والتدريبات الروحية المقصودة التي بها نَتَشَبَّه بموت يسوع بأن نُميت ونُمَزِّق جسد الخطية الذي هو القِشرة الخارجية (الذات المزيفة) لكي يحيا جنين البذرة (ذاتنا الحقيقية المخلوقة على صورة الله)، وليس ذلك فقط بل ينمو ويقوم من بين الأموات في حياةٍ جديدة أرقى. عندئذ تتحول البذرة من حَبَّةٍ جافةٍ صغيرة شِبه ميتة، إلى ساقٍ خضراءٍ قويةٍ، وجذرٍ عميقٍ، وأوراقٍ غضةٍ، وأزهارٍ زاهيةٍ، وثمارٍ شهيةٍ. هذه هي الخليقة الجديدة. لكي تَظهَر هذه

٣٠ رسالة رومية ٨: ٣١- ٣٦ (الترجمة العربية المُبَسَّطة).

٣١ رسالة رومية ٥: ٢- ٤ (الترجمة العربية المُبَسَّطة).

الخليقة الجديدة، ينبغي أولاً أن تُدفَن البذرة في شِبهِ الموت (المعمودية) وليس ذلك فقط، بل ينبغي أن نعيش هذه المعمودية كُلَّ يومٍ فنعمل دائماً على إماتة الموت الذي فينا. ينبغي للقشرة الجافة أن تتمزَّق وتَختَرِقَها الساق الجديدة الصاعدة لأعلى والجذرُ الجديد النازل لأسفل، وذلك من خلالِ تدريباتٍ روحية مَنهَجِيّة، تَتَدَرَّبُ بها الإرادة الروحية بنعمة الله على إدارة الجسد وتحريرِهِ مِن عاداتِ الخطية.

يبدأ بولس الرسول بالكلام عن التَشَبُّه بموت المسيح بسرِ المعمودية في الأصحاح السادس. وهنا أنا أعيد نفس الفقرة التي ذكرتها عند الحديث عن قوة القيامة، وذلك لأن بولس يربط فيها بشكل وثيق بين التَشَبَّهَ بموتِ المسيح في المعمودية من ناحية، وقوة القيامة من ناحية أخرى:

«أَمْ أَنكُم لا تَعلمُون أَنَّنَا نحن الذين تعمَّدنا مُتَّحدين بالمسيح يسوع، قد تَعَمَّدنا لنشترك معه في موته؟ فقد دُفِنّا معه من خلال معموديتنا لنشتركَ معه في موته، حتى كما أُقيمَ المسيحُ من بينِ الأموات بقوة الآب المجيدة، نسلُكُ نحنُ أَيضاً في حياةٍ جديدةٍ. فبما أَنَّنَا اتَّحَدنا مَعَهُ في موتٍ يُشبِهُ مَوتَهُ، فَسَنَتَجَدَّد معه أيضاً في قيامة تُشبه قيامته.»[٣٢]

فَسَنَتَجَدَّد معه أيضاً في قيامةٍ تُشبِهُ قيامَتَهُ. ما أمجَد هذا الكلام! وما أعظم ذلك الوعد الذي ننتظره!

ليس التَشَبُّهُ بموتِ المسيح فقط في المعمودية، التي هي عملٌ روحيٌ سِرّي نشترك فيه إنسانياً فقط بالإيمان. التشبه بموت المسيح أيضاً يأتي من خلال إماتةِ جسدِ الخَطية من خلال التدريبات الروحية التي نشترك فيها إنسانياً بصورة أكثر نشاطاً. وبذلك نقوم

٣٢ رسالة رومية ٦: ٣- ٥ (الترجمة العربية المُبَسَّطَة).

بتفكيك جسد الخطية المُكون من مجموعة الأفكارِ والمعتقدات والعادات الجسدية وردود الأفعال التلقائية التي تَعَلَّمناها من عالمٍ بعيدٍ عن الله، وارتداءِ أفكارٍ ومعتقداتٍ جديدة أكثرَ صحةٍ ومنطقية (تجديد الذهن) وأيضاً عادات وسلوكيات جديدة نُدَرِّب بها أجسادَنا أن تخضع للإرادة الروحية الخاضِعَةِ بدَورها لروح الله، فيستطيعُ الإنسانُ عندئذٍ أن يقاوم إغراء الخطية الدائم الذي يستغل الاحتياجات الجسدية لإيقاعنا في الشر، فعندما يستطيع الإنسان أن يَحكُمَ جَسَدَهُ، فإنه يستطيع أن يحرس بشكل فعَّال المنافذ التي رُبما تدخل إليه منها التجارب المختلفة.

يكتب الرسول بولس هذا في الأصحاح السادس من رسالة رومية عندما يقول: «إذاً لا ينبغي أن تسمحوا للخطية بأن تَتَحَكَّمَ في أجسادكم الفانية، فتجعلكم تطيعون رغباتها الشريرة. ولا تُقَدِّموا أعضاء أجسامكم للخطية كأدواتٍ في خِدمةِ الإثم، بل قدموا أنفسكم كما يليق بمن نالوا حياة بعد موتهم وأُقيموا من بين الأموات. وقَدِّمُوا أَعضَاءَ أَجسامِكُم لله كأدوات للبر، وفي خدمة البر.»[٣٣]

كيف لا نسمح للخطية أن تتحكم في أجسادنا الفانية؟ بشيء واحد فقط. أن نتحكم نحن في أجسادنا الفانية وهذا هو محور التدريبات الروحية (وبالذات تدريبات التوقف مثل الصمت والاختلاء والصوم والتعفف والبساطة). إننا لا يُمكن أن نحيا في فراغ، فالكوب الفارغ ليس في واقع الأمر فارغاً بل مملوًا بالهواء. وإن كنا نريد أن نطرد الخطية من حياتنا ونجعلها تَكُفَّ عن التَحَكمِ

كيف لا نسمح للخطية أن تتحكم في أجسادنا الفانية؟ بشيء واحد فقط. أن نتحكم نحن في أجسادنا الفانية وهذا هو محور التدريبات الروحية.

٣٣ رسالة رومية ٦: ١٢-١٣ (الترجمة العربية المُبَسَّطَة).

فينا، يجب أن نَتَحَكَّمَ نحن في حياتنا تحت سلطان الله. التدريبات الروحية هي سلوكيات جسدية مُنَظَّمة بها نستعيد السيطرة على أعضاء أجسامِنا لكي نستطيع أن ننتزعها من أن تكون أدواتٍ للخطية وفي خدمة الخطية، ونقدمها لله كأدوات للبر. (لاحظ استخدام كلمة «جسم» للتفرقة بينه وبين «الجَسَد» الذي هو «نظام التشغيل» القديم وليس اللحم والدم والمشاعر والاحتياجات).

الأسرار والتدريبات

الأسـرار والتدريبـات ينبغي أن يتكاملا ويستمرا معاً في جـدل مُـتَّـزن، كَكُـلٍّ مُكوِّنات المسيحية.

لا أستطيع أن أترُكَ هذا الفَصل دون أن أُشيرَ إلى التكامل الضروريّ بين التدريبات والأسرار، وذلك لأن بولس يربط بينهما جيداً عندما يتكلم عن التَشَبُّه بموت المسيح. ففي التَشَبُّه بموت المسيح يُقدم المعمودية، وأيضاً يشجعنا أن نَملُك زمام أجسادنا لإماتة مَيلَها للخطية. أَتَصَوَّرُ أنَّ الأسرار والتدريبات ينبغي أن يتكاملا ويستمِرّا معاً في جدلٍ مُتَّزنٍ ككل مُكوِّنات المسيحية.[٣٤] في السِر نؤكد على عمل النعمة الروحي السري. والمقصود بالسِرّ Mystery هو أنه عمل إلهي لا نفهم كيف يحدث لكننا بالرغم من ذلك نستفيد منه مثل الذي يستفيد من الطعام دون أن يدرك العمليات الحيوية والبيوكيمياوية التي بها يُحول الجسم الطعام إلى طاقة وبناء فيه. هذه الأسرار تساعدنا على التواضع وتَذَكُّرنا بحقيقة ضَعفَنا وبالتالي نقاوم الرغبة في معرفة كل شيء، التي هي الخطية الأصلية. في كتاب **المسيحية الكتابية** يقدم جون كالفن تعريف السرّ (الذي يُسمِّيه الفريضة).

٣٤ من أجمل ما كُتِب عن التوازن الجَدَلي في المسيحية، فصل (مُفارَقات المسيحية) من كتاب: *الإيمان القويم* للكاتب الإنجليزي ج. ك. تشسترتون (عَمّان: أوفير، ٢٠١٤) ص. ١٠٥

«إن أبسط تعريف للفريضة أنها علامة خارجية بها يؤكد لنا الرب داخلياً مواعيده المُباركة. الأمر الذي يُقوي إيماننا ويُمكِّنا من أن نجعل دَعوَتَنا ثابتةً أمام الرب والناس... ويُعَرِّف القديس أغسطينوس الفريضة بأنها علامةٌ مرئيةٌ لشيء مُقدَّس أو **صورة منظورة لنعمة غير منظورة**.»[٣٥]

وإننا عندما نمارس السِرّ (المعمودية أو التناول أو الاعتراف وغيرها من الأسرار) فإننا نمارس الإيمان بسيادة الله وقدرته على عملِ ما لا نستطيع أن نعمله نحن أو حتى أن نَفهَمَه، ونعلن أيضاً احتياجانا إلى ذلك مُصدِّقين لقول المسيح: «بِدُونِي لاَ تَقْدِرُونَ أَنْ تَفْعَلُوا شَيْئًا.»[٣٦] في السر، المجهود الإنساني يكاد يكون غير موجود.[٣٧] أما في التدريبات، فالعمل الإنسانيّ أكثرَ وضوحاً، لكن القوة الفاعلة في الاثنين هي قوة الله. لذلك فإن ممارستهما معاً وفهمهما معاً يساعدَانَنَا على ضَبطِ الاتِّزان دائماً بين قوة الله ومسئولية الإنسان، بين النعمة والجهاد، وبين الإيمان والأعمال، وأخيراً بين المعرفة والسِرّية. المشاركة الإنسانية في السر هي بالإيمان. والممارسة الظاهرة للسرّ توقظ الإيمان الذي يتفاعل مع عمل الله. ثُمّ يُتمم ذلكَ عملٌ آخر من أعمال الإيمان وهو ممارسة التدريبات الروحية. ممارسة الاختلاء، على سبيل المثال، هي ممارسة الإيمان بأن الرب هو الصديق الأقرب والأهم.[٣٨] وممارسة الصمت (وخاصة الصمت الموقفي والامتناع عن الدفاع عن النفس) هو ممارسة الإيمان

٣٥ جون كالفن *المسيحية الكتابية*. ترجمة ق. عبد الكريم كيرلس (القاهرة: الرابطة الإنجيلية في الشرق الأوسط، ١٩٩٤) ص. ٢٣١

٣٦ إنجيل يوحنا ١٥: ٥ ج.

٣٧ لكن الشرط الحيوي لعمل السرّ هو الإيمان، فالسر هو عمل إلهي وليس سحر. القوة الكامنة هي قوة الله التي يُفَعِّلها الإيمان وليست القوة في العمل الجسدي والشكل الخارجي. هي ليست تعويذة تعمل مع كل من يقولها وليست مصباحاً سحرياً من يمتلكه يصبح خادم المصباح خادمه. ومن يمارس الأسرار الإلهية بهذه الطريقة دون الإيمان بعمل الله في المسيح، فإنه يجلب دينونة عظيمة لنفسه.

٣٨ مزمور ٦٨: ٥- ٦

بأن الله هو القادر أن يدافع عنا ونحن صامتون.[٣٩] الصوم عن الأكل هو ممارسة الإيمان أنه ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان.[٤٠] والتعفف (قَمعِ الرغبة الجنسية) هو ممارسة الإيمان أن الالتصاق بالرب يُمكن أن يعوِّض، ولو جزئياً، رغبة الالتصاق الجنسي بالبشر،[٤١] فنستطيع عندئذٍ أن نقاوم الخطايا الجنسية.

في الفصل القادم سوف نتناول نفس الأمور الثلاثة: قوة القيامة (عمل الروح القدس) وشركة الآلام (استقبال تجارب الحياة من يد الله) والتشبُّه بموت المسيح (التدريبات الروحية) ولكن في رسائل بولس لكنيسة أخرى هي كنيسة كورنثوس.

٣٩ خروج ١٤: ١٤ ؛ مزمور ٣٩: ١

٤٠ إنجيل متى ٤: ٤

٤١ رسالة كورنثوس الأولى ٦: ١٧

الفصل الرابع

الذي أقامه سيقيمنا

المسيرة في رسالتي بولس الرسول لأهل كورنثوس

«١٢وَلكِنْ إِنْ كَانَ الْمَسِيحُ يُكْرَزُ بِهِ أَنَّهُ قَامَ مِنَ الأَمْوَاتِ، فَكَيْفَ يَقُولُ قَوْمٌ بَيْنَكُمْ
إِنْ لَيْسَ قِيَامَةُ أَمْوَاتٍ؟ ١٣فَإِنْ لَمْ تَكُنْ قِيَامَةُ أَمْوَاتٍ فَلاَ يَكُونُ الْمَسِيحُ قَدْ قَامَ!
١٤وَإِنْ لَمْ يَكُنِ الْمَسِيحُ قَدْ قَامَ، فَبَاطِلَةٌ كِرَازَتُنَا وَبَاطِلٌ أَيْضًا إِيمَانُكُمْ، ١٥وَنُوجَدُ
نَحْنُ أَيْضًا شُهُودَ زُورٍ للهِ، لأَنَّنَا شَهِدْنَا مِنْ جِهَةِ اللهِ أَنَّهُ أَقَامَ الْمَسِيحَ وَهُوَ لَمْ يُقِمْهُ،
إِنْ كَانَ الْمَوْتَى لاَ يَقُومُونَ. ١٦لأَنَّهُ إِنْ كَانَ الْمَوْتَى لاَ يَقُومُونَ، فَلاَ يَكُونُ الْمَسِيحُ
قَدْ قَامَ. ١٧وَإِنْ لَمْ يَكُنِ الْمَسِيحُ قَدْ قَامَ، فَبَاطِلٌ إِيمَانُكُمْ. أَنْتُمْ بَعْدُ فِي خَطَايَاكُمْ!
١٨إِذًا الَّذِينَ رَقَدُوا فِي الْمَسِيحِ أَيْضًا هَلَكُوا! ١٩إِنْ كَانَ لَنَا فِي هذِهِ الْحَيَاةِ فَقَطْ
رَجَاءٌ فِي الْمَسِيحِ، فَإِنَّنَا أَشْقَى جَمِيعِ النَّاسِ. ٢٠وَلكِنِ الآنَ قَدْ قَامَ الْمَسِيحُ مِنَ
الأَمْوَاتِ وَصَارَ بَاكُورَةَ الرَّاقِدِينَ. ٢١فَإِنَّهُ إِذِ الْمَوْتُ بِإِنْسَانٍ، بِإِنْسَانٍ أَيْضًا قِيَامَةُ
الأَمْوَاتِ. ٢٢لأَنَّهُ كَمَا فِي آدَمَ يَمُوتُ الْجَمِيعُ، هكَذَا فِي الْمَسِيحِ سَيُحْيَا الْجَمِيعُ.
٢٣وَلكِنَّ كُلَّ وَاحِدٍ فِي رُتْبَتِهِ: الْمَسِيحُ بَاكُورَةٌ، ثُمَّ الَّذِينَ لِلْمَسِيحِ فِي مَجِيئِهِ.»
(رسالة بولس الرسول الأولى إلى أهل كورنثوس الأصحاح الخامس عشر: ١٢-٢٣).

«١٤عَالِمِينَ أَنَّ الَّذِي أَقَامَ الرَّبَّ يَسُوعَ سَيُقِيمُنَا نَحْنُ أَيْضًا بِيَسُوعَ، وَيُحْضِرُنَا
مَعَكُمْ. ١٥لأَنَّ جَمِيعَ الأَشْيَاءِ هِيَ مِنْ أَجْلِكُمْ، لِكَيْ تَكُونَ النِّعْمَةُ وَهِيَ قَدْ
كَثُرَتْ بِالأَكْثَرِينَ، تَزِيدُ الشُّكْرَ لِمَجْدِ اللهِ. ١٦لِذلِكَ لاَ نَفْشَلُ، بَلْ وَإِنْ كَانَ

إِنْسَانُنَا الْخَارِجُ يَفْنَى، فَالدَّاخِلُ يَتَجَدَّدُ يَوْمًا فَيَوْمًا. ١٧لأَنَّ خِفَّةَ ضِيقَتِنَا الْوَقْتِيَّةَ تُنْشِئُ لَنَا أَكْثَرَ فَأَكْثَرَ ثِقَلَ مَجْدٍ أَبَدِيًّا. ١٨وَنَحْنُ غَيْرُ نَاظِرِينَ إِلَى الأَشْيَاءِ الَّتِي تُرَى، بَلْ إِلَى الَّتِي لاَ تُرَى. لأَنَّ الَّتِي تُرَى وَقْتِيَّةٌ، وَأَمَّا الَّتِي لاَ تُرَى فَأَبَدِيَّةٌ.»
(رسالة بولس الرسول الثانية إلى أهل كورنثوس الأصحاح الرابع: ١٤- ١٨)

«١فَإِذْ نَحْنُ عَامِلُونَ مَعَهُ نَطْلُبُ أَنْ لاَ تَقْبَلُوا نِعْمَةَ اللهِ بَاطِلاً. ٢لأَنَّهُ يَقُولُ:«فِي وَقْتٍ مَقْبُول سَمِعْتُكَ، وَفِي يَوْمِ خَلاَصٍ أَعَنْتُكَ». هُوَذَا الآنَ وَقْتٌ مَقْبُولٌ. هُوَذَا الآنَ يَوْمُ خَلاَصٍ. ٣وَلَسْنَا نَجْعَلُ عَثْرَةً فِي شَيْءٍ لِئَلاَّ تُلاَمَ الْخِدْمَةُ. ٤بَلْ فِي كُلِّ شَيْءٍ نُظْهِرُ أَنْفُسَنَا كَخُدَّامِ اللهِ:فِي صَبْرٍ كَثِيرٍ،فِي شَدَائِدَ،فِي ضَرُورَاتٍ،فِي ضِيقَاتٍ، ٥فِي ضَرَبَاتٍ، فِي سُجُونٍ، فِي اضْطِرَابَاتٍ، فِي أَتْعَابٍ، فِي أَسْهَارٍ، فِي أَصْوَامٍ، ٦فِي طَهَارَةٍ، فِي عِلْمٍ، فِي أَنَاةٍ، فِي لُطْفٍ، فِي الرُّوحِ الْقُدُسِ، فِي مَحَبَّةٍ بِلاَ رِيَاءٍ، ٧فِي كَلاَمِ الْحَقِّ، فِي قُوَّةِ اللهِ بِسِلاَحِ الْبِرِّ لِلْيَمِينِ وَلِلْيَسَارِ. ٨بِمَجْدٍ وَهَوَانٍ، بِصِيتٍ رَدِيءٍ وَصِيتٍ حَسَنٍ. كَمُضِلِّينَ وَنَحْنُ صَادِقُونَ، ٩كَمَجْهُولِينَ وَنَحْنُ مَعْرُوفُونَ، كَمَائِتِينَ وَهَا نَحْنُ نَحْيَا، كَمُؤَدَّبِينَ وَنَحْنُ غَيْرُ مَقْتُولِينَ، ١٠كَحَزَانَى وَنَحْنُ دَائِمًا فَرِحُونَ، كَفُقَرَاءَ وَنَحْنُ نُغْنِي كَثِيرِينَ، كَأَنْ لاَ شَيْءَ لَنَا وَنَحْنُ نَمْلِكُ كُلَّ شَيْءٍ.»
(رسالة بولس الرسول الثانية إلى أهل كورنثوس الأصحاح السادس: ١- ١٠)

في هذه الفقرات الثلاث من رسالتَيّ بولس الرسول (الأولى والثانية) لأهل كورنثوس، سوف نقتفي أيضاً أثَرَ الأَضلاعِ الثلاثة لمثلث النموّ الروحي (التي هي أيضاً التروس الثلاث لمسيرة بولس الرسول لكي يعرف المسيح و يوجد فيه): قوة قيامته، شركة آلامه، والتَشَبُّه بموته.

قوة قيامته (عمل الروح القدس)

في سلسلة حلقات تلفزيونية حول قضية «الألم» سألني المذيع هذا السؤال: «هل المسيحية ديانة تدعو للألم؟» وأضاف: «أنا أقول هذا لأن الصليب هو الفكرة المركزية في المسيحية. والصليب تجسيد للألم والمعاناة». كان رَدّي المباشر عليه: المسيحية تُتَّهَم ظُلماً أنها ديانة الألم والمعاناة، بينما هي ديانة الانتصار والتجديد. إن كان الصليب قد أصبح هو الفكرة المركزية في المسيحية فهذا أكبر خطأ ارتكبته الثقافة المسيحية في حق المسيحية الكتابية، وأكبر خطأ ارتَكَبَتهُ الكنيسة المسيحية في حق تعليم العهد الجديد. الفكرة المركزية في المسيحية ليست الصليب وإنما القيامة. ليس الألم وإنما النُصرة والحياة الجديدة. في كتاب *التدريبات الروحية*[1]، يكتب دالاس ويلارد عن التاريخ المتأخر لظهور الصليب باعتباره الرمز المسيحي المحوري:

> الفكرة المركزية في المسيحية ليست الصليب وإنما القيامة. ليس الألم وإنما النُصرة والحياة الجديدة.

> لقد اعتدنا جداً على فكرة أن الصليب هو الرمز الأعلى للمسيحية لدرجة أنه من الصادم أن نلاحظ كيف كان ظهور الصليب كرمزٍ مسيحيٍّ دالٍ على القوة، ظهوراً متأخراً حتى أن الحقبة الأولى من الفن المسيحي كانت خالية تماماً منه ولم يظهر إلاعلى أبواب كنيسة سانتا سابينا المبنية في روما سنة ٤٣٠ ميلادية (أي في القرن الخامس)، كما أنه كان مُلصَقاً في ركنٍ يكادُ يكونُ بعيداً عن الأنظار.

> في واقع الأمر، إن الذي أَلهَمَ المسيحيين الأوائل ومَنَحَهُم الشجاعةَ لم يكُن موتُ

١ دالاس ويلارد *التدريبات الروحية* *The Spirit of the Disciplines*

المسيح بقدر ما كانت حياته. وكما تشهد صفحات الإنجيل أن حياة المسيح السامية هي ما قد اجتذب إليه التلاميذ قبل موته، كانت قيامته والأحداث التالية لها هي التي استمرّت تجذب الناس للإيمان بالمسيح. لقد أثبتت القيامة أن حياتَه حياةٌ غير قابلةٍ للموت ولا يمكن للموت الجسدي أن يُنهيها. عندما قام المسيح، أدرك تلاميذه أن تعليمه عن ملكوت الله الأبديّ كان حقيقياً. أما الصليب الذي كان دائماً حاضراً في فِكرِهِم وخبرتهم، فقد جاء تدريجياً إلى مَركزِ المشهد المسيحي لأن قوةَ الحياةِ العُليا في المسيح يسوع قد سُمِح لها أن تَخفُت عبر العصور، فصار موت المسيح هو الرمز وليس حياته غير القابلة للموت.[٢]

لذلك فقد كان من الطبيعيّ أن نَجِدَ أن ذِكرَ القيامة في كتابات العهد الجديد كان أكثرَ بكثيرٍ من ذِكر الصليب. صحيح أن بولس الرسول يكتب عن افتخاره بالصليب.[٣] لكن هذا الافتخار لم يكن أبداً إلّا لأن القيامة قد تَبِعَت الصليب.[٤] كان الإلهام الوحيد لمؤمني العهد الجديد هو أنَّهُم كانوا يَعلَمون أن الذي أقام الرب يسوع سيُقيمهم هم أيضاً بيسوع.

« فنحن نعلم أن الذي أقام الرب يسوع من الموت، سيقيمنا نحن أيضاً كما أقامه. وسيجعلنا نقف معاً، نحن وأنتم في حضرته»[٥] «ونحن نعلم إنه عندما تَنهَدِم خيمتُنا الأرضية، فإن لنا بناءًا من الله، بيتاً أبدياً في السماء. وهو بيتٌ غير مصنوعٍ بأيدي الناس. لذلك نئن ونحن في هذا المسكن مشتاقين أن نلبس مسكننا السماوي.»[٦]

---

٢ دالاس ويلار *التدريبات الروحية. الخلفية الروحية والتطبيق العملي* *The Spirit of the Disciplines* ترجمة أوسم وصفي (القاهرة: كنيسة قصر الدوبارة الإنجيلية، ٢٠١٢) ص. ٨٠- ٨٣

٣ رسالة كورنثوس الأولى ٢: ٢

٤ رسالة كورنثوس الأولى ١٥: ١٣

٥ رسالة كورنثوس الثانية ٤: ١٤ (الترجمة العربية المُبَسَّطة).

٦ رسالة كورنثوس الثانية ٤: ١٤ (الترجمة العربية المُبَسَّطة).

لقد كانت التَحِية المسيحية التي يُحيي بها المؤمنون الأوائل بعضهم البعض في الأيام العادية، وليس فقط في يوم عيد القيامة هي:

- المسيح قام (اخرستوس آنيستي)
- بالحقيقة قام (آليثوس آنيستي)

ويكتب ن. ت. رايت في كتابه الجديد عن السؤال الذي وَجَّهَهُ إلى كبير الأساقفة الروم الأرثوذكس عن تعليم كنيسته عن الصليب، فكان كل ما رَدَّ بِهِ كَبيرُ الأساقفة على محاولات رايت المُتَكَرِّرة لإثارة الموضوع من زوايا مُتَعَدِّدَة هو أنه قال له (بابتسامة مُشرِقة) هو أن الصليب كان بمثابة «المُقَدِّمة الموسيقية» التي افتُتِحَت بها «أوبرا» القيامة.[٧]

دار بيني وبين أحد الأصدقاء حواراً مكتوباً (بطريقة التشات) حول محورية القيامة في مقابل محورية الصليب في الإيمان المسيحي، أُحِب هُنا أن أقتبس منه بعض العبارات:

- الصديق: أُفَضِّلُ التركيز على الاثنين معاً لأن بولس الذي قال أنه لم لم يكن المسيح قد قام باطل إيماننا، هو نفسه الذي قال أننا نكرز بالمسيح مصلوباً. وأكَّدَ أنه لم يزعم أن يعرف شيئاً بين أهل كورنثوس إلا المسيح وإياه مصلوباً.[٨]
- أنا: أعتقد أنه كان يقصد أنه لا يشعر بالعار من كون المسيح قد صُلِب. لكن محور الكرازة كان القيامة وليس الصليب. ففي الأصحاح الأول من سفر الأعمال عندما اختار التلاميذ متياس بدلاً من يهوذا الإسخريوطي قالوا أنهم اختاروه ليكون معهم شاهداً بقيامته (أي قيامة المسيح).[٩] وعندما ذهب بولس إلى أثينا، مكتوب أنه كان يُبَشِّرُهم بيسوع والقيامة.[١٠]

7 N. T. Wright, *The Day The Revolution Began. Reconsidering the Meaning of Jesus's Crucifixion*, (San Francisco: Harper One), 2016,

٨ الرسالة الأولى إلى أهل كورنثوس ٢: ٢

٩ أعمال الرسل ١: ٢٢

١٠ أعمال الرسل ١٧: ١٨

- الصديق: كما لا ينبغي التركيز على الصليب على حساب القيامة لا ينبغي أيضاً فعل العكس. أي التركيز على القيامة على حساب الصليب.
- أنا: الصليب مُهِم. لكن القيامة أهم. نتيجة المباراة أهم من أي حدثٍ فيها. حتى و إن كانت الأحداث هي المؤدية للنتيجة. أنا لا أقول أننا ينبغي أن نُنكِر الصليب لأنه عثرة للبعض، أو جهالة عند البعض الآخر (وهذا في تصوري ما كان يقصده بولس في رسالة كورنثوس الأولى[١١]) لكن القيامة هي الأهم. القيامة هي البؤرة ولا يمكن أن تكون للصورة بؤرتان. القيامة هي التي تعطي معنى لكل شيء وتُثبِت وجود الله نفسه في رأيي لأنها التَدَخُّل الخلاصي المعجزي الأعظم. والصليب ليس كذلك. كَثيرون جداً صُلبوا، لكن واحد فقط هو الذي قام من بين الأموات بعد أن صُلِب. بالطبع ينبغي أن يكون هناك صليب لكي تكون هناك قيامة، لكن القيامة هي التي جعلت من الصليب كَفَّارة، ومن الميلاد تَجَسدُ، وجعلت الكنيسة تنتشر في كل أرجاء العالم. يقول بولس الرسول عن يسوع في الأصحاح الأول من رسالته لأهل رومية أَنَّهُ قد تَعَيَّنَ إبنَ اللهِ بقوةٍ من جهة روح القداسة بالقيامة من الأموات.[١٢] نعم، الخلاص صورة متكاملة لا يُمكن الاستغناء عن أي جزء منها، والصليب جزء أساسي منها، لكن القيامة هي بؤرتها التي تُظهِر جميع أجزاءها وتوضحها وتجعل لها معنى.
- الصديق: هذا الحوار يحتاج إلى جلسة طويلة.
- أنا: نعم فالموضوع مُهِم. (انتهى الحوار)

أتَصَوَّر أنّ محورية الصليب في الحياة المسيحية على حساب القيامة، قد جعلت من

١١ الرسالة الأولى لأهل كورنثوس ١: ١٨- ٢٥

١٢ رسالة رومية ١: ٤

المُصالَحة والكفارة أهم من نوعية الحياة المسيحية التي تأتي بعد ذلك. هذا هو سبب رئيسي في ما نحن فيه من تَدَهوُر الحياة الروحية والأخلاقية. لقد أصبح المُهم هو «الدَم» ولا يهم ما يوجد «تحت الدَم». لقد ركزنا على «المُصالَحة» على حساب «الحياة» مع أن الحياة هي الهدف من المُصالَحة. يكتب بولس الرسول في الأصحاح الخامس من رسالته إلى أهل رومية: «وَلكِنَّ اللهَ بَيَّنَ مَحَبَّتَهُ لَنَا، لأَنَّهُ وَنَحْنُ بَعْدُ خُطَاةٌ مَاتَ الْمَسِيحُ لأَجْلِنَا. فَبِالأَوْلَى كَثِيرًا وَنَحْنُ مُتَبَرِّرُونَ الآنَ بِدَمِهِ نَخْلُصُ بِهِ مِنَ الْغَضَبِ! لأَنَّهُ إِنْ كُنَّا وَنَحْنُ أَعْدَاءٌ قَدْ صُولِحْنَا مَعَ اللهِ بِمَوْتِ ابْنِهِ، فَبِالأَوْلَى كَثِيرًا وَنَحْنُ مُصَالَحُونَ نَخْلُصُ بِحَيَاتِهِ!»

هذه الفقرة تُشير إلى أن الخلاص ليس مجرد التبرير والمُصالحة بموت المسيح، وإنما يكتمل الخلاص عندما نخلُصُ بحياته. أي أن تحل حياة المسيح فينا بالروح القدس لكي نكون مثله، كما يشير بولس الرسول أيضاً في رسالته إلى أهل أفسس: «لِكَيْ يُعْطِيَكُمْ بِحَسَبِ غِنَى مَجْدِهِ، أَنْ تَتَأَيَّدُوا بِالْقُوَّةِ بِرُوحِهِ فِي الإِنْسَانِ الْبَاطِنِ، لِيَحِلَّ الْمَسِيحُ بِالإِيمَانِ فِي قُلُوبِكُمْ.» (٣: ١٦- ١٧)

لقد رَكَّزنا على الهروب من الموت، وليس الحياة، وذلك لأن موت المسيح صار عندنا أهم من حياته. في كتابه الأخير الخبر السار، يكتب ن. ت. رايت أن الهدف النهائي من الخلاص هو تجديد الإنسان و الخليقة بشكلٍ عام، وليس مُجَرّد إنقاذ بعض الناس من الهلاك الأبدي.[١٣]

تجارب الحياة (شركة آلامه)

هذا الرجاء المُبارك هو الذي كان يُعطي المؤمنين القوة لكي يحتملوا حياتهم بما فيها من اضطهادات وتجارب وآلام. خاصة إذا أدركوا أن احتمال هذه الآلام ليس بلا هدفٍ

١٣ ن. ت. رايت، *الخبر السار*، ص ١٠٨.

أو معنى وليس فقط عليهم أن يحتملوها حتى يأتي موعد المجد العتيد. لقد كانوا يدركون أن احتمالَهُم لهذهِ الآلامِ مع المسيح، هو نفسُهُ، سوف يزيدُ من ثِقَلِ المجد الأبدي لهم عندما يقفوا معاً في حضرته.[١٤] عندما قام المسيح من بين الأموات، حَمَلَ في جَسَدِهِ المُمَجَّد بافتخار، آثار آلامه الجسدية على الصليب. لهذا السبب فإن المؤمنين به كانوا يعتبرون أن كل ما يحتملونه من أجل المسيح، ومع المسيح سوف يصير نياشينَ يرتَدُونَها في مَحضَرِهِ في اليوم الأخير، كما حَمَلَ هُوَ في فَخرٍ أمام الآب أثار الصليبِ في يَدَيهِ وجَنبِهِ.[١٥]

«لذلك نحن لا نستسلم. بل حتى لو كانت أجسادنا المادية تقترب من فنائها، إلا أنَّ كياننا الداخليّ يتجدد يوماً بعد يوم. فضيقتنا المؤقتة الخفيفة **تُنتِجُ لنا** مجداً أبدياً يفوق تلك الضيقة بشكلٍ كبير.»[١٦]

كلمة «تُنتِج» في غاية الأهمية. وهي تكرار لما قاله بولس الرسول في الأصحاح الخامس من رسالة رومية، وما قاله يعقوب الرسول في رسالته أيضاً أن هذا الضيق نفسه **يُنتِج** صفاتٍ مجيدة في شخصية المؤمن، سوف يأخذها معه في الحياة الجديدة. إن الأمر يشبه «صالة الألعاب» التي نحمل فيها أثقالاً مختلفةً ومُتَدَرِّجَةً في الوزن ونحن واثقون أن هذه الأثقال التي نُعاني منها الآن سوف «تُنتِج» لنا فيما بعد عضلاتٍ قوية. هذا يجعلنا نحتملها بصبر، بل وندفع المال لكي يُتاح لنا الاشتراك في صالة الألعاب وحمل هذه الأثقال.

المؤمنون بالمسيح كانوا يعتبرون أن كل ما يحتملونه من أجل المسيح، ومع المسيح سوف يصير نياشين يرتدونها في محضره في اليوم الأخير.

١٤ رسالة كورنثوس الثانية ٤: ١٧ ؛ رسالة يعقوب ١: ١٢

١٥ إنجيل يوحنا ٢٠: ٢٧

١٦ رسالة كورنثوس الثانية ٤: ١٦- ١٧ (الترجمة العربية المُبَسَّطة).

كلمة أخرى تربط المجد بالألم مثل كلمة «تُنتِج» هي كلمة «لكي» التي نجدها في الأصحاح الثامن من رسالة بولس الرسول إلى أهل رومية. عندما يكتب: « فَإِنْ كُنَّا أَوْلاَدًا فَإِنَّنَا وَرَثَةٌ أَيْضًا، وَرَثَةُ اللهِ وَوَارِثُونَ مَعَ الْمَسِيحِ. إِنْ كُنَّا نَتَأَلَّمُ مَعَهُ **لِكَيْ** نَتَمَجَّدَ أَيْضًا مَعَهُ.» لم يكتب بولس إن كنا نتألم معه «فسوف» نَتَمَجَّد معه، و إنما كتب: إن كنا نتألم معه «لكي» نتمجد معه. أي أن الألم هو الذي سوف يُسبب المجد. الميراث كامل، الألم والمجد معاً.

هكذا كان يرى مؤمنو العهد الجديد الأوائل ضيقات الحياة وتجاربها، وهكذا كانوا يرون الغَلَبة والنُصرة مع المسيح. إنها صورة قد صارت للأسف خافتة وأحياناً غير مقبولة في إيماننا الحديث الذي غلبت عليه مفاهيم أخرى للغَلَبة والنُصرة.

التدريبات الروحية (مُتَشَبِّهاً بموته)

لذلك فإن بولس يستهل الأصحاح السادس بحَثِّ المؤمنين على الجهاد والعمل مع الله، وألّا يقبلوا نعمة الله «باطلاً» أي عبثاً، بل تدفعهم هذه النعمة إلى العمل. ثم يقدم قائمة طويلة من أعمال الجهاد التي بعضها احتمال المشقات والآلام التي يضعها العالم على المؤمنين، وبعضها الآخر تدريباتٍ روحيةً يَضَعَها المؤمنون على أنفسهم من أجل نُمُوِّهِم الرُوحيّ ونُمُوِّ كَنيسة المسيح.

«وبما أننا نعمل معاً مع الله، نَحُثُّكُم على أن لا تُبَدِّدوا نعمة الله التي نلتموها. إننا لا نَضَعُ عقبةً أمام أحدٍ لئلا تُلام خدمتنا. بل نُظهِر أنفسنا بلا مَلامةٍ من كُلِ وجهٍ كلما يليق بخُدّام الله: باحتمال كبير في المِحَن والمصائب والصعوبات، فقد تَعَرَّضنَا للضرب الكثير والحبس المتكرر، في حملات غاضبة ضدنا، ومشقّات كثيرة في السهر والجوع (احتمال آلام الحياة). نظهر أننا خدام الله بنَقَائِنا

ومَعرِفَتَنا، بصبرِنا ولُطفِنا، بمواهبِ الروحِ القدسِ، وبِمَحَبَّتَنَا الأصيلة وبرسالة الحق التي نحملها، وبقوة الله نتسلح بالصلاح من كل جهة للدفاع والهجوم معاً. (التدريب الروحي).»[١٧]

من المهم هنا أن ندرك كيف أن التدريب الاختياري هو احتمال مشقاتٍ اختياريةٍ يضَعَها الإنسانُ على نفسهِ لكي يَضبِط علاقته بالعالم و«يفطم» نفسه عن التعلُّق بالأرضيات. هذا يساعد الإنسان أيضاً على احتمال المشقات الجبرية التي يضعها العالم عليه، تماماً مثلما يستطيع الرياضي الذي قد وَضَعَ على نفسِهِ بإرادتِهِ أثقالاً، أن يتحمل عبء المباريات الرياضية. ومن المهم أيضاً أن ندرك أن القوة اللازمة لكل ذلك هي من الله على سبيل الهبة والنعمة.

مَن دَرّب نفسه مراراً على تدريب السِرّية وعدم انتظار المديح من الناس،[١٨] يستطيع، أكثر من غيره، أن يحتمل الإهانات والضرب والحبس وكل هذه الأحداث التي تكَلَّمَ عَنها بولس. والذي دَرَّب نفسه مراراً على الصوم الاختياري، يستطيع أن يحتمل أكثر من غيره الجوعَ عندما تنكسرُ به السفينة في عرض البحر، أو عندما يفتقر ولا يجد ما يسد به رَمَقه.[١٩] مثل هذا الإنسان هو المُنتَصِر على العالم وعلى نفسه.[٢٠] مثل هذا الإنسان هو الذي يخشاهُ العالم ويسمعُ إليه بكل إجلالٍ واحترام. إنه الإنسان الذي يستطيع أن يكون في الداخل مستقراً سواء خَدَم بصيتٍ حسن أو بصيت سيء، ولا يتزعزع كثيراً إذا اعتبره الناس مُخادِعاً وهو صادقٌ. وإذا تجاهله الناس فهو مطمئن أن الرب يعرفه وإذا عرفه الناس لا يُفتَتَن كثيراً بمعرفتهم ومديحهم.[٢١] يَظُنُّه الناس حزيناً

١٧ رسالة كورنثوس الثانية ٦: ١، ٣- ٧ (الترجمة العربية المُبَسَّطة).
١٨ الرسالة إلى رومية ٢: ٢٩
١٩ الرسالة إلى فيلبي ٤: ١٢
٢٠ أمثال ١٦: ٣٢
٢١ رسالة كورنثوس الأولى ٤: ١- ٥

لما يصيبه من بلايا تصيب أغلب الناس بالحزن، لكنه في الداخل يشعر بالرضا من أجل إمتياز خدمة الرب وكنيسته. عندما يفتقر للمال، لا يرى نفسه فقيراً فما هو غنيٌّ فيه أثمن كثيراً مما يفتقرُ إليه. حتى الموت نفسه، فمن يتدرب يومياً أن يموت عن كل شيء،[٢٢] بما في ذلك العلاقات الحميمة، يستطيع أكثر من غيره أن يواجِهَ الموت عندما يضربه في أعز الأشخاص، أوعندما يواجهه هو شخصياً. هذا لا يعني أن يتوقف الإنسان عن الاستمتاع بالحياة. على العكس تماماً، فإن الإنسان الذي لا يحمل الهموم في الحياة هو أكثر من يستمتع بها. أن أكثر ما يَمنَعَنا من الاستمتاعِ بالحياة هو الخوف أكثر من اللازم عليها أو منها. المستعدُ أن يخسرَ كُلَّ الأشياءِ هو أقدرُ الناسَ على استخدامِ كل الأشياء والاستمتاع بها.

التطوّر الروحي

مِراراً وتِكراراً أؤكد على أن التطوُّر هو بصمة الله في هذا الكون. لا أدري كيف يعترض كثيرٌ من المسيحيين على نظرية التطوّر البيولوجي باعتبارها مضادة للاهوت الخلق، في حين أن الدعوة المسيحية هي في الأساس دعوة للتطوُّر.[٢٣] المسيحية دعوةٌ إلى خليقةٍ جديدةٍ أرقى من الأولى، كان المسيحُ القائمُ من الأمواتِ باكورَتَها، ونحنُ بالإيمانِ نقبلُ عَمَلَ اللهِ فينا الذي يغيرنا ويُنَقِّينا ويُرَقِّينا إلى هذه الصورة عينها من مجدٍ إلى مجدٍ بحسب عمل الروح القدس فينا، وبحَسَب اشتراكنا الفاعل في هذه الخليقة من خلال شركة آلام المسيح والتَشَبُّه بموته.

يكتب ك. س. لويس في كتابه: *المسيحية المُجَرَّدة* عن هذا الإنسان الجديد: «وعليه، فغالباً ما يتساءل قومٌ: «ما هي الخُطوةُ التالية؟ متى سيظهر الكائن الأرقى من الإنسان؟»

٢٢ رسالة رومية ٨: ٣٦

٢٣ لمزيد من وجهات النظر المسيحية اللاهوتية حول التطوُّر يمكن قراءة كتاب *أسئلة في العهد القديم للكاتب*.

ويحاول كُتّاب واسعو المُخيلة أحياناً أن يتصوَّروا هذه الخطوة التالية («السوبرمان» أو «الإنسان المُتَفَوِّق» كما يُسَمّونه)؛ غير أنهم عادةً لا ينجحون إلّا في تَصَوُّر كائن أبغض إلى حدٍ بعيد من الإنسان كما نعرفه. والآن، إذا راقك التحدث بمصطلحات من هذا القبيل، فالرأي المسيحي هو على وجه الدقة أن الخطوة التالية قد ظَهَرَت فعلاً. وهي بالحقيقة جديدة. فهي ليست تغييراً من إنسان ذكى إلى إنسان أذكى، بل هي تغييرٌ يجري كُلِّياً في اتجاه مختلف تماماً. تغيير من كون الإنسان خليقة من خلائق الله إلى كونه ابناً من أبناء الله. وقد وقعت الحادثة الأولى في فلسطين من ألفيّ سنة. فبناءً على هذه النظرة فالناس الجُدُد فعلاً مُنتشرون هنا وهُناك على وجه الأرض كلها. والمرء يُقابلهم بين حينٍ وآخر. وأعتقد أن تمييزَهم مُمكنٌ، إنما ينبغي لك أن تعرف عَمّا تبحث. فإنهم لن يكونوا أبداً على صورة «المُتَدَيّنين» التي كَوَّنتها من قراءاتك العامة. ذلك أنهم لا يلفتون الانتباه إلى أنفسهم. وأنت تميل إلى الظَنّ بأنك لطيف معهم، في حين يكونون هم بالحقيقة لُطفاء معك. وهم يُحِبّونك أكثر مما يُحِبُّك سائر الناس، غير أنهم يحتاجون إليك أقل.»[٢٤]

في الموعظة على الجَبَل يقول يسوع: «كونوا كاملين كما أنا أباكم الذي في السموات هو كامل.»[٢٥] وهذا الكمال أو بالأحرى الاكتمال، هو عمل الروح القدس فينا الذي سوف يتم تماما في اليوم الأخير عندما يأتي الرب يسوع المسيح في مجده مع ملائكته القديسين ليُغَيِّر حتى جسد تواضعنا ليكون على صورة جسد مجده بحسب استطاعته أن يُخضع لنفسه كل شيء.[٢٦] أما الصورة الروحية لهذا الكمال والاكتمال هي المحبة (آجابى) التي تظهر في أبهى صورها في الغفران.

٢٤ ك. س. لويس، *المسيحية المُجَرَّدة*. ترجمة سعيد ف. باز (عَمّان: أوفير، ٢٠٠٦) ص ٢٠١- ٢٠٤

٢٥ إنجيل متى ٥: ٤٣- ٤٨

٢٦ رسالة فيلبي ٣: ٢٠- ٢١

عندما تكلم المسيح عن محبة الأعداء وإعطاء الخدّ الآخر، لم يكن يُقدم وصايا وتعاليم أو شريعة ولكنه كان يُقدم الطبيعة والخليقة الجديدة ويدعونا إلى الدخول فيها والاشتراك في تلك المسيرة من التطور الروحي.

عندما تكلم المسيح عن محبة الأعداء وإعطاء الخدّ الآخر، لم يكن يُقدم وصايا وتعاليم أو شريعة ولكنه كان يُقدم الطبيعة والخليقة الجديدة ويدعونا إلى الدخول فيها والاشتراك في تلك المسيرة من التطور الروحي.

مؤخراً كُنتُ أتكلم عن الغفران مع مدرسة مهارات الحياة (BLESS) مُشيراً إلى أَنَّهُ مسيرةٌ من التطور الروحيّ: من مرحلة الرغبة في الانتقام من الآخَر المُسيء الذي يُمكن أن يصل إلى القتل، إلى مرحلة القدرة على إطلاقه وعدم الانتقام منه مع تَمَنّي الشَرّ له، ثم مرحلة عدم تمني الشرّ له لكن عدم تمني الخير أيضاً، ثم تمني الخير لكن عدم الرغبة في تقديمه، ثم الرغبة في تقديمه لكن عدم القُدرة على ذلك، وأخيراً تقديم الخير لهذا الآخر المُسيء كلما كان ذلك مُمكناً. عندما قُلت هذا الكَلام تَذَمّر البعض وسألني أحدهم، وماذا إن لم أفعل ذلك؟ كان جوابي الذي أردتُ أن أُسَجِّله هُنا هو: ستظل على هذه الرُتبة من التطور الروحي حتى تفعل ذلك. إن هذا الطريق، كما قال يسوع، طريقٌ طويل به منازل كثيرة،[٢٧] ويستطيع الإنسان أن يسير فيه للأمام كُلَّما استجاب بالطاعة لعمل النعمة الإلهية فيه.

الحياة فيما وراء الموت

شاركني أحد الأصدقاء الذين يعيشون في الولايات المُتَّحِدة وكان قد تَتَلمَذ مُباشرةً على يد الكاتب والفيلسوف واللاهوتي المسيحي الراحل دالاس ويلارد أنه قد عَلَّمَهم أن يقولوا عن أنفسهم التالي: «إنني كائنٌ روحيّ لا يتوقف عن الكينونة، له مُستقبل أبديّ في

٢٧ يوحنا ١٤: ٢- ٤

كون الله العظيم»[٢٨] ثم كان يُوَجِّه لكل واحدٍ هذا السؤال: «كيف ستكون حياتك، وماذا ستكون فاعلاً بعد مائتي عام من الآن؟ وبعد أربعمائة عام؟[٢٩]». وإني الآن أتساءل: «ماذا عساه يفعل الآن دالاس ويلارد بعد أكثر من عامين من انتقاله من هذا المستوى الذي نعيشه على هذه الأرض إلى مستوىً أرحب؟». هذا بالنسبة لما سوف نفعله، أما الحالة التي سوف نكون عليها، فإنني أؤمن أن «السماء» و «الجحيم» ليستا أمرَين مُطلَقَين أبيضاً وأسود ولكنه مُتَّصَل Continuum أو طيف Spectrum من المصير الروحي الذي يُقابل مستوى التَطَوُّر الروحي الذي عِشناه هُنا على الأرض. وهذا منطقياً يتماشى مع كل شيء في الكون، ومع عدالة الله المُطلقة. فالكون كله أطياف. في الهامش توجد آيات تُشير إلى ذلك لن أضعها في المَتن وأنما أذكرها في الحاشية لمن يريد أن يرجع لها ويدرسها.[٣٠]

ويُلمِحُ الكاتب والفيلسوف المسيحي ك. س. لويس في كتابه المُثير للجدل *الطلاق العظيم*، إلى هذه الفكرة التي وَضَعَها في قالبٍ خياليّ فيه يُصِوِّر دَرَجةً من درجات الجحيم في صورة ما أسماه «بالمدينة الرُماديّة» التي يعيش سُكّانها نفس الحياة المُنحصرة في الذات التي كانوا يعيشونها على الأرض، إلّا أَنَّهُم قد تحولوا إلى أشباح لا وجود مادّي حقيقي لها. وبسبب انحصارهم في أنفسهم فإنهم يتباعدون عن بعضهم البعض ملايين السنين الضوئية في فراغ لا نهائي ويتخيلون بيوتاً وقصوراً لا وجود مادّي حقيقي لها ويعيشون فيها حياة رتيبة لا هدف ولا معنى لها، يرددون نفس الكلام الذي كان يتكلمون به وهم على الأرض، وكأنهم كواكبُ تدورُ حول نفسها في الفراغ اللامتناه، وهكذا يتحركون إلى درجات أعمق فأعمق من الجحيم. صَوَّرَ لويس أيضاً «حافلةً»

28 Dallas Willard, *The Great Omission, Reclaiming Jesus's Essential Teaching on Discipleship* (New York: Harper Collins e-books, 2006) location 433.

٢٩ تواصل شخصي.

٣٠ إنجيل متى ٦: ٢٠ – ٢١ ؛ إنجيل لوقا ١٠: ١٢ ؛ إنجيل يوحنا ١٤: ٢ ؛ كورنثوس الأولى ٣: ١٠- ١٥ ، ١٥: ٢١- ٢٣ ، ٤٠- ٤١ ؛ كورنثوس الثانية ٤: ١٧ ؛ كولوسي ٣: ١- ٢

تأتي من وقتٍ لآخرَ لتأخذَ بعضاً من هؤلاء الأشباح في زيارةٍ إلى مكانٍ مُتَوَسِّط، ليس هو الجَحيم وليس هو السماءِ أيضاً، لكنه أقرب للسماء من الجحيم، أي أنَّهُ دَرَجة أوَّلية من درجات السماء، من حيث أنه مُضيءٌ وبه خُضرةٌ وماء ووجود مادي حقيقي حتى أن هذه الأشباح تتألم عندما تمشي على أرضه المُغطاة بالعُشب الأخضر الغَضّ. في هذا المكان يأتي إليهم أشخاص من درجات أبعَد من السماء، والتي أسماها لويس«الغابة العميقة». هؤلاء الأشخاص الذين يأتون هم أشخاصٌ كانوا في الأرض قريبين من هؤلاء الزوار القادمين من المدينة الرمادية، لكنهم ذهبوا للسماء وأصبحوا، كما يُسميهم لويس «أرواح مُشرقة». هذه الأرواح المشرقة تأتي لكي تدعو هؤلاء الأشباح للذهاب معهم إلى الغابة العميقة حيث الوجود الحقيقي. هذه الأرواح المُشرقة أيضاً كانت لها رُتَب، أشار إليها لويس بأن بعضهم كان عارياً والبعض كان يرتدي ثياباً. لكنهم كُلهم كانوا في غاية الجمال والقوة والإشراق. كانت هذه الأرواح المشرقة تدعو الأخيلَةَ القادمةَ مِنَ الجحيم للتَخَلّي عن انحصارهم في أنفسهم والدخولِ مَعَهُم إلى الغابة العميقة حيث سيساعدونهم ويساندونهم في ذلك التطور الروحي. لكن لأنَّ هذا التَطَوُّر الروحيّ كان يتطلب الاستعداد لألم الخروج من النفس والتحوّل من الوجود الخيالي للوجود الحقيقي، فإن أغلبهم كانوا يرفضون ويُفَضِّلون العودة مرة إخرى إلى انحصارهم في أنفسهم في المدينة الرمادية حيث الضوء الخافت الذي يشبه الغروب أو الفجر. بعضهم كان يعتبر هذا الضوء الخافت فجراً وبعده سيأتي النور، وكانوا يعيشون على هذا الأمل الواهم. أما البعض الآخر فكانوا أقل انحصاراً في النفس وكانوا يبحثون عن الحقيقة ويخافون لئلا يكون هذا الضوء الخافت هو الغروب الذي يسبق الظلام التام. لذلك فإنَّ هؤلاء هُم الذين يَستقِلّون الحافلة التي تقوم برحلاتها إلى أرض النور. ومع الوقت عندما يُفَوِّتون الفرصة تلو الأخرى و يستمرِّونَ في انحصارهم في أنفسهم فإنهم، بطبيعة الحال يتشاجرون مع

بعضهم البعض ويبتعدون سنواتٍ ضوئيةً عديدة في الفراغ حتى أنهم لا يستطيعون حتى ركوب تلك الحافلة حيث لا يعود بإمكانهم الوصول إلى المحطة التي تتحرك منها الحافلة، ولا يعودوا حتى راغبين في ذلك من فَرط انحصارهم في أنفسهم.

وفي الفصل التاسع، وهو أحد أهم فصول الكتاب، يلتقي الراوي (الذي هو لويس نفسه) مع كاتبه المُفَضَّل جورج ماكدونالد George McDonald الذي هَدَتهُ كتاباتُهُ إلى الإيمان. ومن خلال هذا الحوار يَرسم لويس رؤيته التأملية حول مُتَّصل الأبدية التي عليه تتحرك أرواح الذين رَقَدوا والذي يُمكننا أن نرسِمَهُ في الشكل التالي:

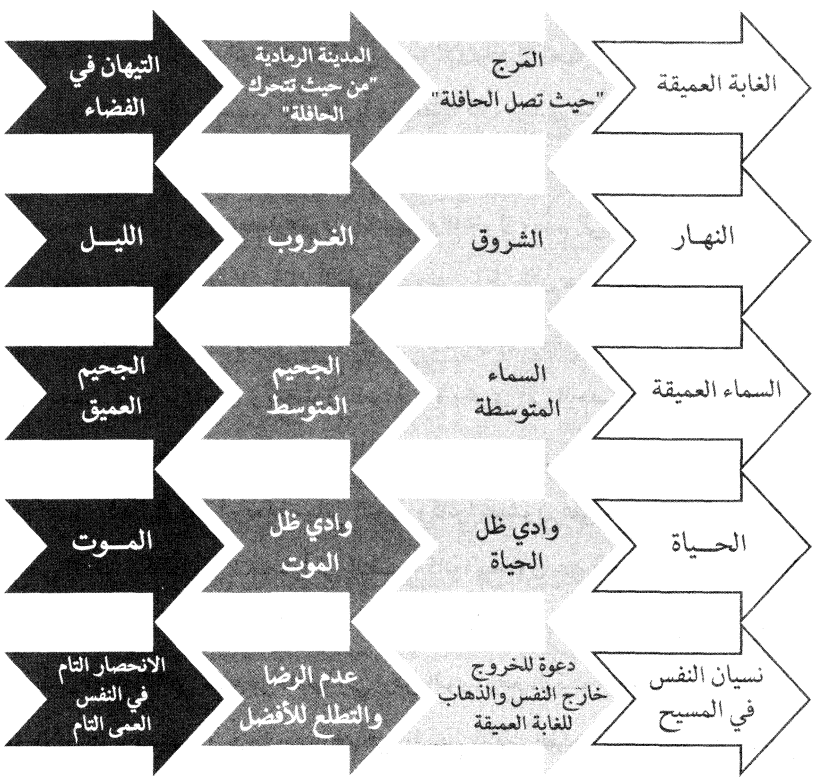

(ملحوظة: كل التعبيرات التي فوق بعضها في عامود هي مترادفات، فالغابة العميقة هي النهار وهي السماء العميقة وهي الحياة. والمرج هو الشروق والسماء المتوسطة أو ما يمكن أن نسميه «وادي ظل الحياة» بينما المدينة الرمادية هي الغروب أو الجحيم المتوسط أو«وادي ظل الحياة». أما الليل فهو التيهان في الفضاء أو الجحيم العميق أو الموت، الذي هو الانحصار التام في النفس).

الفكرة اللاهوتية المحورية هي إن كل واحد سوف يعيش في الأبدية في نفس المستوى الروحي الذي اختار أن يعيشه في هذه الحياة حيث كانت تُقَدَّمُ له دائماً فُرصة التَرَقي من خلال الإيمان والجهاد. وأيضاً رُبما ستتاح له، بحَسَب لويس، نفس الفُرصة (بالإيمان والجهاد) في الحياة الأخرى. وفي النهاية الله دائماً يدعو، والإنسان يُمارِس حُرّيته في الاختيار ويعيش نوع الحياة التي يريدها، هنا وهُناك.

وسأقتبس ختاماً لهذا الفصل جزءًا من حوار أحد الأرواح المشرقة مع واحد من الأشباح الساكنة الجحيم. وقد كان هذا الروح المشرق يعمل لديه في الأرض. وكانت المُفارقة في لقائهما هي أن ذلك الروح المشرق كان في حياته على الأرض قد ارتكب جريمة قتل قبل أن يتوب. أما الشبح فقد كان رجلاً «صالحاً» يرى نفسه أفضل من الجميع.

- لكنك قتلته
- نعم بالطبع لقد فَعَلت. لكن كل شيء على مايرام الآن
- على ما يرام؟ هل هذا صحيح؟ على مايرام بالنسبة لك. لكن ماذا عن هذا المسكين الذي مات؟
- لَم يَمُت. لقد قلت لك. هو بخير الآن، وسوف تقابله إذا أتيت معي للغابة العميقة. بالمناسبة. هو يهديك محبته

- ما أريد أن أفهمه، قال الشبح، هو كيف أنت هنا في هذا المكان الجميل، وأنا في تلك المدينة الرُمادية، وأنتَ قاتلٌ لَعين؟
- أعلم أن هذا من الصعب فهمه في البداية. لكن الأمر قد انتهى الآن. ولاحاجة لأن تشغل بالَكَ بهذه الأمور الآن
- لا حاجة لأن أشغل بالي؟ ألا تخجل من نفسك؟
- لا. ليس كما تقصد. أنا توقفت منذ زمن أن أنظر إلى نفسي. لقد تَخَلَّيتُ عن نفسي. لقد اضطُرِرتُ لذلك، كما تعرف، بعد الجريمة. لقد كان هذا أفضل ما فَعَلَتهُ لي الجريمة التي ارتكبتها. وعندئذ بدأ كل شيء.[٣١]

السِمة المُمَيِّزة لأهل الجحيم، كما نرى، هو انشغالهم البالغ بأنفسهم. والسمة المُمَيِّزة لأهل السماء، هو أنهم قد نَسَوا أنفسهم تماماً ولا ينشغلون إلا بالله وبالحياة معه واكتشاف خليقته الروحية اللامتناهية.

في الفصل القادم سوف نتتبع نفس هذه المسيرة بمُكوِّناتها الثلاثة: قوة القيامة، وشركة الآلام والتشبه بالموت، وذلك في فقرة من رسالة بولس الرسول إلى أهل كولوسي كُنت قد أشرت إليها مراراً في إطار الفصول السابقة، لكن في الفصل القادم سوف نتأملها هي نفسها، بتَعَمُّقٍ أكبر.

31 C. S. Lewis, *The Great Divorce. A dream* (San Francisco: Harper San Francisco, 1946-1973) 26- 27.

الفصل الخامس

إن كُنتُم قد قُمتُم مَعَهُ

المسيرة في رسالة بولس الرسول إلى أهل كولوسي

«[١]فَإِنْ كُنْتُمْ قَدْ قُمْتُمْ مَعَ الْمَسِيحِ فَاطْلُبُوا مَا فَوْقُ، حَيْثُ الْمَسِيحُ جَالِسٌ عَنْ يَمِينِ اللهِ. [٢]اهْتَمُّوا بِمَا فَوْقُ لاَ بِمَا عَلَى الأَرْضِ، [٣]لأَنَّكُمْ قَدْ مُتُّمْ وَحَيَاتُكُمْ مُسْتَتِرَةٌ مَعَ الْمَسِيحِ فِي اللهِ. [٤]مَتَى أُظْهِرَ الْمَسِيحُ حَيَاتُنَا، فَحِينَئِذٍ تُظْهَرُونَ أَنْتُمْ أَيْضًا مَعَهُ فِي الْمَجْدِ.[٥]فَأَمِيتُوا أَعْضَاءَكُمُ الَّتِي عَلَى الأَرْضِ: الزِّنَا، النَّجَاسَةَ، الْهَوَى، الشَّهْوَةَ الرَّدِيَّةَ، الطَّمَعَ الَّذِي هُوَ عِبَادَةُ الأَوْثَانِ، [٦]الأُمُورَ الَّتِي مِنْ أَجْلِهَا يَأْتِي غَضَبُ اللهِ عَلَى أَبْنَاءِ الْمَعْصِيَةِ، [٧]الَّذِينَ بَيْنَهُمْ أَنْتُمْ أَيْضًا سَلَكْتُمْ قَبْلاً، حِينَ كُنْتُمْ تَعِيشُونَ فِيهَا. [٨]وَأَمَّا الآنَ فَاطْرَحُوا عَنْكُمْ أَنْتُمْ أَيْضًا الْكُلَّ: الْغَضَبَ، السَّخَطَ، الْخُبْثَ، التَّجْدِيفَ، الْكَلاَمَ الْقَبِيحَ مِنْ أَفْوَاهِكُمْ. [٩]لاَ تَكْذِبُوا بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ، إِذْ خَلَعْتُمُ الإِنْسَانَ الْعَتِيقَ مَعَ أَعْمَالِهِ، [١٠]وَلَبِسْتُمُ الْجَدِيدَ الَّذِي يَتَجَدَّدُ لِلْمَعْرِفَةِ حَسَبَ صُورَةِ خَالِقِهِ، [١١]حَيْثُ لَيْسَ يُونَانِيٌّ وَيَهُودِيٌّ، خِتَانٌ وَغُرْلَةٌ، بَرْبَرِيٌّ سِكِّيثِيٌّ، عَبْدٌ حُرٌّ، بَلِ الْمَسِيحُ الْكُلُّ وَفِي الْكُلِّ.

[١٢]فَالْبَسُوا كَمُخْتَارِي اللهِ الْقِدِّيسِينَ الْمَحْبُوبِينَ أَحْشَاءَ رَأْفَاتٍ، وَلُطْفًا، وَتَوَاضُعًا، وَوَدَاعَةً، وَطُولَ أَنَاةٍ، [١٣]مُحْتَمِلِينَ بَعْضُكُمْ بَعْضًا، وَمُسَامِحِينَ بَعْضُكُمْ بَعْضًا إِنْ كَانَ لأَحَدٍ عَلَى أَحَدٍ شَكْوَى. كَمَا غَفَرَ لَكُمُ الْمَسِيحُ هكَذَا أَنْتُمْ أَيْضًا. [١٤]وَعَلَى جَمِيعِ هذِهِ الْبَسُوا الْمَحَبَّةَ الَّتِي هِيَ رِبَاطُ الْكَمَالِ. [١٥]وَلْيَمْلِكْ فِي قُلُوبِكُمْ سَلاَمُ

اللهِ الَّذِي إِلَيْهِ دُعِيتُمْ فِي جَسَدٍ وَاحِدٍ، وَكُونُوا شَاكِرِينَ.» (رسالة بولس الرسول إلى أهل كولوسي الأصحاح الثالث: ١- ١٥)

قوة قيامته (عمل الروح القدس)

قوة الروح القدس التي غلبت الموت في جسد المسيح المدفون في قبر يوسف الرامي، ليست فقط سوف تُقيم أجسادنا في اليوم الأخير، بل هي الآن قادرة أن تغلب كل أشكال الموت الروحي في نفوسنا.

في الفقرات السابقة، سواء من رسالة رومية أو رسالتيّ كورنثوس. كان الكلام عن القيامة يدور حول مفهوم أن الله الذي أقام يسوع من بين الأموات سوف يقيمنا نحن أيضاً في اليوم الأخير. أما في هذه الرسالة، فيبدأ بولس الرسول الأصحاح الثالث منها بهذا التعبير القوي: إن كُنتُم قد «قُمتُم» بالفعل مع المسيح. هذا المفهوم استخدمه بولس أيضاً في رسالته لأهل أفسس عندما يقول كيف أن الله قد أقامنا بالفعل مع المسيح وأجلسنا معه في السماويات.[١] وكأنه على منوال ما كتبه في رسالة كورنثوس الثانية: «إن كان واحدٌ قد مات لأجل الجميع، فالجميعُ إذاً ماتوا»،[٢] «إن كان واحدٌ قد قام لأجل الجميع، فالجميع إذاً قاموا»

القيامة الجسدية أمرٌ ننتظره، أما القيامة الروحية فهي حادثة بالفعل. فإن كانت قوة الروح القدس التي غَلَبَت الموت في جسد المسيح المدفون في قبر يوسف الرامي حالَّةٌ فينا وتُثبِتُ وجودها من خلال ثمر الروح ومواهبه، فإن هذه القُوَّة ليس فقط سوف تُقيم أجسادنا في اليوم الأخير، بل هي الآن قادرة أن تَغلِب كُلَّ أشكالِ المَوت الروحي

١ الرسالة إلى أفسس ٢: ٦

٢ كورنثوس الثانية ٥: ١٤

في نفوسنا.[٣] أما جلوسنا مع المسيح في السمويات، فليس أمرٌ ننتظره في المستقبل، بل هو حادِثٌ هنا والآن روحياً.

هذه معانٍ لا ينبغي أن نَعبُر عليها بسُرعة وببساطة، بل ينبغي أن تترك الكتاب من يَدِكَ وتُغمِضُ عَينيَكَ وتَطلُبُ من نفس هذا الروحَ القَدُسَ أن يأخذ هذه المعاني عميقاً في قلبك ووجدانك لأنها معانٍ من شأنها، إذا تغلغلت في كيانك، أن تغيِّرك تماماً وتُبَدِّل منظورك للحياة والوجود.

في رسالة فيلبي يُقَدِّم بولس مفهوماً مُشابهاً. عندما يكتُبُ عن المواطَنَة السماوِيَّة للمؤمنين.[٤] يبدو الأمر كما لو كان لنا جنسية مزدوجة. كَثيرٌ من المسيحيين في الوطن العربي الآن يسافرون ليحصلوا على الجنسية الكَنَدِيَّة مثلاً ثم يعودوا ليسكنوا في بلادهم حتى إذا سَاءَت الأوضاعُ فيها، فإنهم يسافرون إلى كندا هرباً من تلك الأوضاع السيئة وتَمَتُّعاً بالحياة الجديدة المختلفة في هذا البلد الأرقى. هذه الجنسية الأجنبية ربما يحتفظون بها سِرّاً لحين الحاجة، فيتحركون في بلادهم بالجنسية المصرية مثلاً، يحصلون بها على أوراقهم المختلفة كرخصة قيادة السيارات وعضوية النقابات والأندية ويُحَرِّرون بها العقود ويُجرُونَ بِها المعاملات المختلفة، لكنهُم سراً يحتفظون بجواز السفر الكندي في دُرجٍ مُغلق يُفتَح عند الحاجة فيُظهِرون هذه الجنسية «المُستَتِرة»[٥] خلف جِنسَيَّتَهُم الظاهِرة.[٦] من يعيش في إحدى قُرى الصعيد المصري مثلاً ولديه جواز سفر كندي، فإنَّهُ يعيشُ تحت

٣ الرسالة إلى رومية ٨: ١١- ١٧

٤ الرسالة إلى فيلبي ٣: ٢٠

٥ رسالة كولوسي ٣: ٣

٦ بعد حرب سنة ٢٠٠٦ التي حدثت في لبنان، أرسلت كندا سُفُنا لإجلاء رعاياها من بيروت، فاكتشفت أن لها رعايا كثيرون لم تطأ أرجلهم كندا إلا لمرات معدودة. هؤلاء هم لبنانيون حاصلون على الجنسية الكندية لكنهم لا يزالوا يعيشون في لبنان. ومنذ ذلك الحين تشددت السلطات الكندية في إجراءات منح الجنسية.

نفس الظروف التي يعيشها مواطنوه، لكن السِرَّ الذي يخفيه يجعلهُ يستَقبِل هذه الظروف بطريقة أخرى غيرهم لأن لديه شيءٌ آخر ليس لديهم. هذا الشيء الآخر ليس فقط وعد بشيءٍ سيحدث في المستقبل، ولكنه أمرٌ حادثٌ فعلاً و يحتفظ بمستنداته مَعَهُ هُنا والآن. إنها جنسية أخرى حقيقية مَمْهورةٌ بختمِ تِلكَ الدَولةِ الأَجنَبِيَّة العُظمى. نفس الشيء يقوله بولس؛ إننا مواطنون أرضيون مثل غيرنا تماماً، لكن لدينا سِراً جواز سفر سماوي مَمهورٌ بختم الروح القدس الذي قد غَيَّرَنا بالفعل وغَيّر طبيعتنا وأَولَوِيَّاتِنا. هذا التغيير هو عَربون[٧] مُعطَى لنا هُنا والآن ليُثبتَ صِدق العهد الذي صُنِع، وحقيقة باقي الميراث الذي ننتظر اكتماله. ونحن الآن منتظرين أن يكتمل الميراث الذي معنا عَربونَهُ، وذلك عندما يأتي لنا المُخلِّص الذي سيغير أجسادنا الأرضية المتواضعة لكي تكون مثل جسده المُمجد، لنعيشَ معاً مَعه في الأرض التي سوف تُعتَقَ هي الأخرى من عبودية الفساد. وحتى يحدث هذا، فهذه الجنسية السِرِّيَة لا يراها الناس، لكنهم من المفترض أن يروا علينا روحياً وأخلاقياً آثارها، فنحن لسنا مواطني دولة غَنِيَّة في المال، لكننا مواطني دولة رأسمالُها المَحَبَّة.

بالطبع من سافروا وجاهدوا وأنفقوا كل ما لديهم للحصول على جنسية أخرى، فإن هذه الجنسية الجديدة تصبح بالنسبة لهم هي الأغلى والأهم. إذا تَطَلَّبَ منهم الأمر مثلاً السفر إلى كندا و إلا فسوف تسقط الجنسية عَنهُم، فإنهم يبيعون المساكن والأراضي والسيارات بأي سعر لشراء تذاكر الطيران ويستقلون أول طائرة إلى هناك. قبل أن تكون لهم تلك الجنسية الأخرى، كانوا يجاهدون لكي يشتروا تلك الأراضي والعقارات، أما الآن فهم يبيعونها بسهولةٍ غريبة وبأرخص الأسعار لشراء مجرد تذاكر طيران للبَلَدِ الجديد. و إذا فُرِض واضطروا أن يختاروا جنسية واحدة من الاثنين، فَلَنا أن نتوقع أي جنسيةٍ سوف

٧ رسالة كورنثوس الثانية ١: ٢٢

يختاروا. وكأن بولس الرسول يقول لنا: إن كان من لديهم الجنسية الكَنَدِيَّة يهتمون أكثر بما في كندا عما هو في مصر. فنحن أيضاً ينبغي أن نفعل نفس الشيء.

«فبما أنكم قد أُقِمتُم مع المسيح من الموت، اسعوا دائماً إلى الأمور السماوية. فهُناكَ المسيحُ مُتَوَّجٌ عن يمين الله. رَكِّزوا تفكيركم على الأمور السماوية لا على الأمور الأرضية. فالذات القديمة فيكم قد ماتت، وحياتكم الجديدة مستورة مع المسيح في الله. وحين يظهر المسيح، الذي هو حياتُكُم، ستظهرون أنتم أيضاً معه في المجد.»[٨]

مَتى أُظهِرَ تُظهَرون مَعَهُ

نَفسُ الروحِ الَّذي أَقام يسوع من الأموات هو الذي كان يجعله يَظهَر فجأة وسط تلاميذَهُ والأبواب مُغلقة، وهو الذي سوف يُظهِرَهُ في مجيئهِ الثاني أمام الجميع. لقد كان مَجدُ المسيح وطبيعَتَهُ الإلهيَّة أمراً مُستَتِراً خلف جَسَد وشخصية يسوع ــ نجار الناصرة الفقير. هذا المجد كان يظهر بشكلٍ غير مُباشر من خلال معجزاته، لكن يبدو أيضاً أن جَسَدَهُ المُمَجّد (جسد القيامة) كان موجوداً أيضاً بشكلٍ كامن وغير كامل، أثناء خدمته على الأرض. وفي مَرَّاتٍ محدودةٍ جِدّاً انفتحت هذه النافذة لأوقاتٍ محدودةٍ جداً وأمام أشخاص مُعينين، ولأغراض هامّة في تاريخ الفداء.[٩] انفتحت هذه النافذة أمام يوحنا أثناء معمودية يسوع (حتى أن الكنيسة تُسمي هذه الحادثة «الظُهور الإلهي»)[١٠] كما قام يسوع خلال فترة خدمته، وأمام عددٍ محدود جداً من تلاميذه، بفتح هذه النافذة لكي يروا لَمحةً من

٨ رسالة كولوسي ٣: ١-٤ (الترجمة العربية المُبَسَّطَة).

٩ يبدو أنه في المسيح قد تم حدوث اتحاد عجيب بين الإلوهة والإنسانية، وانفتاح بين هذا الدهر والدهر الأتي وارتباط بين مجد الأرضيات ومجد السماويات، حتى أن المسيح في حياته الأرضية قبل القيامة كان يستطيع أن يتجَلّى على الجبل ويمشي على الماء، وبعد القيامة في جسده المُمَجَّد كان أيضاً يستطيع أن يأكل وأن يجعل توما يلمسه.

١٠ إنجيل متى ٣: ١٦

مجده، وذلك قبل أن يسير طريق المجد النهائي الذي ينبغي أن يَمُرَّ بالصليب لكي يستطيع أن يورثنا نحن البَشَر الخُطاة هذا المجد.

كانت هذه النافذة من خلال إتيانه إلى تلاميذه وهُم مُعَذَّبون في السفينة ماشياً على الماء[11] (فالجسد الذي يظهر والأبواب مغلقة هو فقط الجسد الذي يُمكن أن يمشي على الماء)، أو عندما أخذ مَعَهُ بطرُسَ و يعقوبَ و يوحنا وأراهم مجده على جبل التَجَلّي.[12] هُنا يقول بولس أن مجيء المسيح الثاني هو ظهورٌ مثل هذه الظهورات ولكنه ظهورٌ كاملٌ ونهائيّ. وليس ذلك فقط، فهذا الظهور النهائي سيُظهَرَ فيه معه تلاميذه المؤمنون به والمُطيعون له. سوف تظهر حقيقة حياتهم الروحية و ينكشف مدى نُمُوَّهُم الروحي ومَجدُ المسيح الذي في حياتهم والذي ظل «مُستَتِراً» خلال حياتهم هُنا على الأرض. ستظهر حقيقية حياتنا الروحية أمام الجميع، وسوف يكون هذا أمراً مُسِرّاً مُفرحاً للبَعض، وسوف يكون مُخجلاً لآخرين.[13]

نعم، ستظهر حقيقية حياتـنا الروحـية أمام الجميع، وسوف يكون هذا أمراً مُسِرّاً مُفرحاً للبَعض، وسوف يكون مُخجلاً لآخرين.

في هذه الفقرة، يكتب يوجين بيترسون Eugene Peterson في الترجمة المُعاصرة الرسالة The Message الذي تَرجَمَتَهُ بالعربية هكذا:

> إذا كُنتُم جادّين في مسألة حياة القيامة الجديدة مع المسيح. فاسعوا إذاً في طلب الأمور التي يسود عليها المسيح. لا تمشوا بخطوات متثاقلة وكأنهم لا تريدون رفع أرجلكم ولا عيونكم من على الأرض. لا تصيروا فيما بعد مأخوذين

١١ إنجيل متى ١٤: ٢٦

١٢ إنجيل مرقس ٩: ١- ٨ ؛ بطرس الثانية ١: ١٧- ١٨

١٣ يوحنا الأولى ٢: ٢٨ (والآن أيها الأولاد، اثبتوا فيه، حتى إذا أُظهِرَ يكون لنا ثقةٌ، ولا نخجل منه في مجيئه).

بما تراه عيونكم أمامكم هُنا. أرفعوا أعينكم لفَوق، ولا تكونوا منتبهين لما يجري حولكم، بقدر ما تكونوا منتبهين بما يجري حول المسيح في السماويات ـــ فهناك الأحداث الحقيقية. انظروا للأمور من مَنظورِهِ هو. إن حياتكم القديمة قد ماتت بالفعل. أما حياتكم الجديدة والتي هي حياتكم الحقيقية ـــ حتى وإن لم تُصبِح منظورة للعيان بعد ـــ هي الحياةُ مع المسيح في الله. إنه هو حياتكُم. وعندما يُظهَر المسيح (الذي هو حياتكم لا تنسوا) فأنتم أيضاً (أي ذَواتَكُم الحقيقية المجيدة)، سوف تظهر معه.[١٤]

قبل هذا الظهور للمسيح في مجيئه الثاني، فإنه لا يَظهر الآن إلا من خلال أن يَتَصَوَّرَ في رجالٍ ونساءٍ يَلبسونَ المسيح وينالون شَبَهَهُ في المحبة والأعمال الحَسَنة. في حواره مع تلاميذه والوارد في الأصحاح الرابع عشر من إنجيل يوحنا، قال يسوع: «لو كُنتُم قد عرفتموني لعرفتُم أبي أيضاً. ومن الآن تعرفونه وقد رأيتموه».[١٥] هذه العبارة أثارت تلميذه فيلبس فقال: «يا سَيِّد. أرِنا الآب وكفانا».[١٦] كُل البشر يتوقون إلى رؤية الله، هذا ما كان يريده ويحلم به فيلبس. فأجابه يسوع قائلاً أن من رآه فقد رأى الآب. لقد ظهر الآب في المسيح، في أقواله وأعماله. لذلك فقد كان من الطبيعي أن ينتظر التلاميذ أن يُظهر المسيح قُوَّتَهُ أمام كل الناس بصورة لا تَقبل الشك، بل ويهزم الإمبراطورية الرومانية التي تذيق الشعب أهوال الهوان، ويعلن انتصار الله على الشيطان والخير على الشر. هكذا كان يحلم يهوذا ليس الإسخريوطي،[١٧] لذلك كانت صدمته عندما قال يسوع أنه بعد قليل لا يراه

١٤ ترجمة عربية لكولوسي ٣: ١- ٤ (الرسالة) *The Message*

١٥ إنجيل يوحنا ١٤: ٧

١٦ إنجيل يوحنا ١٤: ٨

١٧ إنجيل يوحنا ١٤: ٢٢

العالم، ويراه فقط المؤمنون به.[١٨] فاعترض قائلًا: «يا سَيِّد ماذا حَدَث حتى أنك مُزمِعٌ أن تُظهِر ذاتك لنا وليس للعالم؟». كانت إجابة يسوع له هي التالية: «إن أحبني أحد يحفظ كلامي، ويحبه أبي، وإليه نأتي وعنده نصنع منزلاً.» أعلن المسيح أن طريقته في إظهار نفسه للعالم قبل مجيئه الثاني هي أنه يحل بالإيمان في قلوب المؤمنين به والحافظين كلامه المُطيعين وصاياه، بحيث يتحول كل مؤمنٍ به إلى منزلٍ (هيكلٍ) لله في هذا العالم.

بعد أن كان منزل الله هيكلاً في أورشليم، وبعد أن صار يسوع، ابن الله المُتَجَسِّد هو بَديل الهيكل،[١٩] يُصبح قلب وحياة كل مؤمن بالمسيح هيكلًا لله، فيصير حضور الله في كل أرجاء العالم المسكون، في قلوب الذين يحبونه ويحفظون وصاياه. عندئذ ليس فقط كل من رأى يسوع يرى الآب، بل كل من يرى المؤمنين بيسوع يرى الآب والابن معاً. يُشبه الأمر عندما يضع أحد المطاعم العالمية (وليكن مكدونالدز مثلاً) اشتراطاتٍ صارمةً لكُلِّ صاحبِ مطعم (أو شركة مطاعم) في أي مكان في العالم أن يتبَعَ قواعدَ معينة و «يحفظ وصايا» ماكدونالدز، وإذا فَعَل، فإن ماكدونالدز يقوم بوضع اسمه على هذا المحل ويصبح فرعاً من فروعه بطريقة «الفرانشايز» فيقدم ذلك المطعم المحلي نفس وجبات ماكدونالدز بكامل مواصفاتها في كل مكان في العالم: من فنزويلا إلى الإمارات ومن السويد إلى المنيا، ومن الصين إلى ساحل العاج. الشرط هو أن يحفظ المطعم وصايا واشتراطات ماكدونالدز حتى إن جاز التعبير، «تحل شخصية ماكدونالدز بالكامل في ذلك المطعم» فيكون إذا دخل أي إنسان أي مطعم من مطاعم ماكدونالدز المنتشرة في كل أرجاء العالم يحصل على نفس المُنتج بدون أدنى تغيير.

١٨ إنجيل يوحنا ١٤: ١٩

١٩ إنجيل يوحنا ٢: ١٩- ٢٢

لقد كان هذا هو اختيار المسيح في إعلانه عن نفسه، ليس الإعلان المركزي المحدود بالزمان والمكان، و إنما إعلان الروح القدس الذي يجعل المسيح يتصور في كل مؤمن به مُطيع له. كان هذا يبدوا بالنسبة للتلاميذ، وربما لا يزال يبدو بالنسبة لنا، عدم ظهور، بينما في وجهة النظر الإلهية وبالاقتصاديات الإلهية، هو الظهور الأعظم والأكمل. مهما كانت شهرة ماكدونالدز العالمية في الولايات المُتَّحدة، هل كان ممكناً للناس في كل مكان في العالم أن تعرف ماكدونالدز وتتذوق طعامه، إلا إذا كان قد وصل إليهم حيث يقيمون؟ لذلك قال يسوع لتلاميذه أنه خيرٌ لهم، وللملكوت، أن ينطلق و يُرسل الروح القدس الذي سوف يشهد للعالم.[٢٠] في قلوب وسلوك ملايين المؤمنين.

التدريبات الروحية (مُتَشَبِّهاً بموته)

لهذا يقول بولس لمؤمني كولوسي ولنا أجمعين، أننا ينبغي أن نَستعد لظهور المسيح النهائي، بأن نُظهِرَه هُنا والآن في حياتنا، فهذا، بالإضافة إلى الشهادة للمسيح في قلوب الناس ليرونه و يؤمنون به، فإنه أيضاً يُضيف لنا ثقل مجدٍ في مجيئه. وذلك يحدث بأن نتوقف عن الاهتمام الزائد بالأرضيات وذَلك فنُميت «أعضائنا التي على الأرض» أي تلك الأجزاء الميتة التي فينا التي تتعلَّق بما ينبغي أن يكون قد مات. هذه التعلقات هي التي تفتح الباب للخطية. فالتعلق المبالغ فيه باللذة الجنسية، يفتح الباب للخطايا الجنسية التي تحتل موقع الصدارة سواء هنا في رسالة كولوسي، أو في رسالة غلاطية (٥: ١٩). التعلق بالمال يفتح الباب أمام خطايا المال (الطمع الذي هو عبادة الأوثان). الإنحصار في النفس يفتح الباب أمام الخطايا الاجتماعية (العلاقاتية) والتي تحتل مساحة كبيرة سواء في رسالة كولوسي (٣: ٨- ٩) أو غلاطية (٥: ٢٠- ٢١).

٢٠ يوحنا ١٦: ٧

في هذه الفقرة لا يتكلم بولس الرسول كثيراً على احتمال مشقات الحياة وإنما يتكلم أكثر على التَشَبُّه بموت المسيح، أي إماتة وخلع الذات المزيفة القديمة. ولِبس المسيح (الخليقة الجديدة).

«فأميتوا فيكم كل ما ينتمي إلى هذه الأرض: الزنا، والنجاسة، والشهوة والرغبات الشريرة، والفسق ــ الذي هو عبادة الأوثان. فلتتخلصوا من هذه الأمور كلها. تخلصوا أيضاً من الغَضَب والسَخَط، والإساءَة والذَمّ والألفاظ القبيحة. لا تكذبوا أحدكم على الآخر أيها الأَحِبَّاء حيث أنكم خَلَعتُم ذَاتَكَم العَتيقة باعمالها ولَبِستُم الذاتَ الجديدة التي تَتَجَدَّد على الدوام على صورة خالقها إلى أن تصل إلى معرفة كاملة به.»[٢١]

الذات العتيقة المزيفة (التي لم يخلقها الله وإنما التي صنعها العالم المتمرد البعيد عن الله) ينبغي أن تُمات يومياً. ينبغي أن نُلاحظ أن هذه الذات المزيفة لَيست الطبيعة الجِنسية الذي خَلَقَها الله، وإنما الزنا والنجاسة (أي الاستخدام الشهواني المريض للجنس). وهي ليست الاحتياجات والرغبات الطبيعية المشروعة وإنما الطَمَع الذي يُحَوّل الأشياء إلى آلهة من دون الله. وعندما يتكلم عن الغضب لا يقصد الغضب كشعورٍ وإنما كتعبيرٍ مُنفلتٍ عن الشعور. لذلك فإنَّهُ يستدرك فيقول السَخَط والإساءة والذم والألفاظ القبيحة التي هي الأشكال الخاطئة للتعبير عن الغضب. كما أشرنا من قبل، فإننا لكي نستطيع أن نخلع ونطرح ونُميت كُلَّ هذهِ الأمور، نحتاجُ لتدريبات التوقف (الانقطاع)، مثل التعفف والصمت وغيرها.[٢٢]

نُلاحِظ أيضاً التَدَرُّج والذهاب للأعماق الروحية حتى يُمكن السيطرة على الخطايا السلوكية الخارجية، وهذا هو نفس إسلوب المسيح في الموعظة على الجبل. فالسيطرة على

٢١ رسالة كولوسي ٣: ٥- ١٠ (الترجمة العربية المُبَسَّطَة).

٢٢ دالاس ويلارد، *التدريبات الروحية* ٢١٧- ٢٥١

الإيذاء والقَتل لا تكون إلا بالسيطرة على الغضب. والامتناع عن الزنى يكون صعباً جداً بدون الامتناع عن الشهوة. الإنسان لا يزني ولا يقتل فجأة. يبدأ الأمر دائماً بالطمع الذي هو عبادة وثن هو الذات. هذا الطمع يعبر عن نفسه بطرق عديدة جنسية ومالية وغيرها. قبل أن يسرق الإنسان أو يزني أو يقتل، فإنه يكون قد عاش طويلاً وفق مبدأ السماح لنفسه بالرغبة في كل شيء، كل المال وكل النساء وكل الكرامة.

- لذلك فمن يريد أن يمتنع عن الزنا ويعيش بإخلاص مع شريك/شريكة حياته، عليه أن يهاجم النجاسة (أي التمتع غير المنضبط بالأفكار والخيالات وربما الصور الجنسية) ويمارس التعفف الجنسي لإعادة الرغبة الجنسية لحجمها الطبيعي الذي ضخمته وسائل الإثارة المختلفة.
- ومن يريد أن يفعل ذلك، عليه أن يذهب أعمق أيضاً ويتعامل مع الهوى (أي الانفلات العاطفي والرومانسي مع الرجال والنساء سواء في الفعل أو الخيال). للاسف كثيرون الآن، بسبب وسائل الاتصال المتطورة، يسمحون لأنفسهم بالدردشة مع رجال ونساء غرباء وغريبات من باب التسلية أو ملء الفراغ العاطفي. هذا يفتح الباب للهوى الذي رُبما مع الوقت يؤدي للنجاسة، ثم للزنى.
- ثم من يريد أن يقاوم الهوى يجب أن يمارس الانضباط العاطفي في الكلام والمشاعر والخيال.
- ومن يريد أن يفعل ذلك بنجاح واستمرارية، عليه أن يذهب إلى أعمق الأعماق ويواجه الشهوة ويقاومها بالمحبة لشريك أو شريكة الحياة فلا يخونه/ يخونها، وللرجال والنساء عموماً فلا يتورط معهم ويورطهم فيما يوقف نموهم الروحي.
- وللذهاب إلى أعمق الأعماق ومقاومة كل الخطايا وليس الجنسية فقط على الإنسان أن يهاجم مفهوم الطمع ويدرب نفسه على الرضا والقناعة.

فالطمع يقبع في عُمق أعماق كل الخطايا سواء جنسية أو مالية أو أي شيء، وهو الرغبة في الحصول على كل شيء، أي عبادة الأوثان وهي عبادة الإنسان لنفسه. لذلك فإننا نفعل حسناً إن اقتدينا بأحد شعارات بولس الرسول ومبادئه في الحياة التي تُفسر نموه الروحي وهي: «**فَإِنِّي قَدْ تَعَلَّمْتُ أَنْ أَكُونَ مُكْتَفِيًا بِمَا أَنَا فِيهِ.**» (فيلبي ٤: ١١)

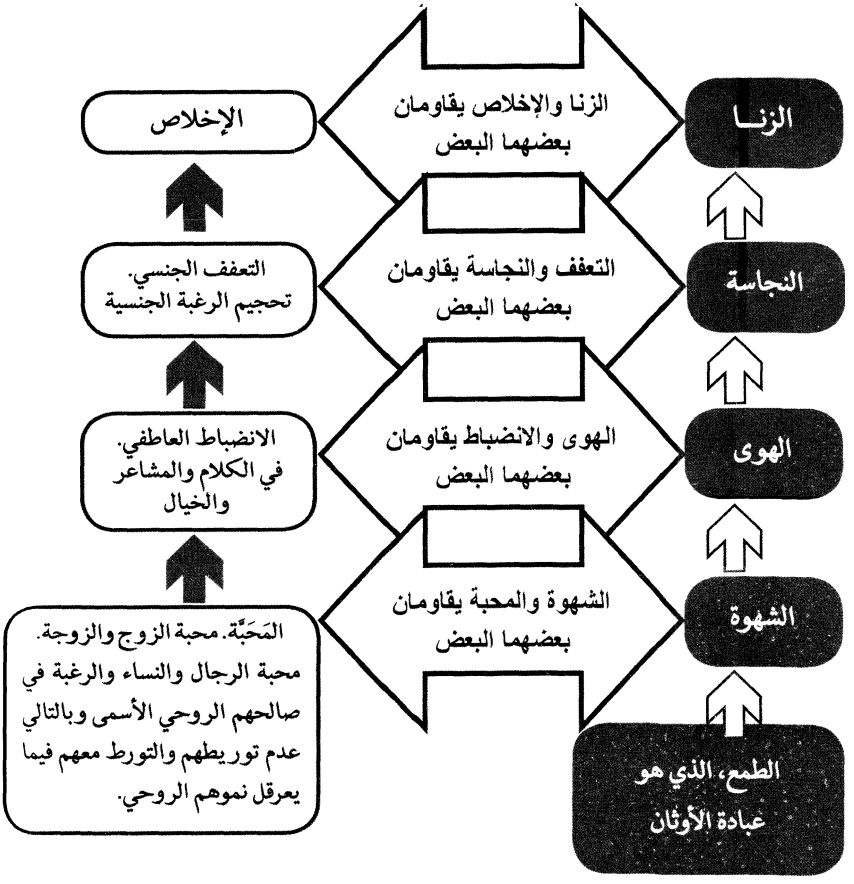

الزراعة للجَسَد — الزراعة للروح تقاوم الزراعة للجسد

ثم بعد أن تكلم عن خلع القديم، يتكلم عن لِبسِ الجديد:

«فالبسوا ثوباً يليقُ بأبناءٍ مختارينَ ومُقَدَّسِين ومحبوبين من الله. ثوبَ الشَفَقة، واللُطف، والتواضع، والوداعة والصبر. واحتملوا أَحَدَكُمَ الآخر، وسامحوا بعضكم بعضاً حين يكون لأحدٍ شكوى على آخر. فكما سامحكم الرب بسخاء، سامحوا أَحَدَكُمَ الآخر. وفوق كل هذا البسوا المحبة التي تجعلكم متماسكين ونامين. ولِيَملُكَ على قلوبِكُم السلامُ الذي يعطيه المسيح، السلام الذي دُعيتم إليه كأعضاء في جسدٍ واحدٍ، واشكروا الله دائماً. لتسكُن فيكم كلمة المسيح بكل غنىً وأنتم تُعَلِّمون وتُرشِدون بعضكم بعضاً بكل حكمة، مُرَنِّمِينَ في قلوبكم ترانيم وأغاني روحية حمداً لله. ومهما فعلتُم أو قُلتُم فليكن باسم الرب يسوع، شاكرين الآب بواسطته.»[٢٣]

إذا كُنا في خَلع وطَرحِ القديم نحتاج إلى التدريبات السلبية (تدريبات التَوَقُّف) كما شرحنا في الفصول السابقة، فإننا في لِبس الجديد نحتاج للتدريبات الإيجابية (تدريبات الانخراط). على سبيل المثال نحتاج أن نمارس الشَركة المسيحية بما فيها من تدريبات مختلفة، مثل التعبير المتبادل عن المشاعر (الأحشاء) بيننا. ولا نستطيع أن نمارس المُسامَحَة والاحتمال، بدون أن نمارس العتاب والمواجهة والاعتراف. ثم يتكلم أيضاً عن العبادة والترنيم والتعليم، وهي تدريبات بها نتَّصل بالله وبالعالم الروحي على مستويات عاطفية وفكرية وروحية مختلفة بحيث تنطبع في وعينا أفكار ملكوت الله.

٢٣ رسالة كولوسي ٣: ١٢- ١٧ (الترجمة العربية المُبَسَّطَة).

اخلعوا والبسوا

يَتَكَرَّرُ ذِكرُ هّذين العَمَلين المتقابلين في أماكن كثيرة من العهد الجديد. ففي رسالة أفسس يقول للمؤمنين أن يخلعوا الإنسان العتيق الفاسد بحسب شهوات الغرور، ويلبسوا الجديد المخلوق بحسب الله في البر وقداسة الحق.[٢٤] وفي رسالة غلاطية يقارن بين من يزرع للجسد ومِنهُ يحصد فساداً، ومن يزرع للروح ومنه يحصد حياة أبدية.[٢٥] وبالمثل أيضاً في رسالة رومية يحث المؤمنين أن يلبسوا شخصية المسيح، وفي نفس الوقت لا يصنعوا تدبيراً للجسد لأجل الشهوات.[٢٦] لهذا السبب كان في الكنيسة منذ بدايتها هاتين المجموعتين من التدريبات الروحية: تدريبات عدم الفعل (الانقطاع) التي بها نُدرب أنفسنا على عدم فعل الأشياء لكي نستطيع أن نتوقف عن العادات المغروسة في الجسد، وتدريبات الفِعل (الانخراط) التي تجعلنا نكتسب طرق التفكير وعادة السلوك وأسلوب العلاقات في ملكوت الله. نخلع العالم والذات العتيقة ونلبس المسيح والخليقة الجديدة. نخلع أسلوب حياة العالم، ونلبَس أسلوب حيات الملكوت.

ختاماً لهذا الجزء من الكتاب:

كان الهدف بالنسبة لبولس هو أن يعرف المسيح أكثر فأكثر، ويُوجَدَ فيه، ويَثبُت فيه، ويَربَحَهُ، بأن يصير أكثر فأكثر شبيهاً به. هذا هو هَدَفُ السعيِ، وهذه هي الجعالة التي يحسَبُ كل شيءٍ آخر دونَها نفايةً بَل وخسارة. هذا هو الهدف الثلاثي لحياة المؤمن: **أن يعرفَ المسيح ويثبت فيه ويصير مثله**. هذا الهدف الثلاثي يتحقق من خلال وسائط ثلاثة

٢٤ رسالة أفسس ٤: ٢٢- ٢٣ (ترجمة فان دايك).

٢٥ رسالة غلاطية ٦: ٨

٢٦ رسالة رومية ١٣: ١٤

أيضاً، هي **قوة القيامة**، التي هي قوة الروح القدس المُعجزية التي تخلق فينا تلك الخليقة الجديدة. أما نحن فعلينا مسئوليةَ أن نقوم بتفعيل هذه القوة الإلهية من خلال **قبول شركة آلام المسيح** حاسبينه كل فرح عندما نقع في تجارب متنوعة عالمين أن هذه الضيقات إذا قبلناها من يد المسيح وكمشاركة منا في نفس الآلام التي قد تَألَّمَ بها عندما عاش في عالمنا، فإنها تساهم في إظهار شخصية المسيح فينا وتفعيل قوة القيامة في شخصياتنا. وليس ذلك فقط، بل نحتاج أيضاً إلى اَلتشَبُّه **بموت المسيح** من خلال الإماتة، والخلع، والطرح المستمر للإنسان العتيق، واللِّبس المستمر لشخصية المسيح وذلك من خلال التدريبات الروحية بشقَّيها؛ تدريبات الامتناع التي تُدرِّبنا (ولو بشكل جزئي)على السيطرة على احتياجاتنا الجسدية والنفسية مما يُكسِبنا قوة للانتصار على الذات العتيقة (جسد الخطية) التي دائماً ما تتخذ من احتياجاتنا الجسدية والنفسية مُبَرَّراً للسيطرة علينا. وتدريبات الممارسة من عبادة ودراسة وتعليم وشركة وخدمة وغيرها، وهي التدريبات التي تساعدنا على تَبَنّي شَخصيةِ المسيح وردود أفعاله.

ونَظَلُّ نَخلَعُ ونَلبِس. نَطرَح ونَأخُذ، نميت ونُحيي، حتى يتصور المسيح فينا ونصير أبناء الملكوت منتظرين الرجاء المبارك وظهور مَجدَ اللهِ العظيم ومجيء المسيح ثانية، الذي سوف يغيّر أيضاً شكل جسد تواضعنا ليكون على صورة جسد مجده بحسب استطاعته أن يُخضِعَ لنفسه كل شيء.

«وقد دَأَبَ الناس في عادة الكلام عن الإيمان القويم بوصفه أمراً ثقيلاً يتميز بالجمود والأمان لدرجة الملل، بينما لا يوجد ما هو أصعب ولا أكثر إثارةٍ من الإيمان القويم. إنه العقل، وأن تكون عاقلاً هو أمرٌ أكثر درامية و إثارة من أن تكون مجنوناً. إنه عقل الاتزان الذي يقود عربة تَجُرُّها أحصنةٌ جامحة لكنَّها مربوطةٌ معاً باتزان لِتَظَلّ العَرَبة مُستَقِرَّة. إنها عربة تعيش خطر الجموح دائماً، لكنها تسير باتزان في طريقها بسرعة. ليس هذا اتزان قضبان السكك الحديدية، بل اتزان قيادة الأحصنة الهاجئة المتمردة.»

من كتاب «الإيمان القويم» (بتصرف)[1]

ج. ك. تشسترتون

«كان عليكم أن تفعلوا هذه الأمور، من دون أن تُهمِلوا غيرها.»

الأصحاح الثالث والعشرين من إنجيل متى

العدد الثالث والعشرون

(الترجمة العربية المُبَسَّطة)

---

١ جي. كاي. تشسترتون، *الإيمان القويم*. ترجمة أوسم وصفي (عَمَّان: أوفير، ٢٠١٤) ص. ١٢٧- ١٢٨

الجزء الثالث

الاتِّـزان

عندما أزور أي كنيسة من الكنائس الناطقة بالعربية في أي مكان من العالم، يأتي الناس من مختلف الأعمار والخلفيات ليفتحوا لي قلوبهم باعتباري الخادم والطبيب النفسي. وأظن أن السبب الأهم من هذين الأمرين هو إنني الزائر الذي سوف يمضي. وبالطبع عادة ما يكون الوقت المُتاح ضئيلاً جداً أمام هذه الأعداد الكبيرة لكي يفتح كل واحد قلبه ويحكي قصته ومشاعره وأفكاره وصراعاته. عندما أسألُهُم السؤال التقليديّ: «هل يوجد في الكنيسة من تستطيع أن تشارك معه هذه الأمور فيما بعد؟» تكون الإجابة دائماً بالنفي، والأسباب إما عدم الثقة بخبرة أو بأمانة أي شخص في الكنيسة، وأحياناً كثيرة ما تكون الإجابة أن هناك مشكلات كبيرة في العلاقات في الكنيسة وصراعات وتنافسات وتحزُّبات. أما في الاجتماعات العامة فالجميع يرفعون عقائرهم بالترنيم والتسبيح. العظات نارِيَّة والصلوات حارّة.

في الواقع بعد سنوات من اختبار هذه الصورة المتكررة في كُل مكان كِدتُ أفقد إيماني التام بالحياة الكنسية، ورُبما بالإيمان المسيحي بجُملَته. فإن كانت هذه الحياة وذلك الإيمان لا يُنتجان مُجتمعاً يشعر الفردُ فيه بقدرٍ كافٍ من الأمان لكي يفتح قلبه، على الأقل أمام دائرة ضيقة من الأصدقاء، فما المنفعة وما القيمة؟ خاصّة وأنا أرى هذا حادِثٌ وَفَعَّال على سبيل المثال في مجتمعات التعافي غير المسيحية التي أصبَحَت تُمارِس التدريبات الروحية المسيحية [٢] التي، للأسف، هَجَرَها المسيحيون وافتَتَنوا بأشياء أخرى من ثقافات أخرى غير مسيحية.[٣]

وإن كان كل هذا الحماس الروحي المنقطع النظير، يقف عاجزاً أمام مشكلات الزواج

٢ الشَرِكة الحميمة والاعتراف المُتبادَل.

٣ في كتابه الثوريّ *المسيحية الوَثَنِيّة* يؤكد فرانك فيولا و جورج بارنا أن الاهتمام المُبالغ فيه بالخَطابة وبأن يقف خطيبٌ واحد ويلقي خُطبة عَصماء أمام الجمع واعتبار ذلك مِحوَر العبادة ، فهذا أمرٌ وَرَثَته الكنيسة من الثقافة الرومانية، وذلك عندما دخلت الامبراطورية الرومانية في المسيحية، بينما كانت الشركة الجماعية هي السمة المُمَيِّزة للعبادة في الكنيسة الأولى (١ كو ١٤: ٢٦- ٣٠)

Frank Viola and George Barna, *Pagan Christianity? Exploring the Roots of our Church Practices* (New York: Tyndale House Publishers, 2002- 2008) p 89.

والعلاقات داخل الأسرة وداخل الكنيسة، فأين هو بُرهان القوة الذي تَكَلَّمَ عَنهُ العهد الجديد؟ كيف يُمكن أن ننقل رسالة المحبة للعالم ونحن أنفسنا لا نتمتع بها بما يكفي؟ فضلاً عن الفشل الذريع في التعامل مع الغضب والجنس والأكل والمال؟

كَم شعرت بالإنصاف عندما قرأت (وتَرجَمت) ما كَتَبه دالاس ويللارد في كتابه التدريبات الروحية عن ذلك اليأس والإحباط الذي يشعر به المتخصصون النفسيون المسيحيون بالذات عندما يواجهون حقيقة الحياة المسيحية فيما وراء الاجتماعات الجمهورية الصادحة وشاشات التلفزيون اللامعة والأحداث الناجحة. يكتب ويلارد:

> «المتخصصون في علم النفس بطبيعة عملهم، مُطالَبون دائماً بمواجهة واقع الشخصية المسيحية بِغَضّ النظر عن العقائد، والِمهَن، والطقوس.فهم يميلون لوضع هذه الأمور جانباً والتعامل بشكل واقعي مع مشكلات الإنسان الحقيقية..... إن عمل المتخصصين في علم النفس، بل مُجَرَّد تَوَاجُدُهم في إطار المؤسسات المسيحية، يجعلهم بِمثابَة من يُعلِنون للمسيحيين المنتمين لكل الطوائف كيف أن كل تَوَجُّهاتِهِم اللاهوتية وكل «إيمانهم وأعمالهم» المسيحية لم تؤدِ بالضرورة إلى تحقيق السلام والصحة للنفس والجسد والذهن، ناهيك عن النمو والنضوج بشكل قوي نحو التشبه بشخصية المسيح في واقع الحياة المعاشة يومياً.[٤]

بصراحة شديدة، لقد أعادَني ويلارد وأنا على باب الخروج من الحياة المسيحية، وذلك عندما لَفَتَ انتباهي بشكل لاهوتي وفلسفي، بل وتاريخي أيضاً أن هناك عُنصُراً أساسياً في الحياة المسيحية قد تم إهماله وهذا هو السبب في الفشل الذي تعاني منه الحياة المسيحية العملية. لقد رَدّدَ ويلارد وجماعته من المُنادين بالعودة للتشكيل الروحي والتدريبات

٤ دالاس ويلارد، *التدريبات الروحية*، ص. ٥٣- ٥٤

الروحية،[٥] ما أعلنه قَبلَهُم ج. ك. شسترتون "G. K. Chesterton" عندما قال أن المسيحية لم تُطَبَّق ووُجِدَت فاشلة، بل هي وُجِدَت صعبةً فلم تُطَبَّق. وأستطيع أن أقول أنَّ «ويللارد» في كِتابَهُ *The Spirit of the Disciplines* الذي تَرجَمْتُهُ إلى العربية بعنوان *التدريبات الروحية* وبالأخص الفصل الثاني منه: *جَعل لاهوت التدريبات عملياً*. هو الذي بدأ معي طريق العودة منذ حوالي عشر سنوات. وبالفعل بدأت في تطبيق ذلك في حياتي العملية وشعرت بالفارق الحقيقي. ومنذ ذلك الحين وأنا أُنادي، وأُحاوِل، وأُنشئ المدارس وأكتب الكُتُب، وأتَكَلَّم في المحافل وبرامج التِلفاز المختلفة لعلّي أَلفت انتباه الكنيسة المُتحدِّثة بالعربية في كُل أنحاء العالم إلى هذه الحقيقة. وفي هذا الكتاب (البؤرة) أحاوِل أن أرفع صوتي بهذه الصَرخة محاولاً شَرح محتواها بكل ما أستطيع من براهين منطقية وكتابية وخبرات عملية حقيقية.

في الجزئين السابقين من الكتاب تكلمت عن الغرض والهدف، وهو كما قال بولس أن «نعرفه ونربحه ونكون فيه»، وتكلمنا عن المسيرة، التي يُمكن أن نُلَخِّصها في هذه العبارة:«أن نختبر قوة قيامته السِرّية من خلال عمل الروح القدس المعجزيّ فينا، ونتدرَّب على استقبال آلام الحياة وضيقاتها بالاشتراك مع المسيح، ونتدرب أيضاً على الإماتة المستمرة لجسد الخطية الميت الكائن فينا من خلال التدريبات الروحية المختلفة وخاصة تدريبات التوقف».

لا أحد يعترض على هذا الكلام، فهو ليس كلاماً جديداً، ولا تعليماً غريباً، مع إنني في مرات ليست قليلة، من فَرطِ ما مارسته الكنيسة من ابتعاد عن هذه البؤرة، كثيراً ما أسمع تعليقاً على هذا التعليم أنه «تعليم جديد». عندما أسمع مثل هذا التعليق سرعان ما أتذكّر

٥ أمثال ريتشارد فوستر وغيرهم ممن شكلوا حركات إحياء مثل حركة *Renovare*

موقف شعب إسرائيل بعد أن عاد من السبي وأعاد اكتشاف أسفار الشريعة القديمة التي كانت دائماً موجودة عندهم لكنها كانت غريبة عنهم لأنهم قد أهملوها لعقود طويلة.[٦]

لقد كانت الكنيسة دائماً ما تَعرِفُ هذا الهدف وتُدرك طريق المسير إليه. لماذا إذاً لم يصل كثيرون، ولماذا يشُدّ الكثيرون الرحال نحو هذا الهدف وينتهي بهم الحال إلى أماكن أخرى؟ في كتابه المُتَحَدّي والمُغَيِّر *المؤامرة الإلهية*[٧] يصدِم دالاس ويلارد الكنيسة المسيحية بهذه الحقيقة، وهي أن الطريق من الإيمان بالمسيح إلى الحياة الرائعة والطائعة في المسيح قد فَقَدَته الكنيسة عبر العصور. ولكي تستعيد الكنيسة هذا الطريق، يقول ويلارد أن الكنيسة ينبغي أن تعود لتتبنى برامج واضحة **وعَمَلِيّة** للتَشَبُّه بالمسيح. ويضيف ويلارد أننا لكي نضع برنامج واضح للتشبه بالمسيح، يجب أن تكون لنا رؤية واضحة للأهداف الأولية التي ينبغي أن نحققها والأهداف التي يجب أن نَتَجَنَّب أن نضعها كأهدافٍ أوَّلِيَّة.

بحسب ويلارد، هناك أربعة أشياء لا ينبغي أن تكون رئيسية وهي: (١) الالتزام الخارجي بحرفية كلام يسوع في المواقف المختلفة. (٢) الإقرار بالعقيدة الصحيحة تماماً (٣) تشجيع الالتزام بأنشطة الكنيسة والممارسات الروحية المختلفة. (٤) السعي خلف خبرات الوعي الخاصة أو النشوات الصوفية الخاصة. بحسب ويلارد، هذه الأمور وإن كانت حقيقية ومشروعة، بل ومطلوبة في مسيرة الحياة المسيحية، إلا أنها لا ينبغي أن تكون هي الأهداف الأولية. وعندما توضع كأهدافٍ أولية، كما هو الحال في أغلب الكنائس والطوائف، فإنها، كما هو الحال، لا تؤد إلى نمو المؤمنين في التشبه بالمسيح بل تؤدي إلى نوعيات من الحياة المسيحية ليست هي الحياة الرائعة والطائعة في المسيح. ربما تؤدي إلى أشخاص يرددون

٦ سفر نحميا: الأصحاح الثامن.

7 Dallas Willard, *The Divine Conspiracy* 320- 326

شعارات لا يعيشونها. أو إلى جماعات تلهث خلف خبرات وعي خاصة أو معجزات فانها لا تُغَيِّرَ سلوكِيّاتِهِم وعلاقاتِهِم. أو خبراء في التعليم واللاهوت، يقتربون من الله بألسنتهم أما قلوبهم فبعيدة تماماً ويعيشون حياة مزدوجة. رُبما تنتج أيضاً خُدَّاماً أو ربما من الأفضل أن نقول «نُشَطاء» مسيحيين يجوبون البر والبحر ليكسبوا نفساً واحدة، ومتى فعلوا، فإنهم يجعلونها مثلهم تماماً ــ نفساً مُدمِنة إما للطقوس أو للخدمة والنشاط، أو رُبما للمشاعر والتعزيات الوقتية. أمَّا من يَمَلّون من هذه الإدمانات بعد حين، فإنهم يُصابون باليأس الروحي ويتركون الحياة الكَنَسِيَّة أو رُبما الإيمان المسيحي بجُملَتَهُ.

كل هذه الأشياء: الإخلاص للانشطة الكنسية والممارسات الروحية، والسعي خلف الخبرات الروحية الخاصة والعقائد الصحيحة والتوافق الخارجي مع تعليم يسوع، كلها أمور سوف تأتي تلقائياً عندما يتغير الكيان الداخلي. أما إذا وضعناها في البداية، فإننا نكون مثل الذي وضع العربة أمام الحصان وطلب منها أن تقوم هي بجَرّ الحصان وليس العكس. ما هو «الحُصان» إذاً؟ ما هي الأهداف التي ينبغي وضعها في المقدمة باعتبارها الأهداف الرئيسة؟ يقول ويلارد أن **الهدف الرئيسي الأول: أن نصل بتلميذ المسيح للنقطة التي فيها يعشق هذا الآب السماوي** الذي جَعَلَ من نَفسِهِ حَقيقةً مَلموسةً للبشر في يسوع المسيح، ويدرك ويفرح ويتأكد أن محبة الله ليس لها أي حد أو شرط ويثق في نوايا الله الطيبة وقدرته على تحقيق هذه النوايا الطيبة. أما **الهدف الرئيسي الثاني: هو تحرير التلميذ من العبودية للطرق القديمة في التفكير والشعور والسلوك** التي اكتسبها طوال عمره (وما ورثه من الأجيال السابقة) من الحياة خارج ملكوت الله. هذه الطُرُق القديمة هي التي تشكل معاً ما يمكن أن نسميه: «ناموس الخطية الساكن في أعضائي»[٨]. هذا هو

٨ رسالة رومية ٧: ٢٣

الجُزء الصعب والضروري في عملية التلمذة. هذا هو «التَمَخُّض» الذي كتب بولس أنه يتمخّضه بتلاميذه حتى يتصوَّر المسيح فيهم.[٩]

لتحقيق ذلك لا يكفي تعليم الحقائق عن الله وعن أهدافه للجنس البشري. وهذا هو الخطأ الذي تَرتَكِبُهُ كل كليات اللاهوت وكل برامج التلمذة الكَنَسِيَّة. إنها برامج «تعليم» وليست «تدريب». تجديد الذهن الذي يتكلم عنه العهد الجديد ليس فقط تقديم معلومات جديدة، و إنما تغيير طريقة التفكير القديمة، بل و إماتتها تماماً. لذلك يعتبره موتاً.[١٠] إننا نحتاج للتعليم بالطبع، لكن احتياجنا للتدريب أكبر وذلك لأن القليل من كياننا يخضع لعقلنا الواعي. عقلنا الواعي بمفرده كيان ضعيف جداً لا يستطيع بمجرد تعليمه أن يُسيطر على الجسد. هل تستطيع أن تُعلِّم إنساناً ما كُرة القدم مثلاً من خلال المحاضرات فيُصبح جهازه العصبي قادراً على جعل الجَسَد يمارس كرة القدم بمهارة؟ بالطبع لا. نحن كائنات متجسدة ونحن نعيش من أجسادنا ولكي نتغير يجب أن يتغير الجسد. والجسد لن يتغير بالتكلم إليه و إنما بتدريبه. الجسد الذي نتكلم عنه ليس فقط اللحم والعظام، و إنما كل ما هو تلقائي وغير خاضع للتفكير المقصود. وقد سَمّى العهد الجديد ردود الأفعال التلقائية هذه «الجَسَد» أو «جَسَدِ الخَطية» لأنها برامج تُسيطر تماماً على أجسامنا، وتجعلنا نتصرف بصورة تلقائية حتى و إن كانت عقولنا لا تـريد ذلك، فيبدو أن الجسد هو الذي يتحَرّك من نفسه. التدريب الذي يؤدي إلى أن نفعل ما يقوله يسوع يجب أن يشتمل، أولاً على تفكيك أفكارنا التلقائية ومعتقداتنا المحورية التي تسيطر على مشاعرنا وردود افعالنا السلوكية وعلاقاتنا. كُل هذا ينبغي أن يتم من خلال تدريبات عملية مقصودة بها نقدم الجسد وأدواته أمام الله بطريقة تجعل كياننا كله ينتقل من مملكة العالم القديمة، فينا وحولنا، إلى ملكوت ابن محبته.

٩ رسالة غلاطية ٤: ١٩

١٠ رسالة رومية ١٢: ١-٢

ما أريد أن أقوله هُنا هو أننا دائماً نفعل الخطوة الأولى ونفشل في أن نتحرك منها للثانية. لقد تخصصنا في الأولى واعتبرنا أنها كل البرنامج. هذا هو السبب الذي يجعلنا نقوم بتقييم الأحداث والاجتماعات والمؤتمرات والبرامج المختلفة باستخدام أسئلة مثل: كَم كان عدد الحضور؟ هل كان الناس سعداء؟ هل كانوا مُتَحَمِّسين؟ هل هَتَفوا من كل القلب؟ هل صنعوا قرارات واتخذوا نوايا؟ هل كتبوا بطاقات متابعة؟ هذه بالطبع أسئلة مُهمة لكنها مُجرد البداية ويالبؤسنا إن كانت البداية هي كُل ما نستطيع أن نفعل! وللأسف تظل حياتنا الأخلاقية كما هي لأننا لم نكتَسِب بعد عادات الصلاح. التلمذة ليست انبهارًا بالمسيح، وليست مجرد مَحبة المسيح والعلاقة معه. ولا هي فقط التعليم الصحيح عن المسيح. وإنما هي اكتساب عادات المسيح. أي عادات الحياة في الملكوت. لم يوصِ المسيح تلاميذه أن يذهبوا ليقيموا تجمعات ويصنعوا روابط مثل روابط «الألتراس»[١١] ولكن أن يصنعوا «تلاميذ». راوابط «الألتراس» أكثر الناس حماسةً لكرة القدم، لكنهم لا يلعبون كرة القدم. الألتراس متحمسون جداً، يسافرون وراء فريقهم ورُبما يموتون من أجله، لكنهم لا يلعبون كرة قدم. المسيح دعانا لنصنع «لاعبي كرة قدم» أي أشخاص يعيشون الحياة المسيحية فعلاً لا يشجعونها بالروح والدم. أنا متأكد أن آلافاً يريدون أن «يلعبوا كرة القدم» ونحن نريد أن نعلمهم. لكن للأسف ليس عندنا إلا ما يجعلهم «ألتراس». ليس عندنا إلا أعلام وآلات موسيقية ولافتات ملونة وأتوبيسات تنقلهم إلى الاستاد. وبكل أمانة نستخدم هذه الأشياء لنجعلهم لاعبي كرة قدم. فلا يكونوا لاعبين. للأسف الشديد الكثيرون منهم يتركون كرة القدم تماماً لأنهم بعد أن تمر السنون ويصلوا للثلاثين مثلاً وبعدها يكونوا قد كبروا على أن يكونوا «ألتراس» ولم يلعبوا كرة قدم، فيذهبوا «لِيَتَصَيَّدوا»[١٢] في العالم. قِلّه

١١ روابط الألتراس Ultras أو (الأولترا) هي روابط خاصة من مشجعي كرة القدم شديديّ الحماس. هي الجمع للكلمة الإنجليزية Ultra وتعني حرفياً الفائق أو الأكثر من المعتاد.

١٢ إنجيل يوحنا ٢١: ٣

منهم يصبحون قادة روابط الألتراس ويتحركون لصنع المزيد من «الألتراس»، وبطون النساء تعطينا مع كل سنة «ألتراس» جُدُد. بالطبع وجود روح الألتراس جميلة وهي روح تسري في الجميع، لكنها سوف لا تؤدي إلا لمزيد من الألتراس. فمتى سنصنع «مدرسة الكُرة»؟ سنصنعها بمعونة الرب.

إن ما اختبرته واختبره كثيرون من المشيرين المسيحيين أننا لكي نضع مثل برنامجاً ناجحاً يُحقق هذه الأهداف نحتاج للتكامل بين ثلاث أنظمة ضرورية هي: **اللاهوت المسيحي الكتابي وعلم النفس المسيحي وتدريبات التشكيل الروحي.**

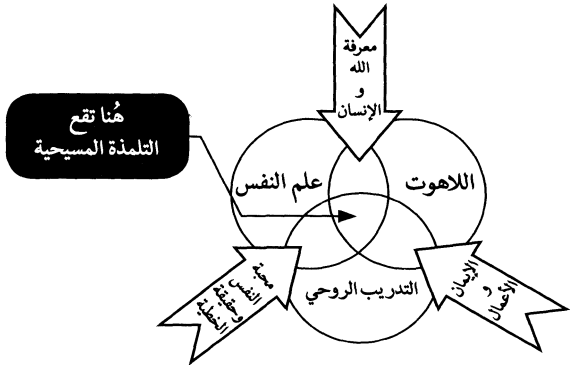

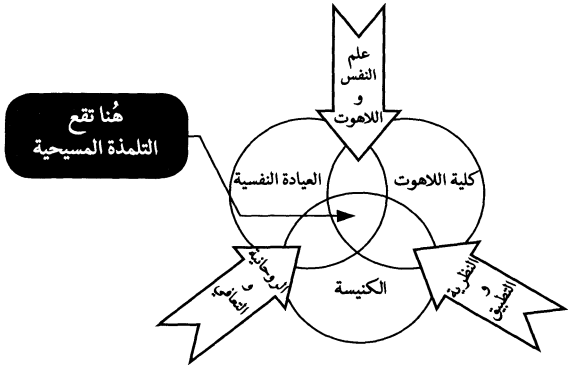

لقد عِشتُ أغلب سنوات عمري الراشد حتى الآن (وأعتذر إذ أتحدث عن نفسي) أعمل، وأخدم، وأقرأ، وأكتب، وأدرُس، وأُدَرِّس في منطقة الحدود بين هذه الأنظمة الثلاثة. وهذا جعلني أيضاً على منطقة الحدود بين ثلاث مجالات أعيش فيها وهي: الكنيسة، وكلية اللاهوت، وعيادتي النفسية ــ حياة الكنيسة وخدمتها، وحياة الدراسة والتَعَلُّم والتعليم اللاهوتي، وحياة مساعدة البشر في واقع كيانهم الداخلي. وأظن أن هذه ينبغي أن تكون مجالات حياة التلمذة المسيحية: بين الدراسة الكتابية واللاهوتية، والحياة الكنيسة التي ينبغي أن تكون مكاناً للتدريب الروحي، وجلسات المشورة النفسية ومجتمعات التعافي الوجداني والسلوكي التي هي أيضاً تدريبات أيضاً روحية (بمعنى أن تؤدي لنمو الإنسان روحياً)، لكنها تميل إلى الجانب الفكري والوجداني، بينما تميل التدريبات الروحية التقليدية إلى جانب الإرادة والجسد.

في هذا الجزء الثالث والأخير من الكتاب، سوف أتأمل هذه الأنظمة الثلاثة ــ ما هي؟ وما هي أهميتها؟ وما هي خطورة غياب كل واحد منها؟ وما هي الصراعات السطحية التي تنشأ بينها؟ والتي بسببها قد تم الفشل عبر العصور في جمعها معاً. وكيف يُمكِن، بل وينبغي حل هذه الصراعات؟ مثلما ينبغي حل الصراع بين البرامج المختلفة عندما يتم تحميلها على حاسوب واحد. وباستخدام لغة تشسترتون، كيف يُمكن قيادة هذه العَربة التي تَجُرّها تلك «الأحصنة الجامحة» الثلاثة المربوطة معاً.

في الفصل السادس سوف أتناول العلاقة بين اللاهوت المسيحي الكتابي وعلم النفس. في هذا الفصل سوف أحاول الإجابة عن هذه الأسئلة: ما هو اللاهوت وأهميته؟ ما هو علم النفس المسيحي؟ وما هو دوره بالنسبة للاهوت؟ ما هي خطورة اللاهوت بدون علم النفس؟ وماهي خطورة علم النفس بدون لاهوت؟ سوف أتناول أيضاً الصراع التاريخي

(والوهمي في نفس الوقت) بين اللاهوت الكتابي وعلم النفس. أو بين معرفة الله والنفس.

في الفصل السابع، سوف أتناول العلاقة بين اللاهوت المسيحي الكتابي والتدريبات الروحية. في هذا الفصل سوف أحاول الإجابة عن هذه الأسئلة: ما هي التدريبات الروحية؟ وما هي أهميتها؟ وما هي خطورة اللاهوت بدون تدريبات؟ والتدريبات بدون لاهوت؟ أيضاً سوف أقترب من الصراع التاريخي (والوهمي أيضاً) بين لاهوت الخلاص بالنعمة والتدريبات الروحية (الجهاد المسيحي).

أما في الفصل الثامن والأخير فسوف أتناول العلاقة بين علم النفس والتدريبات الروحية. لماذا يرفض علم النفس التدريبات الروحية؟ وما هو الفراغ الذي عجز علم النفس العلماني (أو حتى المسيحي) عن ملئه وتقوم التدريبات الروحية بملئه؟ وبالتالي سوف أجيب عن سؤال عن خطورة علم النفس بدون التدريبات؟ والتدريبات بدون علم نفس؟

الفصل السادس

معرفة الله والنفس

اللاهوت الكتابي وعِلم النفس

> بدون الفهم اللاهوتي، يمكن أن نقع في براثن التفسير الحرفي ونضل الطريق في هذا الكتاب، بل ويُمكننا أن نعبد الكتاب نفسه من دون الله.

كلمة «اللاهوت» لا تشير بالضرورة إلى «عِلم» اللاهوت أو دراسة اللاهوت الأكاديمية، وإنما ببساطة أن يكون للإنسان فهمٌ لما يُمكن أن نُسَمِّيه: فكر الكتاب المقدس وما هي الموضوعات الروحية المُجَرَّدة التي يُقدمِّها الكتاب المقدس من خلال أسفاره المختلفة. بدون هذا الفهم، يمكن أن نقع في براثن التفسير الحَرفي ونضل الطريق في هذا الكتاب، بل ويُمكننا أن نعبدُهُ نَفسَهُ من دون الله. وهذه تَجرِبَة موجودة دائماً، ولم يقع فيها فقط الكتبة والفريسيون من اليهود،[١٣] وإنما يقع فيها المسيحيون أيضاً في كل العصور. اللاهوت إذاً هو رَحيقُ زُهور الكتاب المقدس، وهو العُصارة التي تسري في شجرة أسفاره المختلفة التي قد كُتِبَت في عصور مختلفة وبأقلام مختلفة وبأساليب أدبية متبايِنَة؛ من الشعر، للقصة التاريخية، للقصة الرمزية، للتعليم الفلسفي، وغيرها.

اللاهوت كتفسير للرموز والنصوص

الإنجيل يمثل خِبرة تاريخية وروحية «مُدمَجة» compact مقدمة لنا في صورة هذا الخبر،

---

١٣ إنجيل يوحنا ٥: ٣٩

وهو أن المسيح ولد وتألم وصلب ومات وقام وصعد إلى السموات، وسيأتي في مجده ليدين الأحياء والأموات. أما اللاهوت فهو عملية تفسير و«فَك» لهذه الخِبرة المُدمَجَة واستيعابها والاستفادة منها في الإطار المُعاصر. إن اللاهوت هو بمثابة من يفتح حقيبة ملابس ويخرج منها العديد من الملابس ليلبسها في مناسباتٍ متعددة وعصورٍ مُختلفة. لذلك ينبغي على اللاهوت أن يضع في اعتباره *الهُوَّة التفسيرية The Hermeneutical Gap* بين النصوص القديمة والفهم العَصري لها. هذه الهوة نشأت لأن النصوص كُتِبَت في عصور قديمة بلُغة وأساليب قديمة ولمُتَلَقِّين قُدماء وفي ظروف اجتماعية وثقافية مختلفة عما نحن فيه الآن. هذه الهُوّة ينبغي تجسيرُها (أي بناء جسرٍ عليها). هذا الجسر نعبُر عليه إلى عالم النص تاريخياً وجغرافياً وثقافياً لنحاول أن نُدرِك كيف استقبل القُرَّاء الأوائل هذا النص وماذا كانت وظيفته بالنسبة لهم وكيف كان يخاطِبُهُم في ظرفهم التاريخي. ثم نعود من عالم النص حامِلين تلك المفاهيم الروحية المُجَرّدة لكي نُطَبِّقها على ظَرفِنا التاريخي الحاليّ. هذا هو المجهود التفسيري للّاهوت والذي ينبغي على كُل عصر وكل ثقافة أن تقوم به لكي تحصُل على نفس الرسالة الروحية الأبدية التي يقصد الله أن ينقلها إلى كل عصر.

لِلّاهوت وظيفتان. أولاً **الوظيفة التفسيرية** التي من خلالها يحاول أن يشرح مَعنى الإيمان المسيحي بطريقةٍ أمينةٍ للرموز الأولية الموجودة في الكتاب المقدس،[١٤] كالخلق والسقوط والفداء والتجسد والصليب والقيامة وحلول الروح القدس والكنيسة والمجيء الثاني وغيرها. أما الوظيفة الثانية فهي **الوظيفة البنائية**، بمعنى أنه ينبغي أن يساعدنا لبناء رؤية مسيحية لواقعنا. يجب أن يُشكِّل اللاهوت المسيحي رؤيتنا للفنّ وللعلم وللعمل

١٤ كلمة «رَمز» هنا لا تعني أنه ليس أمراً حقيقياً أو تاريخياً. فكلمة «رَمز» يُمكن أن تُطلق على شخص حقيقي من لحم ودم، كما نقول مثلاً أن فلان «رَمز» من رموز الحركة الوطنية. الرمز هو شخصية أو فكرة أو حدث تاريخي به تكثيف شديد للمعاني يُمكنه أن يُشع هذه المعاني في سياقات تاريخية مختلفة. بهذا المفهوم التَجَسُّد رمز، الصليب رمز، القيامة رمز، الخ.

السياسي والحقوقي، بالطبع دون إقحام نفسه في هذه المجالات بطريقة لا تتناسب مع دوره الروحي. وللقيام بهذا الدور على اللاهوتيّ أن يشترك مع معاصريه الذين يعيشون في نفس الإطار الزمني، ومنهم الفلاسفة والسياسيين وعلماء النفس والاجتماع والناشطين في حقوق الإنسان والفنانين وغيرهم. يُسَمِّي البعض هذا البناء «التطبيق» لَكِنَّهُ أكثر من مُجرد تطبيق ففيه بناء، وتحوُّل واستلهام.[١٥]

في كتابه الهام: *الله ــ مستقبل هذا العالم*، يقدم تيد بيترز Ted Peters سبعة مبادئ هامة لشرح وتفسير الرموز الكتابية لاهوتياً،[١٦] من أهمها مبدأ **الكفاية التفسيرية Explanatory adequacy** مبدأ الكفاية التفسيرية هو المقياس لنجاح اللاهوت في ساحة التنافس بين الرؤى المختلفة للعالم، سواء كانت علمانية أم دينية. ينبغي دائماً أن نتساءل: هل تقدم الرؤية المسيحية منظوراً أكثر تكاملاً وشمولية وتلقي ضوءًا أفضل من الرؤى الأخرى، على خبرة الإنسان بنفسه وبالعالم وبالله؟

ينبغي دائماً أن نتساءل: هل تقدم الرؤية المسيحية منظوراً أكثر تكاملاً وشمولية وتلقي ضوءاً أفضل من الرؤى الأخرى، على خبرة الإنسان بنفسه وبالعالم وبالله؟

كيف يمكننا إذاً أن نحكم على أي نَسَقٍ لاهوتيّ إن كان كافياً أم لا؟ أظن (والكلام لبيترز) أن النَسَق اللاهوتي يصبح له معنى إذا توافرت فيه أربعة سمات وهي: ١) قابلية التطبيق٢) الشمولية ٣) المنطقية ٤) الاتِّساق.

من حيث **قابلية التطبيق**، فالمقصود هو وجود أمثلة من الخبرة الإنسانية المعاصرة فيها

15 Ted Peters, *God- The World's Future. Systematic Theology for a New Era*, (Minneapolis: Fortress Press, 2000) p 34.

16 Ibid, 72- 78.

ينطبق هذا اللاهوت على الواقع ويؤثر فيه. على سبيل المثال، هل يقود هذا اللاهوت برامج تُحسن بالفعل من وضع الإنسان الروحيّ والنفسيّ والمادِيّ والاجتماعيّ؟ هل يجعل الإنسان أكثر تكاملاً وصِحَّة؟ هل يجعل الأُسَر أكثر ملائمة؟ هل يجعل المجتمع أفضل اقتصادياً؟ وأخلاقياً؟ هل يجعل في المجتمع فرصة أكثر للضعفاء ويخلّصه من الظلم والعزل والوصم؟ كيف يؤثر اللاهوت في تعامل المجتمع الذي يتبنى هذا اللاهوت، مع قضايا التَمييز المبنية على الجنس أو اللون أو الدين أو النوع (ذكر/أنثى)؟ كيف يؤثر اللاهوت في تعامل المجتمع الذي يتبناه، مع قضايا حقوق الطفل والمرأة؟ كيف يؤثر اللاهوت في تعامل المجتمع الذي يتبناه، مع قضايا العدالة الاجتماعية والحرية والفرص المتساوية أمام الجميع؟ كيف يؤثر اللاهوت في تعامل المجتمع الذي يتبناه، مع الأمراض المجتمعية التي لها أبعاد روحية ونفسية وسياسية وحقوقية؟ كيف يتبنى موقفاً مُتَّزِناً من القضايا الجَدَلية مثل قضايا الحرب والسلام، الجنسية المثلية، الزواج والطلاق وغيرها. وفي حالتنا العربية التي فيها لا يَتَبَنَّى المجتمع اللاهوت المسيحي، يمكننا أن نتساءل: كيف يتحدَّى المسيحيون المجتمع بهذه المبادئ إذ يعيشونها أمامه أولاً وينادون بها في مسامعه ثانياً.

أما من حيث **الشمولية** فأقصد (وهنا الكلام لتيد بيترز) قَدرَة هذا النَسَق اللاهوتي على تفسير كل جوانب الواقع الإنساني. بالطبع، نظراً لمحدودية المُفَكِّر اللاهوتي الذي يستخدم هذا النسق، لن يُمكِن في كل وقت من الأوقات استلهام كُل المعاني الكامنة في الرمز الكتابي، أو تفسير كل جوانب الواقع. ولكن النَسَق اللاهوتي الكافي هو ذلك النسق المَرِن القادر على توليد تفسيرات جديدة في كل عصر تبعاً لتَنَوُّع وتَخَلُّق العديد من الخبرات الإنسانية، وتنامي قدرة الإنسان على التعامل مع واقعه. على سبيل المثال، هل يستطيع هذا النَسَق اللاهوتي أن يجيب عن الأسئلة المُعاصِرة مثل الزواج والطلاق،

أو التَبَنّي، أو التلقيح الصناعي أو بنك الحيوانات المنوية، أو استخدام الخلايا الجِزعية لعلاج الأمراض المُستعصية، أو قضية الموت الرحيم للمَرضى الميئوس من شفائهم، وغيرها من القضايا الاجتماعية والعِلمَية التي تَتَوَلَّد كُلَّما زَادت قدرة الإنسان على التعامل مع واقعه. وبكلمات أخرى، هل يستطيع اللاهوت مثلاً أن يستلهم المبادئ اللاهوتية التي يحتوي عليها الكتاب المقدس، والتي ظهرت في تعامل الكنيسة الأولى مع قضاياها المُعاصرة مثل الختان، وحفظ الناموس بالنسبة للمؤمنين الجُدُد من خلفية يونانية، وأكل ما ذُبح للأوثان وغيرها، لاستخراج مبادئ لاهوتية يمكن تطبيقها على قضايانا المُعاصرة والمختلفة تماماً عن القضايا التي عاصَرَت تاريخ كتابة العهد الجديد.

إن الصفة التعددية للإطار الحضاري البعد حداثي الذي نعيش فيه تشكل تحدياً كبيراً للاهوت النظامي حيث أنه هناك أنظمة عديدة تحاول أن تفسر خبرة الإنسان مع الواقع، وكلها تدّعي أنها تقدم التفسير الأكثر كفاية.[١٧]

١٧ يجب أن نعترف أن الكتاب المقدس له دائماً بعدين: البعد الإنساني الاجتماعي المباشر، الذي يخاطب به المستمعين الأولين، والبعد الروحي الأبدي الذي يخاطب به البشر في كل العصور من خلال الرموز القابلة للترجمة والتفسير اللاهوتي في كل عصر وخلفية ثقافية. ومن صور كفاية النسق اللاهوتي المسيحي أن هذين البُعدين وإن اختلفا ظاهرياً باختلاف العصور، لا يتناقضان جوهرياً. على سبيل المثال، لم يهاجم العهد الجديد العبودية صراحةً، بل أوصى العبيد أن يطيعوا سادتهم. ذلك لأن الظرف الاجتماعي والاقتصادي في ذلك الوقت لم يحتمل مهاجمة الرق بشكلٍ واضح وصريح وإلا ينهار النَسَق الاجتماعي والاقتصادي كله. ولكنه فتح الباب لحرية العبيد من خلال مبدأين في غاية القوة نستطيع أن نقول أن الروح القدس قد «خَبَّأهما» في العهد الجديد كقنبلتين موقوتتين ريثما يأتي وقت انفجارهما. المبدأ الأول نجده في هذه الفقرة: «لَقَدِ اشْتُرِيتُمْ بِثَمَنٍ، فَلاَ تَصِيرُوا عَبِيدًا لِلنَّاسِ.» و«لَيْسَ يَهُودِيٌّ وَلاَ يُونَانِيٌّ. لَيْسَ عَبْدٌ وَلاَ حُرٌّ. لَيْسَ ذَكَرٌ وَأُنْثَى، لأَنَّكُمْ جَمِيعًا وَاحِدٌ فِي الْمَسِيحِ يَسُوعَ.» إن كان هناك عبدٌ وحرٌ عند الناس، فلا عبدٌ وحر عند المسيح. ثم المبدأ الثاني هو أنه قد أوصانا أن نصلّي ونعمل لكي يأتي ملكوته على الأرض، ولكي تكون مشيئته كما في السماء (عند الرب) كذلك على الأرض (عند الناس). وبالفعل جاء عصر الاستنارة وجاءت الثورة الصناعية التي جَعَلَت من المُمكن تَغيير التركيبة الاجتماعية والاقتصادية، فهَبّ رجال مسيحيون أتقياء مثل وليم ويلبرفورس William Wilberforce وقادوا حركة تحرير العبيد. وبالمثل، في إطارالعلاقة بين الرجل والمرأة، لم يكن ممكناً المناداة بالمساواة الكاملة، بل كان يجب وجود وصايا مثل: «أَمَّا رَأْسُ الْمَرْأَةِ فَهُوَ الرَّجُلُ» لأن النظام الاجتماعي اليهودي والأممي اليوناني لم يكن ليستوعب بعد مبدأ المساواة الكاملة. ولكن الوحي وَضَع أيضاً قنابل موقوتة في الكتاب المقدس مثل

إذاً اللاهوت ليس مجرد التفسير، ولكنه التفسير في سياق الظرف الواقعي المُعاصِر. أي أَنَّـهُ جَعلُ الرموز الكتابية بما فيها من معاني روحية أبدية، تتعامل مع الواقع في كل عصر وتَعمَل وتُغَيِّر فيه للعمل على تحقيق «ملكوت الله» في ذلك العَصر. الهدف من اللّاهوت ليس فقط فهم النَصّ الكتابي ولكن أيضاً فهم الواقع باستخدام مصباح كلمة الله.

اللاهوت ليس هو مجرد التفسير، ولكنه التفسير في سياق الظرف الواقعي المعاصر. أي أنه جعل الرموز الكتابية بما فيها من معاني روحية أبدية، تتعامل مع الواقع في كل عصر وتعمل فيه وتغير فيه.

اللاهوت يؤمن أن كلمة الله و إن كانت مخبأة في نصوص عتيقة إلا أنها تحمل نورا يجعلنا نرى الواقع الذي نعيش فيه الآن بصورة أفضل. اللّاهوت هو الذي يُخرِج هذا المصباح من غلافه التاريخي لكي يجعله ينير في كل عصر. وبسبب المحدودية والتوتر والجدلية والارتباط بالسياق والمنظور وكل ما يميز المعرفة الإنسانية، فإن اللاهوت ليس مطلقاً ودائماً في حالةِ تطورٍ ونمو. لايمكن أن نعتبر أن اللاهوت نهائي أو جامد، فاللاهوت كائنٌ حَيّ. لذلك على اللاهوتيين دائماً الرجوع للبدايات واستخراج النور من الرموز لإضاءة الواقع ورؤية الجديد. لذلك فإن المسيح يقول عن كل كاتبٍ متعلمٍ في ملكوت السموات أنه كَرَبِّ بيتٍ يُخرِجُ من كَنزِهِ دائماً جُدَداً وعُتَقاء.[١٨]

هذا كُلُّه ينبغي أن يُقدِمُهُ اللاهوت، أما الدين فلا يعبأ بكل هذا. الدين هو ممارسات

عبارة «مُعِينًا نَظِيرَهُ» و «لَحمٌ من لحمي وعظمٌ من عظامي» في سفر التكوين في العهد القديم. وفي العهد الجديد أيضاً وفي نفس الموضع الذي فيه يقول أنه في المسيح ليس عبد أو حُر، يقول أيضاً أنه ليس ذكر وأنثى. وفي نفس الأصحاح الخامس من رسالة أفسس التي تتكلم عن خضوع النساء للرجال، يقول أيضاً: «خَاضِعِينَ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ فِي خَوْفِ اللهِ». هكذا كانت هذه الفقرات رابضة في العهد الجديد منتظرة إمكانية ظهور المجهود اللاهوتي والسياسي والاجتماعي لكي تتحول إلى واقع مُعاش.

١٨ إنجيل متى ١٣: ٥٢

طقسية، ومشاعر وقتية، وتفسيرات حَرفية، غالباً ما تكون سَلَفِيّة[١٩] أي تفسيرات السَلف في العصور القديمة والتي أكسبها القِدَم قداسة مابحيث لا يجرؤ أحد أن يُناقشها ولا أن يسمح لنفسه أن يَستلهِم الرموز الدينية بطُرُقٍ أخرى مُكَمِّلة ومسايقة للعصر، وذلك باعتبار أن الرمز ينبغي أن يكون قادراً أن يشع أضواء مختلفة في عصور مختلفة لمواجهة تحديات هذه العصور. على سبيل المثال رمز «الصليب والقيامة» لا يُشعّ فقط مفهوم الكفارة، بل يُشع مفاهيم كثيرة؛ فلسفية، ونفسية، واجتماعية وسياسية أيضاً. في الصليب قِمّة المحبة والخروج من النفس. في الصليب اشتراك الله معنا ليس فقط في اللحم والدم، ولكن أيضاً في الخزي والعار والفشل الاقتصادي والاجتماعي. في الصليب والقيامة انتصر الله للفقراء وللنساء (حيث اختص المسيح النساء بخبر القيامة[٢٠]) وغير ذلك الكثير.

وأستطيع أن أقول إن تنامي الإلحاد في مجتمعاتنا هو بمثابة نداء يشير إلى أننا نحتاج لأن نقدم لهذا المجتمع «لاهوتاً» ولانكتفي فقط بالحماسة الدينية وبكَون شعوبنا «مُتَدَيِّنة بطبعها» لاتُناقش ولاتُجادل، خاصة و إن هذا يتناقص تدريجياً خاصةً بين الشباب الذين بسبب التَعَرُّض المعرفي المتنامي يتركون بأعدادٍ متزايدة مرحلة السذاجة الفكرية والطفولة الفلسفية. إن من يهتم باللاهوت وتجديد الخطاب (والفكر) الديني هو من يهتم بالمستقبل، فالمستقبل نقديٌّ بكل المقاييس.

علم النفس المسيحي وأهميته بالنسبة للاهوت

إن علم النفس هو واحدٌ من ضمن الأَنساق الفكرية التي تتحدى اللّاهوت ليس بالضرورة

١٩ يستخدم المسلمون هذا اللفظ حرفياً، أم المسيحيين فلا يستخدمونه حرفياً و إن كان الفكر «السَلَفي» يُشكِّل تَحَدّياً مسيحياً أيضاً. فهل يجرؤ مسيحي أرثوذكسيّ أن يختلف مع أحد من آباء القرون الأولى مثل إير ينايوس أو مار إسحق السرياني أو كيرلس الكبير؟ وهل يجرؤ إنجيلي مشيخي أن يناقش لاهوت كالفن مثلاً؟

٢٠ إنجيل لوقا ٢٤: ٢٢

لتَهدِمَهُ، بل على العكس، لكي تُحَفِّزه أن يُخرج ما في الرموز الروحية الأبدية من معانٍ إنسانية أعمق لم يَستطع الأقدمون استخراجها. وعلم النفس كما أقصد أن أشير إليه هنا هو ببساطة شديدة وكما تشير الكلمة، أن يعرف الإنسان نفسه ويُدرك ما يَحدُث بداخِلِهِ من أفكار ومشاعر تؤدي إلى سلوكيات وعلاقات. هذا هو البرنامج الذي يُحرِّك الإنسان على مدار الساعة: أفكاره وتفسيراته للأحداث والمواقف تثير بداخله مشاعر. هذه المشاعر تُحَرِّكه للسلوك والعلاقات. عِلمُ النفس الحديث، وخاصة علم النفس المَعرِفيّ السلوكي الذي أصبح أكثر فروع علم النفس تطبيقاً ونجاحاً منذ نحو الثُلث الأخير من القرن العشرين يقول أن الإنسان إذا استطاع أن يتحكم في تفكيره، فإنه يستطيعُ إدارة مشاعره وسلوكياته وعلاقاته.

من المثير للاهتمام أن كلمة «تَوبة» في العهد الجديد هي الكلمة اليونانية التي يُمكن أن نكتبها بالحروف الإنجليزية هكذا Meta-noia وهي الكلمة اليونانية التي تأتي منها الكلمة القبطية التي لا يزال الأقباط الأرثوذكس العَرَب يستخدمونها بعد تحويرها العربي إلى كلمة «مَطانية». هذه الكلمة إذا حَلَّلناها سنجد أنها تتركب من جزئين: الجزء الأولMeta ويعني «فوق». مثلما تأتي في «الفوق-طبيعيات Metaphysics»، وكلمة Noia بمعنى عقل. كما تأتي في Para-noia أي الشَكّ (أو حرفياً: العقل الموازي، حيث كلمة Para تعني «موازٍ»، وهي تعني أن يكون للإنسان عقلاً آخر يُفسر الأمور تفسيراً آخر غير التفسير المُباشر الذي يُفسره الشخص العادي، وهذا هو الشك).

أما كلمة Metanoia بهذه الصورة تعني العقل الفوقي، أي أن يكون للإنسان عقلٌ أعلى يستقبل به المَنطق الإلهي وفي ضوءه يفحص ويُصحِّح ما بعقلِهِ الأدنى من أفكار تلقائية ومعتقدات خاطئة. رُبما كان هذا ما استشعره بولس الرسول بإلهام الروح القدس عندما

تكلم عن كيف أنه بذهنه (عقله الأعلى) يُصادق ناموس الله ويُسَرّ به، بينما يوجد ناموس آخر في أعضائه (عقله الأدنى) يحارب ناموس ذهنه ويسبيه إلى ناموس الخطية.[٢١]

هذا هو «تجديد الذهن» الذي يتكلم عنه العهد الجديد. وهو أن يُفَكِّر الإنسان فيما يفكر فيه. أي أن يفكر بعقله الواعي (تفكيره المقصود) فيما يحدث في عقله تحت الواعي (تفكيره التلقائي) ويُسَيطِر عليه، هذا ببساطة هو ما تُعَلِّمُهُ المدرسة المعرفية السلوكية من مدارس علم النفس. أن يتعلم الإنسان أن يقود تفكيره، أما السؤال: «يقودُه إلى أين؟» فهنا يأتي دور الروح «الإرادة»، وهذا الذي يُحَدِّد هُوية الإنسان الروحية. بالنسبة لتلميذ المسيح، فإنه يستخدم نفس هذا «البرنامج» ليقود فكره ومشاعر وسلوكه نحو طاعة ناموس الله وطاعة المسيح والتَشَبُّه بِهِ.

> كل إنسان يريد أن يقود نفسه إلى أي مكان، عليه أن يعرف كيف «تُدار» نفسه. وهذا هو «علم النفس».

على أي حال، فإن كل إنسان يريد أن يقود نفسه إلى أي مكان، عليه أن يعرف كيف «تُدار» نفسه أولاً. الطريقة التي يُديرُ بها الخادم سيارته ليذهب لخدمة الله، هي نَفسِ الطَريقة التي يُدير بها المُجرم سَيَّارَتَهُ ليذهب ليرتكب جَريمة قَتلٍ مثلاً. كِلاهما ينبغي أن يعرِف كَيف تُدارُ السَيّارة، وهذا ببساطة هو علم النفس. إن علم النفس، مثل أي علم من العلوم، يحاول أن يكتشف كيف يَعمَل العالم، ويحاول أن يَمنح الإنسان المَعرِفَة والقُدرة لإدارة عالمه. وإذا كان هدف العلم دائماً هو البحث عن الحقيقة، فلن يتعارض مطلقاً إعلان الله الخاص (في الكتاب المقدس) مع إعلانه العام (في الطبيعة) والذي يحاول الإنسان أن يكتشفه من خلال العلوم المختلفة ومنها علم النفس، فالحقُّ واحدٌ ولا يتناقض.

٢١ رومية ٧: ١٢، ١٤، ١٦، ٢٢، ٢٥

ضرورة علم النفس للتلمذة المسيحية

التعليم هو إنارة الذِهن الأعلى بمعلومات جديدة، وإقناعه بها. وهذا في حالة بولس الرسول في رومية ٧ كان حادِث بالفِعل، لكن في نفس الوقت لم يَتَغَيَّر السلوك. هذا لأن «الناموس الذي في أعضائه» لم يتغيَّر بعد. هذا الناموس الذي في الأعضاء هو مجموعة المعتقدات الدفينة اللاواعِيّة التي غرسها فينا العالم وشكلنا وفقاً لها، ومجموعة العادات السلوكية المُتَأصِّلة التي اعتدناها جيلاً بعد جيل وتَقَلَّدناها من الآباء.[٢٢] التلمذة ببساطة هي تغيير هذا الناموس الذي في الجسد. أو بكلمات أخرى هي عملية «إنزال» الحق الإلهي من الذهن الأعلى حيث «الاقتناع» إلى الذهن الأدنى حيث «الاعتناق». إنها تغيير وتجديد المعتقدات الدفينة الخاطئة، ووضع عادات الصلاح مكان عادات الخطية. التلمذة إذاً ليست تحميل معلومات. إنها تغيير «نظام التشغيل» بحيث يكون فاعلاً وقادراً على تَمَثُّل التعليم والقِيَم الروحية المسيحية. التلمذة إذاً هي تغيير «نظام تشغيل» الكائن الإنساني كُلّة من إرادة وفكر ومشاعر وعادات جسد وعلاقات، ونقله من محورية الذات، إلى محورة المسيح. أي من محورية الإنانية إلى محورية المحبة (آجابى). لذلك عندما نحاول تحميل مبادئ الملكوت (التعليم) على نظام تشغيل آخر غير نظام تشغيل الملكوت، يَنتُج كل ما نراه في حياتنا من ازدواجية، تظهر في الفشل الذريع الذي يعانيه «المؤمنون» في أن يعيشوا مبادئ الملكوت التي يؤمنون بها، سواء في مجال الزواج والطلاق أو المال أو الجنس أو العمل أو أي شيء.

التلمذة هي عملية «إنزال» الحق الإلهي من الذهن الأعلى حيث «الاقتناع» إلى الذهن الأدنى حيث «الاعتناق».

٢٢ رسالة بطرس الرسول الأولى ١: ١٨

إنها بالتحديد أزمة المؤمن غير التلميذ (إذا افترضنا وجود شيءٍ كهذا فالمؤمن في العهد الجديد هو التلميذ)[٢٣] التي يُعَبِّر عنها بولس الرسول في الأصحاح السابع من رسالة رومية.

اللاهوت بلا علم نفس

عندما أقوم باستخدام علم النفس في إطار التَلمَذة المسيحية، سواء بالمحاضرات أو بالكتابة، يعترض البعض قائلين: «وماذا كان الحال قبل ظهور علم النفس؟ كيف كان المؤمنون يَنمُون في الكنيسة الأولى بدون علم نفس؟». عندئذٍ تكون إجابتي هي أن المؤمنون الأوائل لم يكونوا أبداً بدون علم نفس. مُنذ فجر التاريخ والإنسان يُحاول من خلال الفلسفة، قبل نشوء علم النفس الحديث، أن يفهم نفسه. كان شعار سقراط الرئيسي: «أيها الإنسان. أعرف نفسك». ومنذ فجر المسيحية والكنيسة لها علم النفس الخاص بها ونستطيع أن نقول أنه أيضاً فَرعٌ من اللّاهوت، وهو «لاهوت الإنسان».

في كتاب *التدريبات الروحية* يقتبس دالاس ويلارد من فرانز ديليتش Franz Delitzsch ما كَتَبَهُ الأخير منذ أكثر من قرن مضى أن علم نفس الكتاب المقدس هو واحد من أقدم العلوم في الكنيسة.[٢٤] فعند حلول القرن الثاني الميلادي كتب كاتب مسيحي واسمه ميليتوس الساردسي (من ساردس) عملاً بعنوان: عن النفس والجسد والذهن وهذا الكاتب لم يكن كاتباً غير مُهِمٍ في الكنيسة، بل قد اعتبره القادة المسيحيون اللاحقون له في منزلة يوسيبيوس[٢٥] وجيروم[٢٦] فيما يتعلق بأهميته ككاتب. وفي بداية القرن الثالث

٢٣ أعمال الرُسُل ١١: ٢٦

24 Franz Delitzch, *A System of Biblical Psychology*, trans. Robert E. Wallis (Edinburgh: Clark, 1869), p3.

٢٥ يوسيبيوس القيصري (٢٦٥- ٣٠٨م). هو أبو التاريخ الكنسي ومؤسس فكرة نشر أقوال الآباء. يعتبر عمله «التاريخ الكنسي» أساس قامت عليه مدرسة التأريخ الكنسي في العالم.

٢٦ جيروم الدلماسي (٣٤٧- ٤٢٠م) وهو الذي قام بترجمة الكتاب المقدس إلى اللاتينية (ترجمة الفولجاتا).

كتب ترتليان[٢٧] كتاباً أسماه *النفس De Anima* لكي يقدم معالجة مسيحية لكتابات أفلاطون وأرسطو عن الموضوعات النفسية الأساسية في ذلك العصر. لقد تحاوَرَ اللاهوتيون في فجر المسيحية مع علماء النفس في ذلك الوقت (وقد كانوا هُم الفلاسفة القُدَامَى) وأنشأوا ما يُمكن أن نُسَمِّيه: «علم نفس الكتاب المقدس». ويظل هذا الاهتمام مستمراً في المجتمع المسيحي إلى ما بعد الإصلاح البروتستانتي بوقت ليس بقليل. إن الفصل بين اللاهوت وعلم النفس لم يكن ممكناً أن يحدث إلّا في إطار الفصل القاتل بين الخلاص والحياة في تفكيرنا المسيحي المعاصر. إن تعليم بولس الرسول عن الخلاص لا يمكن فهمه بمعزل عن علم النفس (أو بمعزلٍ عن نظرةٍ نفسيةٍ للإنسان) وفي نفس الوقت لا ينتقص هذا مطلقاً من كونه تعليماً لاهوتياً.[٢٨]

إن الفصل بين اللاهوت وعلم النفس لم يكن ممكناً أن يحدث إلا في إطار الفصل القاتل بين الخلاص والحياة في تفكيرنا المسيحي المعاصر.

إن علم النفس والتدريبات الروحية (أن يعرف الإنسان نفسه ويقودها)، يُشَكِّلان معاً ما يُمكن أن نسميه «اللاهوت العَمَلي» الذي بدونه تظل المفاهيم اللاهوتية في بُرجها العاجي بمنأى عن التطبيق. ونظل، كما هو الحال في أغلب الكنائس، نَحُثُّ الناسَ ونُشَجِّعَهُم على التغيير، ونلومهم عندما لا ينمون روحياً ويتغيرون سلوكياً بالمُعَدَّل الذي نَتَوقَّعَهُ ونَنتَظِرُه، دون أن نقول لهم كيف يفعلون ذلك أو نساندهم عملياً فيه. يقول دالاس ويلارد في إحدى عظاته أن المعلمين المسيحيين دائماً ما يَشكُون أن الناس لا يتغيرون

٢٧ يعتبر العلامة كوينتس سبتيموس فلورنس ترتليانوس كاهن قرطاجنة أبا العلم اللاهوت في الكنيسة اللاتينية من حيث فضله على تقدم المصطلحات اللاهوتية وأحد المدافعين الأوائل عن الإيمان المسيحي، وهو صاحب المقولة المشهورة: «إن دماء الشهداء هي بِذار الكنيسة».

٢٨ دالاس ويلارد *التدريبات الروحية* ترجمة أوسم وصفي (القاهرة: كنيسة قصر الدوبارة الإنجيلية، ٢٠١٢) ١٨٠- ١٨٢

بالرغم مِمَّا يُعَلِّمُونَهُ لَهُم، وأنا أقول (ويلارد) أنهم لا يتغيرون بسبب ما يعلِّمونه لهم، أو بسبب ما لا يُعَلِّمُونَهُ لهم. عندما تَقتَصر التَلمَذة على البُعد العقلي، وتَخلو من البُعد العملي سواء كان البُعد الوجداني (علم النفس) أو الجَسَدي الإرادي (التدريبات الروحية)، فإنها تفشل في إحداث التغيير الحقيقي للإنسان على المستوى السلوكي.

في مدارس مهارات الحياة نُعَلِّم الناسَ ونُتَابِعَهُم أُسبوعياً لمُدة ثلاث شهور كاملة، كيف يفحصون أفكارهم التلقائية التي تؤدي للمشاعر التي تقود بدورها السلوكيات المختلفة. وكم يكون مُبهراً أن نرى رجالاً ونساءًا تجاوزوا منتصف العُمر يقفوا ليَشهَدوا أنهم لأولِ مرةٍ في حياتهم استطاعوا أن يتحكموا في غَضَبِهِم عندما أدركوا أن هذا الغضب وراءَهُ أفكارٌ تلقائية وانطباعات مباشرة ليست بالضرورة هي الحقيقة. عِندما تعلموا كيف يراقبوا ويُصحِّحوا أفكارهم التلقائية ومعتقداتهم المحورية الخاطئة (تفكيرهم التلقائي)، استطاعوا أن يقودوا مشاعرهم وهذا بالتالي انعكس على حياتهم الأخلاقية وعلاقاتهم. هذا هو التطبيق العملي للتوبة Meta-noia (تجديد الذهن) الذي تكلمنا عنه سابقاً.

هذا الجُزء من الذهن (التفكير التلقائي) لا يُغَيِّرُهُ التعليم وإنما التدريب. ذلك لأنه جُزء من الذهن أقرب للمشاعر والجسد وليس للمنطق والتفكير المقصود. هذا لا يتغير فقط بالمحاضرات والقراءات وإنما يحتاج أيضاً للتدريب والمثابرة والمتابعة اللصيقة في برامِج تلمذة عملية واضحة الملامح.

تاريخ العلاقة بين علم النفس واللاهوت

بالطبع كلمة «علم نفس» تصيب المؤمنين الكَنَسِيِّين باضطراب. فَمِمّا لا شك فيه أن علم النفس واللاهوت لديهما تاريخ طويل من الصراع. ليس فقط لأن أصول علم النفس الحديث هي أصول إلحادية[٢٩]، وإنما لأن علم النفس قد أصبح هو البديل العلماني للدين في العصر الحديث، مما يضعهما معاً دائماً في صورة المتنافسين. كلا النظامين يدرُس ويتعامل مع نفس القضايا مثل السلوك والقيم و المشاعروالعلاقات الإنسانية. وفي مرات كثيرة يحدث تداخل واضح بين أهداف كل منهما. أما التطبيق العملي فيقول أن كل واحد منهُما عندما يذهب في طريقِهِ وكأن الآخر غير موجود، فهذا أمر يضر بالاثنين معاً.

٢٩ كان فرويد مُلحداً قوياً ويُشكل مع غيره من المفكرين القوة التي أدت إلى ابتعاد أوربا عن الإيمان في عصر الاستنارة. فمن خلال كتاباته: *الطوطم والتابو (١٩١٣)* و*موسى والتوحيد (١٩٣٧)* قام فرويد بتقديم تفسيرات نفسية لكل روايات العهد القديم وفي كتابه الأشمل *مستقبل وهم (١٩٢٧)* وصف فرويد الدين باعتباره مرض عصابي وسواسي أصاب البشرية كلها. كانت الفرضية الأساسية لفرويد هي أن الإنسان هو الذي صنع الله على صورته، وليس العكس.

و يظل السؤال: «هل من المُمكن التكامل بينهما؟» سؤالاً يتردد بقوة في الكنيسة المسيحية وهناك ثلاث مواقف رئيسة من هذه المسألة: أولاً: هناك من يتجاهلون الأمر برمته مثل علماء النفس والأخصائيين النفسيين المسيحيين الذين يذهبون للكنيسة كل أحد، لكنهم لا يعبأون بمحاولة التكامل بين ما يسمعونه يوم الأحد وبين عَمَلِهِم مع عملاءهم أثناء الأسبوع. ثانياً: هناك من يظنون أن التكامل غير ضروري وربما يكون مُضِرّاً. من أمثال هؤلاء جاي آدمز Jay Adams والذي أَلَّفَ كتاباتٍ كثيرةً في هذا المجال منها على سبيل المثال *أنبياء الهرطقة النفسية*[٣٠] من بين هؤلاء أيضاً تيم لاهاي Tim LaHaye صاحب العديد من كتب المساعدة الذاتية مثل *الأمزجة البشرية وقدرة الله* و *كيف تقهر الاكتئاب؟*.

ينتمي إلى ذلك الاتِّجاه أيضاً ما يُسمى «بالمشورة الكتابية» Biblical Counseling أو «المشورة الوَعظية» Nouthetic Counseling الذين ينتمون بطبيعة الحال للأصولية البروتستانتية الأمريكية والذين ينشطون حالياً في كنيستنا المصرية في صورة مناهج وشهادات دراسية وكُتب مُترجمة هؤلاء يرون أن الكتاب المقدس وَحدَهُ فيه الكفاية للوصول إلى الصحة النفسية الكاملة بدون الحاجة إلى علم النفس وأن السبب الأساسي لكل الاضطرابات النفسية هو الخطية، وبالتالي كُل ما يحتاجه الإنسان هو التوبة.[٣١]

ثالثاً: تأتي المجموعة التي ترى أن التكامل مُهِمّ وضروري بل من الواجب على المؤمنين العاملين في مجال علم النفس أن يعيدوا بناءَهُ على قواعد فلسفية ولاهوتية كتابية، وذلك لأن حَقَّ اللهِ المُعلَن في الكتاب المُقدَّس لا يُمكن أن يتعارض مع حَقِّهِ المُعلَنُ في الطبيعة والذي تحاول العلوم كلها الوصول إليه. مثل هؤلاء (وأنا منهم) يَرُون التكامل بين علم النفس واللاهوت هو واحد من أعظم التحدِّيات التي تواجهنا في مجال التلمذة المسيحية،

30 *Prophets of Psycho-heresy*

٣١ هذا رُبما يكون حقيقياً، لكن ينبغي أن يكون مفهوم «التوبة» أعمق وأعرض من مجرد صلوات ومشاعر ندم وحفظ بعض الآيات الكتابية، فالتوبة كما رأينا هي تجديد الذهن، وهذا ليس بعيداً عن علم النفس.

والمجال الذي يجب على الكنيسة أن تَطرِقَهُ لكي تَتَلامَس مع البشرية المتألمة بصورة أكثر قرباً.

يكتب جاري كولينز Gary Collins وهو من أهم المنتمين لهذه المجموعة في كتابه: *علم النفس وعلم اللاهوت. إمكانيات التكامل*:[٣٢]

> يفترض علم اللاهوت دائماً أنه مبني على التفسير الكتابي المُطلَق، لكنه كثيرا ما يعكس تَبَصُّرَات إنسانية، وخبرات شخصية وثقافية نسبية. لذلك لكي يكون اللاهوت أكثر موضوعية وبالتالي أكثر فاعلية، يجب أن يكون اللاهوتي المسيحي مُدرِكَاً إدراكاً أَعمَق، السلوك الإنساني وطبيعة وتأثير ميول الإنسان وطرق تفكيره على استقبالاته المختلفة للأمور، بما فيها استقباله للوحي واللّاهوت.

بكلماتٍ أُخرى، إننا لا نقرأُ الكتابَ المُقَدَّسَ في فراغ. إننا نقرأه وسط بحرٍ من مشاعرنا وأفكارنا ومشكلاتنا الشخصية والمجتمعية، أو كما قال أحدهم، نحن نقرأه من خلال مُخٍّ غارِقٍ في موادَ كيميائية تؤثر عليه كل لحظة. فإن كنا نريد أن نحمي فَهمَنَا له من هذه التأثيرات، لا يجب أن نتخيل عدم وجودها، وإنما ندرس تأثيراتها لندرك كيف تؤثر هذه الأمور علينا لكي نستطيع أن نتعرف على فكر الله لنا من وسط، وليس بمعزلٍ عن، هذه المؤثرات التي لا نستطيع أبداً تحييدها. لا شك أن التكامل صعب، لأَنَّهُ يَجعَلَنا دائماً نحاولُ أن نَكتَشِفَ ما هي نقاط الاختلاف ونقاط الاتفاق ونعيش حالة مستمرة من التوتر الخلاّق عند المنطقة الوُسطَى التي فيها يتصل علم النفس باللاهوت. من السهل أن نميل نحو علمٍ ونتجاهل الآخر، وهذه خسارة كبيرة، لأن الحقيقة هي أن الإنسان بأكمله يعيش في هذه

32 G. R. Collins, *Psychology and Theology: Prospects for Integration*, (Nashville: Abingdon), 1981. p. 17

المنطقة الوسطى، حيث يتأثر بعلاقته بالله واحتياجه إليه، حتى و إن لم يكن بعد في علاقة حقيقية معه. و يتأثر أيضاً بالطريقة التي يستقبل بها العالم، والطريقة التي يُفَكِّر و يشعر بها، وبماضيه وجروحه وخبراته السابقة، والشخصية التي صار عليها بسبب عوامل وراثية وبيئية مختلفة.

الهدف من التكامل؟

يقدم جاري كولينز هذه الأهداف للتكامل: ١) يمكن لكل من علم النفس واللاهوت أن يسأل كل منهما الآخر و يُحَفِّزَ كل منهما الآخر لمزيدٍ من البَحثِ والاكتشاف للحق الإلهي خصوصاً في مجال الإنسان. ٢) التكامل يُبقي التواصل مفتوحاً بين اللاهوتيين وعلماء النفس لمزيد من الفهم للإنسان. لعل أفضل مكان لتحقيق هذا التواصل هو كُلِّيَّات اللاهوت حيث يجتمع كل من اللاهوتيين ذَوُو الاهتمام بعلم النفس، وعلماء النفس المسيحيون ذَوُو الاهتمام اللاهوتي حتى يُمكنهم معاً السعي لدراسة إعلان الله المتكامل في كل من الكتاب والطبيعة الإنسانية. أَمَّا التطبيقات العملية لهذا الحوار، فلا حصر لها.

يمكنني أن أعطي هنا على سبيل المثال بعض التطبيقات. لفترة ليست بقليلة انشغلت بمفهوم «الذكاء الوجداني» Emotional Intelligence وأهميته في سلوك الإنسان وعلاقاته، فرُحت أبحث عن هذا المفهوم في الكتاب المقدس، فَوَجدُتُ الكثير من الآيات التي تتكلم عن الاعتراف بالمشاعر والتعبير عنها، وأن المشاعر ليست في حد ذاتها خطأ و إنما قد تؤدي للخطأ.[٣٣] بدون الحوار بين علم النفس والكتاب المقدس، رُبما لم يكُن مُمكِناً فهم هذه الآيات بهذه الصورة، والاستمرار في استخدام الكتاب المقدس لقَمع المشاعر وكَبتَهَا، وهذا قد حدث تاريخياً، وبتأثير ثقافات وفلسفات أخرى غير كتابية مثل الفلسفة الرواقية.

٣٣ مزمور ٤: ٤ ؛ رسالة أفسس ٤: ٢٦

مثال آخر عن مفهوم «الحدود في العلاقات»، وكيف يقدم بولس هذا التوازن بين الحفاظ على الحدود، وفي الوقت نفسه الحفاظ على المحبة والعلاقات الحميمة. يقدم بولس هذا المفهوم الجدلي المُتَّزن بين عبارَتَيّ: «احملوا بعضكم أثقالَ بعض» و«كُلَّ واحدٍ سيحملُ حِملَ نَفسِهِ»[٣٤] وهذا بالتحديد ما يُعلّمه مبدأ الحدود في العلاقات الصحيحة نفسياً.[٣٥] بالطبع يجب هنا أن نستخدم المبادئ الراسخة في التفسير الكتابي حتى لا نلوي عُنُق الآيات الكتابية لتتوافق مع المفاهيم النفسية. وأيضاً لا نُسقط بسذاجة مفاهيم نفسية على الآيات الكتابية، وبالتالي نستخرج من الكتاب المقدس علمَ نفسٍ غير واقعيّ وغير مُجرّب علمياً وعملياً.

عموماً، التكامل ليس أمراً سهلاً بل يتم من خلال دراسة رَصِينَة ومُتأَنِّيَة لكلٍ من علم النفس وعلم اللاهوت من مصادرهما المُعتمدة والمتخصصة. وأيضاً يَتِمّ في عقل وقلب إنسانٍ قَد تَمَرَّس في الاثنين معاً. وهُنا نذكر القلب (الروح) بجانب العقل، لأن التكامل يكون ناقصاً إذا لم يشتمل أيضاً على الروحانية الشخصية، وهذا سوف نواجهه عندما نتكلم في الفصول التالية عن التدريبات الروحية.

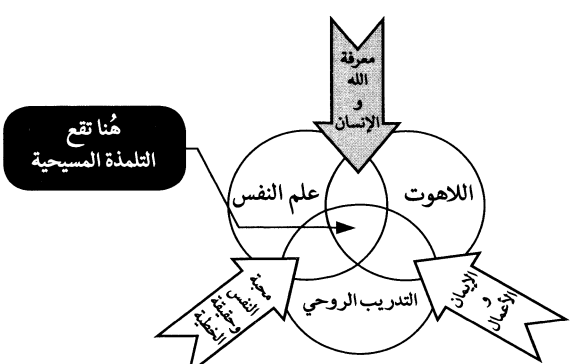

٣٤ رسالة غلاطية ٦: ١- ٥

35 Henry Cloud and John Townsend, *Boundaries. When to say Yes, How to say No and take control of your life* (Grand Rapids: Zondervan, 1992).

الفصل السابع

الإيمان والأعمال

اللاهوت والتدريبات الروحية

تخيّل معي قِصَّة طالب ثانوي يحلُم بدخول الجامعة وهو الأبن الأكبر لموظف بسيط في مدينة صغيرة بإحدى بلادنا العربية لديه خمسة من الإخوة والأخوات في مراحل التعليم المختلفة. من الطبيعي إذاً أن يَتَبَدَّدَ حُلمَهُ هذا، ويُقرّر أن يعمل في وظيفة بسيطة، ربما كمُحصل في شركة الكهرباء أو المياه. تخيل معي أيضاً أن أحد الأثرياء سَمِع بمحنته، فقرّر أن يُنفق عليه من الألف للياء في أكبر الجامعات الأمريكية، ولتكن «هارفارد» مثلاً، فأرسل يستدعيه ليُبلِغه بأنّه سوف يُعطيه كُل ما يحتاجه للدراسة في هذه الجامعة،[1] وسوف يُسَلِّمه المال ليكون تحت تصرفه فوراً.[2]

بالطبع ليس من السهل تصديق مثل هذا العَرض، ولو كان قد جاءه عَبر بريد الكتروني، لَكان حَذَفَهُ مباشرةً خوفاً من أن يكون «فيروساً». لكن إن كانت حالته بائسة، فرُبما يحاول (لذلك فإنه طوبى للمساكين، لأنهم ليس لديهم ما يخسروه، فسوف يصدقوا عَرض النِعمة المستحيل). عندما تَواصَل صديقنا مع هذا الثريّ واكتشف أن الأمر حقيقي، عَقَدَت المفاجأة السعيدة لِسانَه ولم يعرف ماذا يقول أو حتى بماذا يشعر. لابد أنه يتساءل: «لماذا أنا بالذات؟» ماذا فيّ لكي يُقَرِّر هذا الثريّ في البلد البعيد أن يقوم معي بهذه المبادرة،

---

١ رسالة بطرس الثانية ١: ٣

٢ إنجيل لوقا ١٥: ١٢

فهو ليس من أقاربي، نحن قومٌ بُسطاء وليس بيننا أي شخص له أي قدر من الأهمية، ثم أنا لست من المتفوقين في الثانوية العامة مثلاً لكي يُفَكِّر في أن«يستثمر» فيَّ مثل هذا الاستثمار. لقد نجحت بمجموع متواضع لا يؤهلني حتى لجامعة حكومية متواضعة وفي كلية من كليات «القاع». لماذا يفعل هذا؟ إنه أمرٌ صعب التصديق. حتى قَبوله صعب، بل مخيف. لكن هذا الشاب قَبِلَ العَرض خاصةً وأنه لا يَملُك شيءٌ ليخسَرَه، فهو ليس لديه المال ولا حتى المجموع الذي يؤهله لدخول أي كُلّية.

تُرى كيف ينبغي أن يكون سلوك ذلك الطالب، إن كان بالفعل قد «آمن» وصَدَّقَ حقيقة هذه «النعمة» وأنها بالفعل نِعمةٌ مجانيةٌ وليس مربوط بها شيء وليست لها مآرِب خاصة؟ أولاً ينبغي أن يذهب إلى الجامعة ويُقدم أوراقه ويحصل على المنحة. لكن هل يكفي هذا؟ ألا ينبغي أن يجتهد ويُحَصِّل الدروس حتى «يُكرِمَ» من أعطاه هذه الفرصة العظيمة؟ تخيّل أنه على العكس، دخل الجامعة ولم يُواظب على حضور المحاضرات ولم يستذكر الدروس ورَسَبَ في كل الامتحانات، بل واستخدم النقود المُعطاة له لشراء الكُتُب في السَهَرِ والسُكرِ والمُجُون. تُرَى كيف يشعرَ من قد دَفَعَ لَهُ هذه الآلاف المؤلَّفة من الدولارات لكي يدخل هذه الجامعة؟ أوليست هذه «إساءة استخدام» للنعمة تكسر قلب هذا الثري المُنعم؟ فضلاً عن أنها لن تعطي هذا الطالب أي عِلم أو مهارة أو شهادة. النِعمة مَجّانية لكنها ليست رَخيصة أبداً. في الواقع هي مَجّانية من فَرط ارتفاع ثَمَنِها الذي لا يستطيع بشر أن يدفعه،[٣] فقرّر الله أن يدفعها عَنّا.

النِعمة مَجّانية لكنها ليست رَخيصة أبداً. في الواقع هي مَجّانية من فَرط ارتفاع ثَمَنِها الذي لا يستطيع بشر أن يدفعه، فقرّر الله أن يدفعها عَنّا.

٣ مزمور ٤٩:٨

وعلى الجانب الآخر إذا بَذَلَ هذا الطالب المجهودَ اللّازم وحصُل على الشهادة، هل يستطيع أن يقول أنه حَصَلَ على الشهادة بمجهوده الذاتي؟ هل كان يستطيع أساساً أن يدخل هذه الجامعة إذا لم يكن هذا الثري قد دفع له مصاريف الالتحاق؟ وهل يُمكن أن يحصل على الشهادة دون الالتحاق بالجامعة، حتى و إن حفظ كل الكُتُب عن ظهر قلب؟

هل النعمة تُناقِض العمل، أم تُناقِض الاستحقاق؟[4] هذا الطالب ينبغي أن يعمل ويجتهد. لَكِنَّهُ مَهما اجتهد لا يجعله هذا الاجتهاد إلا متجاوباً تجاوُباً سليماً مع النعمة المجانية ومُحترماً لها، لكن لا يجعله أبداً مُستحقاً للشهادة، فهي عَطِيَّةٌ وسوف تظل كذلك مهما اجتهد الطالب، ولابُدّ أن يجتهد.

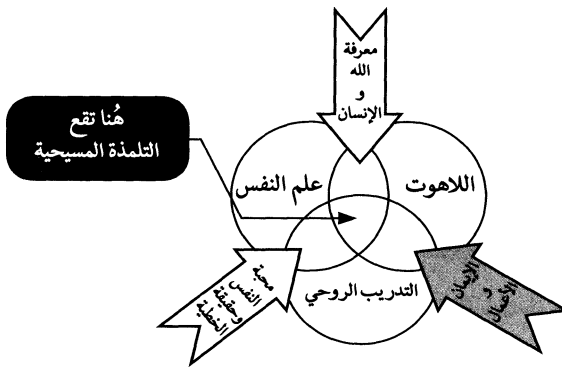

تقع التلمذة المسيحية عند هذه النُقطة المُبدِعة من التوتر الجَدَلِيّ بين لاهوت النعمة المجانية (الإيمان)، والتدريبات الروحية (الأعمال)، وكثيراً ما نفقد بؤرة الحياة المسيحية عندما نظن أن الأعمال يُمكن أن تُخَلِّصنا أو أننا سوف ندخل الحَياة بأعمالنا، أو نتصوَّر أن الخلاص بالنعمة يعني أن نتوقف عن الجهاد. في الواقع إن من يتوقف عن الجهاد

4 Dallas Willard, *The Great Omission, Reclaiming Jesus's Essential Teachings on Discipleship* (N.Y.: Harper Collins, 2006), 61.

فهذا دليل أنه لم يقبل النعمة أبداً ولم يفهمها.[٥] عندما كتب الرسول يعقوب رسالته عن ضرورة أن يكون للإيمان أعمال وإلا يكون ميتاً،[٦] لم يكن مُناقِضاً لتعليم الرسول بولس عن الخلاص بالنعمة،[٧] ولكن، من دراسة السياق جيداً، نكتشف أنه كان يُوَجِّه كلامه، بل توبيخه، لأشخاص مثل ذلك الطالب الكسلان الذي يسيءُ استخدامَ العَطِيّة المَجّانية المُعطاة له. لقد كانوا يقولون أنهم مؤمنون ورغم ذلك لايستطيعون السيطرة على ألسنتهم وكلامهم،[٨] ويحابون الأغنياء على حساب الفُقراء،[٩] ولا يعتَنون بالأيتام والأرامل في ظروفهم القاسية،[١٠] وينتقدون ويهاجمون بعضهم بعض،[١١] ويَتَبَاهون بما يفعلونه دون الاعتماد على الله،[١٢] ويفتخرون بغناهم ويعيشون حياة تَرَفٍ ولا يعطون العاملين لديهم أجورهم.[١٣] لذلك فعندما يتكلم بولس الرسول عن تفعيل الخلاص«بخوفٍ ورعدة»، فهو لا يعني مطلقاً الخوف والرُعب الذي يُفقِدنا الثقة ويشل حركتنا، وإنما المقصود هو الرهبة والاحترام اللذان يمنَعَانا من إساءة استخدام النعمة والتعامل معها على أنها أمرٌ رخيص.

يصف اللاهوتي الألماني العظيم ديتريش بونهوفر النعمة الرخيصة أنها ذلك المفهوم للنعمة الذي لا يهدِف إلى تبرير الخاطئ (أي نقله من حالة الخطية إلى حالة البر) وإنما يهدف إلى تبرير الخطية (أي إيجاد مبررات لها)[١٤] إنها النِعمةُ بدونِ تَلمَذة، وبدون أخذ الحياة

٥ الرسالة إلى تيطس ٢: ١٢

٦ رسالة يعقوب ٢: ١٤

٧ قيل أن المُصلح البروتسانتي مارتن لوثر كان يريد أن يحذف رسالة يعقوب من العهد الجديد. إذا كان هذا الكلام صحيحاً فإنه ينم عن عدم فهم لهذا التوتر الجدلي بين النعمة والأعمال. وحمداً لله أنه لم يفعل.

٨ رسالة يعقوب ١: ٢٦

٩ رسالة يعقوب ٢: ١-٩

١٠ رسالة يعقوب ١: ٢٧ ، ٢: ١٤-١٦

١١ رسالة يعقوب ٤: ١١

١٢ رسالة يعقوب ٤: ١٦

١٣ رسالة يعقوب ٥: ٤-٥

14 Dietrich Bonheoffer, *The Cost of Discipleship* (N.Y.: Touchstone, 1995) p43.

مأخذ الجد. مثل هذه «النعمة» ليست موجودةً في العهد الجديد مُطلقاً، تماماً كما أن المؤمن غير التلميذ مفهوم لا علاقة له بالعهد الجديد كما ذكرنا سابقاً. النعمة الحقيقية في العهد الجديد هي النعمة التي تُعَلِّمَنا أن ننكر الفُجور والشهوات العالمية ونعيش بالتَعَقُّل والبر والتقوى في العالم الحاضر منتظرين الرجاء المبارك وظهور مجد الله العظيم ومُخَلِّصَنا يسوع المسيح الذي بذل نفسه لأجلنا، لكي يفدينا من كل إثم، ويُطهِّر لنفسه شعباً خاصّاً غيوراً في أعمال حسنة.[١٥] ثم يصف بونهوفر هذه النعمة «الغالية» فيكتب:

> إن هذه النعمة الغالية هي الكَنزُ المَدفونُ في الحقل، الذي من أجله يذهب الإنسان ويبيع سعيداً كل ما يملُك ليقتَني ذلك الحقل. إنها اللؤلؤةُ الواحدةُ الكثيرةُ الثمن التي من أجل شرائِها، يبيع التاجر كل ما لديه. إنها مُلكُ المسيحِ على القلب الذي من أجله يكون الإنسان مُستَعِدّاً أن يَقلَعُ عَينَيه إن كانتا تُعثرَانه. إنها دعوة المسيح التي من أجلها تَرَكَ التلاميذُ شباك صَيدِهِم وتبعوه. هذه النعمة **مُكَلِّفة** لأنها تدعونا لأن نَتبَع، وهي أيضاً **نِعمة** لأنها تدعونا لأن نتبع الفادي يسوع المسيح. إنها **مُكَلِّفة** لأنها تُكَلِّف الإنسان حياته، وهي **نِعمة** لأنها تُعطي الإنسان الحياة الحقيقية الوحيدة. إنها **مُكَلِّفة** لأنها تُدين الخطية، وهي **نِعمة** لأنها تُبَرِّر الخاطئ مجاناً. وفوق الكل هي **مُكَلِّفة** لأنها كلفت الله حياة ابنه: «لأنكم اشتُريتُم بثمنٍ» وما قد كَلَّف الله، لا يُمكِن أن يكونَ رخيصاً بالنسبة لنا. فوق الكل أيضاً هي **نِعمة** لأن الله لم يحسب ابنه غالياً لدرجة ألّا يبذله من أجل حياتنا، بل قد قَدَّمَهُ من أجلنا. النعمة الغالية هي تَجَسُّد الله من أجلنا.[١٦]

---

١٥ رسالة بولس الرسول إلى تيطس ٢: ١٢- ١٤

16 Dietrich Bonheoffer, *The Cost of Discipleship*. p. 45

الناموس والخلاص

يتَصَوَّر البَعض مُخطئين أن بولس الرسول عندما يتكلم عن أن المسيح قد خَلَّصَنا من لعنة الناموس، أن الناموس لعنة، حاشا. لعنةُ الناموسُ هي الخطية، والخطية هي الفَشلُ في تطبيق الناموس. الناموسُ موضوعٌ كَحَكَمٍ بين الخطأ والصواب، لذلك فليس فيه الخلاص، وإنما فيه المِقياس الذي يَحكُم علينا جميعاً ويضعنا بجملتنا في الموازين إلى فوق.[١٧] في الموعظة على الجَبَل عندما طَوَّب المسيح المساكين بالروح (الفُقراء روحياً) وعندما عاش ما عَلَّم به فارتبط فعلاً بالخطاة والعشارين والزُناة، ظَنَّ البعضُ، مُخطئين أيضاً، أنه قد جاء لكي يقوم بإلغاء الناموس. لذلك أَصَرّ أن يقول: «لاَ تَظُنُّوا أَنِّي جِئْتُ لأَنْقُضَ النَّامُوسَ أَوِ الأَنْبِيَاءَ. مَا جِئْتُ لأَنْقُضَ بَلْ لأُكَمِّلَ.»[١٨] ولا يعني «تكميل» الناموس أنه كان ناقصاً، ولكن المقصود تتميمه. الناموس «شريعة» موضوعة لكي تُخبرنا أننا نحتاج إلى «طبيعة» جديدة. هذه الطبيعة الجديدة هي وحدها التي تستطيع أن تعيش تلك الشريعة. هذه الطبيعة هي «المحبة» وهي طبيعة الله نفسه، التي جاء المسيح لكي يُعطيها لنا بالصليب والقيامة. هذه هي «الولادة الجديدة» التي تعطينا «طبيعة جديدة تماماً كما أعطتنا الولادة الأولى الطبيعة الجسدية الإنسانية.[١٩] لذلك فإن يسوع في نفس الموعظة عندما أوصى سامعيه أن يكونوا «كاملين» كما أن أباهم «كامل» كانت هذه إشارةً للمحبة غير المشروطة التي تَصِلُ إلى مَحَبّةِ الأعداء. هاهو يقول: «أَحِبُّوا أَعْدَاءَكُمْ. بَارِكُوا لاَعِنِيكُمْ. أَحْسِنُوا إِلَى مُبْغِضِيكُمْ، وَصَلُّوا لأَجْلِ الَّذِينَ يُسِيئُونَ إِلَيْكُمْ وَيَطْرُدُونَكُمْ، لِكَيْ تَكُونُوا أَبْنَاءَ أَبِيكُمُ الَّذِي فِي السَّمَاوَاتِ،... لأَنَّهُ إِنْ أَحْبَبْتُمُ الَّذِينَ يُحِبُّونَكُمْ، فَأَيُّ أَجْرٍ لَكُمْ؟ أَلَيْسَ الْعَشَّارُونَ

١٧ مزمور ٦٢: ٩

١٨ إنجيل متى ٥: ١٧

١٩ إنجيل يوحنا ٣: ٣- ٥ ؛ رسالة يوحنا الرسول الأولى ٤: ٧- ٨

أَيْضًا يَفْعَلُونَ ذلِكَ؟ وَإِنْ سَلَّمْتُمْ عَلَى إِخْوَتِكُمْ فَقَطْ، فَأَيَّ فَضْل تَصْنَعُونَ؟ أَلَيْسَ الْعَشَّارُونَ أَيْضًا يَفْعَلُونَ هكَذَا؟ فَكُونُوا أَنْتُمْ كَامِلِينَ كَمَا أَنَّ أَبَاكُمُ الَّذِي فِي السَّمَاوَاتِ هُوَ كَامِلٌ.» (إنجيل متى ٥: ٤٣- ٤٨)

لذلك فإن بولس الرسول يشير إلى المحبة باعتبارها «تكميل الناموس»[٢٠] و«رباط الكمال»[٢١] و«غاية الوصية»[٢٢] لقد خَلَّصنا الله وأعطانا طبيعة المحبة، لأنها وحدها التي تستطيع أن تُطيع هذا الناموس الأخلاقي العالي. الناموس بالطبيعة يعجز عن أن يُنتج أي طبيعة، فهو مُجَرَّد قانون. أما هذه الطبيعة فهي الخليقة الجديدة التي أنتجها عمل الله في المسيح وذلك لكي يُمَكِّنَّا أن نعيش شريعة المَحَبَّة[٢٣] وناموس الحُرية.[٢٤] هذا هو المقصود عندما يقول بولس: «لأَنَّهُ مَا كَانَ النَّامُوسُ عَاجِزًا عَنْهُ، فِي مَا كَانَ ضَعِيفًا بِالْجَسَدِ، فَاللهُ إِذْ أَرْسَلَ ابْنَهُ فِي شِبْهِ جَسَدِ الْخَطِيَّةِ، وَلأَجْلِ الْخَطِيَّةِ، دَانَ الْخَطِيَّةَ فِي الْجَسَدِ، **لكي يَتِمَّ حُكْمُ النَّامُوسِ فِينَا، نَحْنُ السَّالِكِينَ لَيْسَ حَسَبَ الْجَسَدِ بَلْ حَسَبَ الرُّوحِ**.» (رومية ٨: ٣- ٤). إن عبارة «يتم حُكم الناموس فينا» تعني أن يتحقق الناموس في حياتنا. أي نُحِب ونَرغَب ونعيش وصايا الناموس. أي أننا بالطبيعة الجديدة نعيش الشريعة. هذه الحياة يشير إليها أيضاً أنها «السلوك بالروح».

أما هذه الطبيعة فهي الخليقة الجديدة التي أنتجها عمل الله في المسيح، لكي نستطيع بهذه الطبيعة أن نعيش الشريعة.

لقد كان حدث المسيح كُلّه، من الصليب إلى انسكاب الروح القدس هو تصريح الله

٢٠ رسالة رومية ١٣: ١٠
٢١ رسالة كولوسي ٣: ١٤
٢٢ رسالة تيموثاوس الأولى ١: ٥
٢٣ إنجيل لوقا ١٠: ٢٦- ٢٧
٢٤ رسالة يعقوب ١: ٢٥

الختامي أن هذا الناموس «الروحي»[٢٥] لا يُمكن تطبيقه بالجسد،[٢٦] بل يحتاج إلى طبيعة روحية جديدة لكي نستطيع أن نعيشه في حياتنا اليومية.

عبارة «يتم حُكم» كثيراً ما يُساء فهمها لأنها رُبما تعطي انطباع تطبيق حُكم محكمة أو عقوبة. لكنها في الواقع تشير إلى تميم وصايا الناموس في حياتنا. وذلك من خلال طبيعة المحبة. هذه الآية نقرأها في الترجمة العربية المُشتركة هكذا: «ليتم ما تتطلبه مِنّا أحكامُ الشريعة، نحن السالكين سبيل الروح لا سبيل الجسد» (٨: ٤). وعندما يقول في غلاطية ٥: ١٨ أننا إِذَا انْقَدْنا بِالرُّوحِ فَلَسْنا تَحْتَ النَّامُوسِ، فهذا لا يعني أن الناموس يُصبح لاغياً. على العَكس. إنه يُصبِح مُطبَّقاً. أنك عندما تُطَبِّق القانون لا تُصبح عندئذ تَحتُه. وبتعبيرات القانون المَدَني، عندما تُطَبِّق القانون فلا تكون وقتها واقعاً «تَحتَ طائلة القانون».

وإذا عُدنا إلى رومية نجد تلك الفقرة العميقة من الأصحاح الثالث عشر: «لاَ تَكُونُوا مَدْيُونِينَ لأَحَدٍ بِشَيْءٍ إِلاَّ بِأَنْ يُحِبَّ بَعْضُكُمْ بَعْضًا، لأَنَّ **مَنْ أَحَبَّ غَيْرَهُ فَقَدْ أَكْمَلَ النَّامُوسَ**. لأَنَّ «لاَ تَزْنِ، لاَ تَقْتُلْ، لاَ تَسْرِقْ، لاَ تَشْهَدْ بِالزُّورِ، لاَ تَشْتَهِ»، وَإِنْ كَانَتْ وَصِيَّةٌ أُخْرَى، هِيَ مَجْمُوعَةٌ فِي هذِهِ الْكَلِمَةِ: «أَنْ تُحِبَّ قَرِيبَكَ كَنَفْسِكَ». اَلْمَحَبَّةُ لاَ تَصْنَعُ شَرًّا لِلْقَرِيبِ، فَالْمَحَبَّةُ هِيَ تَكْمِيلُ النَّامُوسِ.» (رومية ١٣: ٨- ١٠). لذلك يكتب دالاس ويلارد في كتابه *المؤامرة الإلهية*، أن الناموس ليس مصدر الخلاص ولكنه مسار الخلاص.[٢٧] الناموس يعجز أن يصنع خلاصاً، لكنه المسار الروحي الذي يعيشه المُخَلَّصون. وهذا معناه أننا عندما ننال الخلاص، فإن العلامة الصادقة لحدوث ذلك الخلاص هو أنه يُنشئ فينا رغبةً لأَن نُطيع الناموس الأخلاقي، وقُدرةً (تحتاج للتدريب) على إطاعته.

٢٥ رومية ٧: ١٤

٢٦ رومية ٨: ٨

27 Dallas Willard *The Divine Conspiracy, Rediscovering our Hidden Life in God* (San Francisco: Harper San Francisco, 1997) 142.

فإذاً أيها الإخوة

بَعدَ أن يؤكِدَ بولس الرسول على أن الطبيعة العتيقة «الجسد» لا تستطيع أن تعيش الناموس الروحي، وأن الإنسان يحتاج إلى طبيعة جديدة روحية يصنعها الله فيه بحلول الروح القدس، فإنه يكتب من العدد الثاني عشر: «إِذًا أَيُّهَا الإِخْوَةُ نَحْنُ مَدْيُونُونَ لَيْسَ لِلْجَسَدِ لِنَعِيشَ حَسَبَ الْجَسَدِ. لأَنَّهُ إِنْ عِشْتُمْ حَسَبَ الْجَسَدِ فَسَتَمُوتُونَ، وَلكِنْ إِنْ كُنْتُمْ بِالرُّوحِ تُمِيتُونَ أَعْمَالَ الْجَسَدِ فَسَتَحْيَوْنَ.» (رومية ٨: ١٢، ١٣). ضمير الفاعل في «تُميتون» ضمير مُستتر تقديره «أنتم». لقد مات المسيح لكي يجعل من الممكن بالنسبة لنا أن نُميت هذا الكيان القديم[٢٨] الذي قام بتشكيل عادات تفكيره وسلوكه عالمٌ بعيدٌ عن الله. هذه الإماتة المُستمرة ليست كراهية للجسد أو النفس، وليست تجاهل للمشاعر والاحتياجات، وليست الجهل بالنفس. هذه الإماتة ليست سوى التدريبات الروحية.

هذه التدريبات هي مثل التدريبات الرياضية الجسدية تماماً، تعمل على إماتة «الدهون الزائدة» (الموت الذي فينا والذي إن لم نُمِتهُ سيُميتَنا) لكي تحيا وتنمو «العضلات» (الذات الحقيقية المخلوقة على صورة الله).

الأمر يُشبه أيضاً نُمُوّ بذرة النبات. الكيان الجديد هو جنين البذرة بعدما دَبَّ فيه عمل الروح القدس فبدأ ينمو. لكن هذا الجنين كانت تغلفه قشرة قديمة ميتة ينبغي أن تتمزق وتموت حتى تسمح للخليقة الجديدة أن تحيا وتنمو. وهكذا تستمر الحياة في هذا الكيان الجديد بالتوازي مع الموت في الكيان القديم. والإنسان دائماً في حالة اختيار يومي، بل ولحظي، إن كان يغذي الكيان القديم، فيُعَطِّل نموِّ الجديد، أو يُميت ذلك الكيان القديم حتى يسمح للجديد بالنمو والظهور ليأخذ تدريجياً صورة خالقه.[٢٩]

---

٢٨ رومية ٨: ٣ ؛ كولوسي ٣: ٣

٢٩ غلاطية ٦: ٨ ؛ أفسس ٤: ٢٢ ؛ كولوسي ٣: ٩- ١٠

الإنسان الجديد

كما أشرنا أكثر من مرة في هذا الكتاب، فإن إحياء الخليقة الجديدة وإماتة الخليقة القديمة، أوخلع الإنسان العتيق ولبس الجديد، أو طرح الخطية وأعمال الجسد، والسلوك بالروح. كُل هذه تعبيرات يُقدمها العهد الجديد للإشارة إلى التدريبات الروحية المختلفة. وللأسف الشديد فإن «الفِصام» الروحي الذي تعيشه الكنيسة المُعاصرة هو أنها تطالب أعضاءها أن يعيشوا هذا النوع من الحياة دون أن تربط بينه وبين حياة التدريبات الروحية والتشكيل الروحي، فتُقَدِّم المبدأ دون تطبيقه.

هذه الإماتة المُستمرة ليست كراهية الجسد أو النفس، وليست تجاهل المشاعر والاحتياجات، وليست الجهل بالنفس. هذه الإماتة ليست سوى التدريبات الروحية.

إن التدريبات الروحية تتعلَّق باكتساب طرق وعادات نستخدمُ فيها أجسادنا بطريقةٍ مختلفة لكي نكسر العادات القديمة للتفكير والشعور والسلوك التي حَكَمَت حياتنا، كما لو كنا نحن آلهة حياتنا أو كانت هناك آلهة أخرى متسلطة علينا غير الله، أو كما لو لم يكن ملكوته متاحاً لنا.

وفي نفس الوقت الذي نكسر فيه العادات القديمة، نتعلم أيضاً أن نُمارِس مُمَارَسات الملكوت التي تساند أرواحنا في هدفها للتشبه بالمسيح والتغيير إلى الصورة التي قصدها الله لنا. هذا هو المقصود بخلع القديم ولبس الجديد. لا توجد قوة في فَهم هذه التدريبات أو في التعليم عنها. كل القوة التي فيها تظهر عندما نُمارسها وهذا هو السبب الذي جعل يسوع يقول «كُل من يسمع أقوالي هذه ويعمل بها» وليس «يَفهَمها» أو«يقتنع بها» أو «يُحِبَّها ويُرَدِّدَها». القوة لا تأتي إلا من العمل والتنفيذ اليومي. لكننا للأسف الشديد

اختزلنا التلمذة في الدراسات النظرية، وعندما نحاول أن نجعلها عملية، نُقَدِّم أسئلة تطبيقية على الفقرات. هذه الأسئلة ليست سوى تدريبات على الفَهم وليس المُمارسة. أما الممارسة فتحتاج إلى برنامج عملي ومُعايشة ومتابعة مثل التدريبات الرياضية تماماً. أيضاً الشدّة والتركيز أمران مُهمّان. وهذا يعني أن نَقضي أوقاتاً طويلة في ممارسة التدريبات. لا تكفي بعض الدقائق والآيات المتناثرة هنا وهناك نسمعها في الكنيسة أو غير ذلك، تماماً كما لا تكفي بعض النقاط من الماء حتى ولو كانت بشكل منتظم أن تشكل حماماً. لكي «تأخذ» حَمّاماً تحتاج لكمية كبيرة من الماء تلقي عليك مرة واحدة.[٣٠] كأن تقرأ سفراً من أسفار الكتاب المقدس كله مرة واحدة وتتأمله بتأنّي لمدة يومٍ كاملٍ مثلاً. هذا يَغمُرُكَ بفكرِ الكتاب المقدس بصورة تحتويك تماماً. أو أن تصوم عن الطعام لمدة ثلاثة أو أربعة أيام متواصلة حتى تختبر اختفاء الجوع تماماً، أو أن تصوم عن الناس أو عن الكلام لمدة طويلة حتى تختبر الانفصال التام عن العالم. إن تدريبات الانقطاع بالذات مثل الصمت والصوم والوحدة تُدَرِّبنا على توقيف ردود الأفعال المُباشرة، وهذا يجعلنا نقتربُ من أن نَكونَ أشخاصاً نقوم «بأفعال» أكثر من «ردود الأفعال» وهذه هي سمة مميزة للإنسان الجديد.

التشكيل الروحي والوحدة بين الطوائف

أعتقد أن الوحدة بين الطوائف المسيحية المختلفة هي أمر مُتَحَقِّقَ وسوف يَتَحقق في نفس الوقت. إنها سَوف تَتَحَقَّقُ عندما تجتمع الكنيسة الحقيقية في الدهر الآتي من كل أمَّة وقبيلة وشعب ولسان.[٣١] وهي مُتَحَقِّقة بالفعل بين من يعيشون بؤرة الحياة المسيحية،

٣٠ دالاس ويلارد *تجديد القلب*

٣١ رؤيا يوحنا اللاهوتي ٥: ٩

الذين يتبعون المسيح بالفعل وليس بالكلام. هؤلاء يَتَّحِدونَ معاً تلقائياً لأنهم يتبعون الواحد. وهم لا يتبعونه فكرياً وإنما يتبعونه وجودياً وحياتياً وسلوكياً.

من الطبيعي أن من يَتغَيَّرون إلى صورةِ المسيح في المحبة لا يُمكن أن يكونوا مُتَعَصِّبين يُغاضِبُونَ بَعضَهُم بَعضاً ويَحسِدونَ بَعضهم بعضاً ويتحزَّبون ضد بعضهم البعض.[٣٢] إن من يلبسون أحشاء المسيح، أحشاء الرأفات واللطف والوداعة وطول الأناة، لا يُمكن إلّا أن يكونوا مُتَّحِدين.[٣٣] أما أي محاولات أخرى «سياسية» نحو الوحدة، على مستوى اللِّجان والهيئات واللقاءات، فسوف لا تصنع سوى علاقاتٍ أفضل بين الطوائف. هذا بالطبع أمر جيد ومحمود، أما الوحدة الحقيقية فلا تحدُث نتيجة «مجهودات» الوحدة وإنما تنتج تلقائياً من «جِهاد» التَشَبُّه بالواحد. إن الطاعة للمسيح هي الأمر الوحيد الذي يمكن أن يَتَغَلَّب على الانقسامات التي تفرِضها العَقائد المُتَعارِضة والطقوس المتباينة والتراث المختلف. وَحدَهُ النُمُوّ الروحي هو الذي يجعل كل منا يقول كما يقول كاتب المزمور المائة والتاسع عشر: «رَفِيقٌ أَنَا لِكُلِّ الَّذِينَ يَتَّقُونَكَ وَلِحَافِظِي وَصَايَاكَ».[٣٤]

أما الوحدة الحقيقية فلا تحدُث نتيجة «مجهودات» الوحدة وإنما تنتج تلقائياً من «جِهاد» التَشَبُّه بالواحد.

في هذا الفصل تناولنا العلاقة بين لاهوت الخلاص بالنعمة، والتدريبات الروحية. وفي الفصل السابق تكلمنا عن علاقة اللاهوت بعلم النفس. في الفصل التالي، والأخير من هذا الكتاب، سوف نتناول علاقة الروحانية والتدريبات الروحية بعلم النفس.[٣٥]

٣٢ غلاطية ٥: ٢٦

٣٣ كولوسي ٣: ١٢

34 Dallas Willard, *The Great Omission* 77.

٣٥ أوسم وصفي، *الروحانية والتعافي* (القاهرة: كنيسة قصر الدوبارة الإنجيلية، ٢٠٠٥)

الفصل الثامن

الذات الحقيقية والذات المزيفة

التدريبات الروحية وعلم النفس

طالعني مَوقع التواصل الاجتماعي «فيسبوك» بهذا الاقتباس من كتاب سوف يُنشر قريباً باللغة العربية وهو ينتمي لمدرسة المشورة الكتابية التي أشرنا إليها والتي تُعادي علم النفس بشكل واضح وصريح. سوف أضع الاقتباس هُنا وأرُد على أطروحاته واحدةً واحدةً لتوضيح موقفاً آخرَ من عِلم النفس وعلاقته بالروحانية والتلمذة المسيحية:

من كتاب: «*لماذا لا يستطيع المسيحيون أن يثقوا بعلم النفس؟*»[1]

تبدأ المسيحية بالافتراض: «في البدء خلق الله» أي بوجود خالِقٍ، بينما يبدأ علم النفس بالافتراض «في البدء كان المُستَنقَع» بحسب النظرية التطورية. المسيحيةُ تَرى الإنسانَ كخليقةِ الله المتميزة، والمخلوق على صورة الله، بينما يرى علم النفس الإنسان كنتاجٍ لملايين السنين من الطَفَرات العشوائية.

هذه إشارة إلى نظرية النشوء والارتقاء، وهي ليست مجال علم النفس. يمكن مناقشة قضية النشوء والارتقاء (التطور) وعلاقته بالخلق، ولكن ليس ذلك مجال هذا الكتاب.

تؤمِن المسيحية بأن الكتاب المقدّس هو كلمة الله المعصومة والمصدر الأوحَدَ للحق. بينما يؤمن علم النفسُ بأن الحقَّ موجودٌ حيث تجده، وأن عقلَ الإنسانِ هو الحَكَمُ النهائيُّ.

1 Ed Bulkley, *Why Christians Can't Trust Psychology* (Oregon: Harvest House Publishers, 1993) ,325- 326.

ربما يؤمن علم النفس أن عقل الإنسان هو الحَكَمُ النهائي، ولا يجب على المؤمنين أن يؤمنوا بذلك بالطبع. لكن لا يُعلِن الكتاب المقدس أَنَّـهُ المصدرَ الأوحد للحق. الكتاب نفسه يُعلن أن السموات تُحَدِّث بمجد الله «الإعلان العام في الخليقة» (مزمور ١٩: ١) يُعلن الكتاب المقدس، أن هناك إعلان عام في الخليقة يراه كل الناس حتى الذين ليس لهم ناموس، على حد تعبير الرسول بولس في رومية ١: ١٩- ٢٠.

المسيحيةُ لديها قيادةٌ من الخُدّامِ الّذين يَعِظونَ من الكُتُبِ المُقدّسة، بينما علم النفس لديه طبقة من الكهنوت تتمثل في المُعالجين الذين يقتبسون عن بعضهم البعض.

الوُعّاظ واللّاهوتيون أيضاً يُفَسِّرون الكتاب المقدس بطرق مختلفة أنشأت طوائف ومدارس لاهوتية متعددة، وهُم أيضاً يقتبسون من بعضهم البعض. المقصود هو أن العنصر الإنساني موجود أيضاً في فهم وتفسير الكتاب المقدس وإننا لا نستطيع تماماً تحييد عامل الفهم الإنساني من أي شيء في وجودنا البشري. لذلك فإنه من الأفضل أن نفهم أعماق الفكر والشعور الإنساني حتى نستطيع (بقدر الإمكان) فهم تأثيراتهما، وعلم النفس يساعدنا، كما أشرنا سابقاً، على فهم كيف يفكر ويشعر الإنسان.

المسيحية تُدعَمُ بالعطاءِ السَخِيّ والتقدِمات المُبارَكة من أبنائها، بينما يُدعَم علمُ النفسِ بنظامٍ للأجور وفواتير شركات التأمين.

هذه إشارة للنظام الاقتصادي الذي يدير عملية العلاج النفسي المهني وهذه قضية خارجة عن سياق النقد الفكري واللاهوتي لعلم النفس.

يَدَّعي الكتاب المقدّس أنه يمتلك إجابات لأعمق أسئلة البشر: من أين أتينا؟ لماذا نحن هنا؟ كيف نسلكُ؟ كيف نتغيّرُ؟ ما شكلُ مُستقبلِنا بينما يَدَّعي علم النفس أنه يملك إجابات أعمق لهذه الاسئلة الكبيرة، يمكن الكَشفُ عنها فقط على يد المعالجين الذين تَلَّقوا سنوات من التدريب الأكاديمي.

لا يَدّعي علم النفس القدرة على الإجابة عن هذه الأسئلة. ما يَدَّعي علم النفس القدرة على الإجابة عنه هو كيف يعمل كيان الإنسان الداخلي وكيف يُمكن للإنسان إدارة سلوكه والتوافق مع بيئته. صحيح أن الخلفية الفلسفية لأغلب مدارس علم النفس هي خلفية إنسانية إلحادية، لكن إستخدام علم النفس لا يشترط الإيمان بهذه الخلفيات الفلسفية كما سوف نشرح لاحقاً وكما هو الحال في الكثير من العلوم الأُخرى.

يدّعي الكتاب المُقدّس أنه يكشف عن دوافع القلب الإنساني، بينما يدّعي علم النفس أنه يُفسرُ دوافع اللاوعي في العقل الإنساني.

لا يَدَّعي الكتاب المقدس أنه يكشف خبايا الإنسان، بل يشهد أن الله (الروح القدس) وليس الكتاب المقدس، هو الذي يفحص أعماق الإنسان (مزمور ٧: ٩). والروح القُدس لا يستنكف أن يستخدم أي شيء لكي يفعل ذلك. ليس فقط الكتاب المقدس. فإذا كان الكتاب المقدس نفسه يقول أن الله قد استخدم أنثى حمار (سفر العدد ٢٢: ٢٨) فمن الممكن أن يستخدم فحص الإنسان لنفسه (١كو ٢: ١١) عن طريق التأمل والتكلُّم إلى النفس (مزمور ٤: ٤) وهذا أساسيٌّ في علم النفس.

تدّعي المسيحية أن البشر يمكن أن يتغيروا بقوة الله المعجزية والخفيّة. بينما

يَدّعي علم النفس أنه يستطيع أن يُغير الإنسان بمساعدته على فهم نفسه وقبولها ومحبتها.

الكتاب المقدس يقول أن المحبة تطرح الخوف إلى خارج (١يو ٤: ١٨) ويقول الكتاب المقدس أيضاً أن الاعتراف لآخر يشفي (يعقوب ٥: ١٦) وهذان أساسان من الأساسات التي يُبنى عليه علم النفس. ومحبة النفس مفهوم محوري أيضاً في الكتاب المقدس الذي يفترض أن الإنسان السوي يُحب نفسه، لذلك يوصي الكتاب المقدس الإنسان أن يُحب قريبه كنفسه، ويصرح بولس الرسول في رسالته لأهل أفسس أن من يحب إمرأته يحب نفسه. إذاً فالكتاب المقدس يشترك مع علم النفس في الإيمان بأن الإنسان يستطيع أن يتغير بفهم نفسه وقبولها ومحبتها. وهذا ليس بالضرورة يتعارض مع التغيير بقوة الله المعجزية أيضاً.

يقول الكتاب المقدّس أن الإنسان هو خاطئ بالطبيعة ومنفصل عن حياة الله. بينما يقول علم النفس أن الإنسان صالح في جوهره، ويحتاج إلى إدراك قدراته الكامنة.

الكتاب المقدس يقول أن الإنسان خاطئ ومُنفصل عن الله ويقول أيضاً أنه صالح في جوهره فهو مخلوق على صورة الله (تكوين ١: ٢٧)، ولعل من صُوَر الخلاص كما يقدمه اللاهوت المسيحي، استعادة الصورة الأصلية التي خلق الله الإنسان عليها، وهذا يتضمن بالطبع إدراك قدراته الكامنة، بما في ذلك قدراته الروحية للتواصل مع الله ومحبته ومحبة نفسه والآخرين.

يقول الكتاب المقدّس أنه بدون المسيح يصبح الإنسان بلا رجاء، بينما يقول علم النفس إن الإنسان محدودٌ فقط بخيالِهِ. يقول الكتاب المقدّس إن الإنسانَ

ضالٌ، وإن المسيح هو الطريق الوحيد، بينما علم النفس يقول إنه يقدر أن يساعد الإنسان على إيجاد طريقه الخاص.

بالفعل علم النفس ليس لديه مفهوم الخطية، وبالتالي فهو لا يتكلم عن أي خلاصٍ من الخطية، وإنما عن الصحة والتوافق المجتمعي. هذا أمرٌ ينبغي أن يُدركه من يريدون إجراء التكامل بين علم النفس واللاهوت المسيحي. على الجانب الآخر فإن مفهوم الخطية لا يعني أن الإنسان ليست له شخصية فريدة ولا تعني الحاجة للمسيح وللخلاص أن الإنسان لا يستطيع أن يفعل أي شيء إيجابي في حياته.

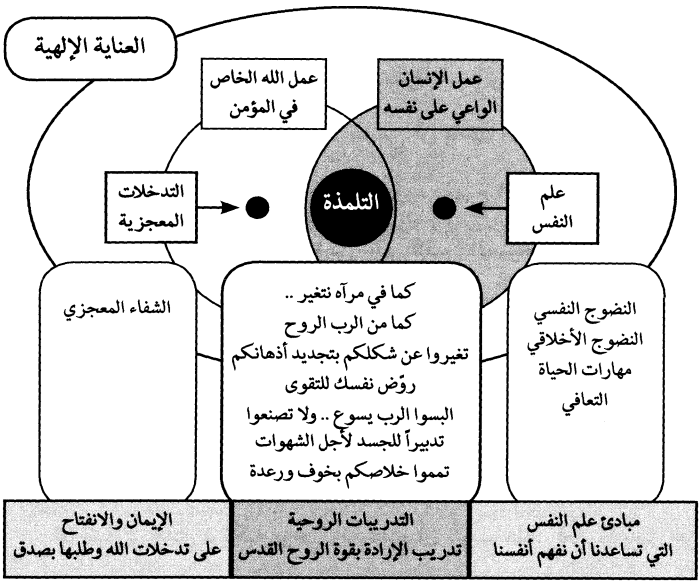

في الشكل السابق نرى أن الإنسانَ، حتى وإن لم يكن مؤمناً، فهو ككائنٍ إراديٍّ أخلاقيٍّ يستطيعُ العَملَ على تغييرِ فِكرِهِ وسلوكِهِ، وهذا أيضاً في إطار العناية الإلهية العامة. على الجانب الآخر هناك تدخلاتٌ معجزيةٌ في حياة الإنسان المؤمن الذي بسبب إيمانه يكون مُنفتحاً على عمل الله المعجزي الخاص (وإن كان الله أيضاً يتدخل معجزياً في حياة غير المؤمنين كاستجابة لصلوات المؤمنين، وأحياناً بمبادراتٍ خاصةٍ منه). أما التلمذة فتقع حيث يجتمع العملان معاً: عمل الله الخاص في المؤمن وجهاد الإنسان الذي يقوم بتفعيل عمل الروح القدس فيه.

الكتاب المقدّس يدعو الخطية باسمها، بينما علم النفس يقول إن الإنسان يعاني من اضطرابات.

إذا كان علم النفس قد اتخذ موقفاً متطرفاً ضد الروحانية والدين بإنكار مبدأ الخطية والمسئولية أمام الله، لا ينبغي أن يأخذ الفهم المسيحي للإنسان رد فعل متطرف مضاد، بحيث يرفض بدوره مفهوم المرض والاضطراب، وكأن هذا يلغي ذاك بالضرورة. يؤمن علم النفس المسيحي أن الاثنان يمكن أن يتواجدا معاً بل وهما متواجدان معاً دائماً. الخطية بمفهومها المأساوي[٢] الذي يمكن أن نسميه السقوط والضعف البشري، الذي يجعلنا كلنا نعاني من أشكال متعددة ودرجات متفاوتة من الاضطراب الذي نحن لسنا مسؤلون عنه فردياً بشكل مباشر، وفي نفس الوقت أيضاً الخطية بمفهومها الإرادي الاختياري الذي نرتكبه بوعي ونستطيع أن نتوب عنه. لعل ما يعبر عن ذلك

٢ على حد تعبير اللاهوتي الوجودي الألماني بول تليليش (تيليك)

الموقف شعار حركة التعافي: «نحن لسنا مسؤلين عن مرضنا، لكننا مسؤولون عن تعافينا.»

يقول الكتاب المقدّس إن شعب الله لا يجب أن يُشاكلوا العالم، بينما يقول أنصار المدرسة الدَمجِيَة إننا يجب أن نُقدّم المشورة بنفس طريقة العالم.

لا يعني التكامل بين اللاهوت وعلم النفس (ولا أفضل تعبير «الدَمج») أن يُمارس المسيحيون علم النفس بنفس طريقة العالم. مجهود التكامل يتضمن دراسة كل مدارس العلاج النفسي وتحديد نقاط الاتفاق والاختلاف بينها وبين اللاهوت المسيحي على مستوى النظرية والتطبيق وذلك حتى لا يمارس المسيحيون علم النفس بنفس طريقة العالم، وإنما يأخذون منه ما يتفق مع اللاهوت المسيحي ويتركون ما لا يتفق معه.

يقول الكتاب المقدّس إن الإنسان مسؤول عن اختياراته الخاصة، بينما يقول علم النفس إن كل فرد هو ضحية لبيئته.

أيضاً هذا تبسيط مُخِلّ، فالكتاب المقدس أيضاً يقول أن الإنسان يتأثر ببيئته (خصوصاً البيئة الأسرية والاجتماعية) ونلاحظ تأثير «النظام الأُسَري» بوضوح على أسرة الآباء: إبراهيم وإسحق ويعقوب. وتأثير تربية صموئيل وداود لأبنائهما على سلوكيات هؤلاء الأبناء وغير ذلك (خروج ٢٠: ٥). وعلم النفس يقول، مثل الكتاب المقدس، أن الإنسان يتأثر ببيئته، وليس «ضَحية» سلبية لها. وهو أيضاً افتراء على علم النفس، فعلم النفس يقول أن الإنسان مسؤول عن افكاره وسلوكه واختياراته، وهذا جوهر مدارس علاجية نفسية كثيرة مثل المدرسة المعرفية السلوكية ومدرسة العلاج الجشتالتي وغيرها.

يقول الكتاب المقدّس إن الإنسان يمكن أن يُغفَرَ لهُ ويَتَطَهَّرَ ويُشفَى. بينما علم النفس يقول إنه لابد أن يَرجِعَ إلى ماضيه ويتقبل ألمه ويستكشف كيانه الداخلي.

لا يوجد تعارض بأن يرجع الإنسان إلى ماضيه ويتقبل ألمه ويستكشف كيانه الداخلي، وفي نفس الوقت أيضاً أن يُغفر له ويَتَطَهَّر ويُشفى . عندما تكلم يسوع مع المرأة السامرية، لم يبدأ معها بالمواجهة بالخطية والحاجة للتوبة، وإنما بدأ معها بمواجهة عطشها للماء الحيّ وكيف أنها تشرب من ماء يزيدها عطشاً (أي أن تستكشف كيانها الداخلي وأسلوب حياتها غير الفَعَّال).

إن الحل الكتابي للذنب هو توبة الإنسان وغفران الله، بينما طريقة علم النفس تتمثل في تخدير الضمير.

هذا افتراء على علم النفس. الممارسة السليمة لعلم النفس لا تجعل الإنسان يُخَدِّر ضميره بل يواجه نفسه بعيوبه وأخطاء تفكيره والأنماط المريضة لسلوكه وعلاقاته. على الجانب الآخر إذا أراد الإنسان أن يستخدم علم النفس لتخدير ضميره، فإنه يستطيع. ويمكن للإنسان أيضاً أن يستخدم الدين والكتاب المقدس لتخدير ضميره (رومية ٢: ١٧- ٢٩).

يقول الكتاب المقدّس إننا يجب أن نَصلِبَ الذَات، بينما علم النفس يقول لابد أن نُحَقِّقَ الذات.

هذه النقطة تتطلب شرحاً وافياً وسوف أفعل ذلك فيما يلي من هذا الفصل. والسؤال هنا هو أيَّ ذات ينبغي أن تَتَحَقَّق وأيَّها ينبغي أن تُصلب؟ (يُمكن

الاستزادة بقراءة كتاب «معرفة الله والنفس»[٣] وكتاب «نضوج الكنيسة ونضوج قادتها»[٤]).

يقول الكتاب المقدّس إن معركتنا هي معركة روحية، بينما يقول فرويد أن المعركة هي معركة جنسية.

هذا تَبسيط مُخِلّ لفكر فرويد. حَقيقيّ أن معركة علم النفس العلماني ليست معركة روحية، وليست أيضاً معركة جنسية كما يَظُنّ الكاتب، ولكنها، بحسب فرويد، معركة من أجل التوافق مع المجتمع. أما علم النفس المسيحي فمعركته ينبغي أن تكون المعركة الروحية (أي التوافق أساساً مع ملكوت الله وليس المجتمع بالضرورة) ولا يوجد مانع مُطلقاً من أن تُستَخدم تقنيات علم النفس في إطار هذه المعركة المسيحية الروحية طالما يظل الهدف النهائي هو التوافق مع ملكوت الله أولاً والمجتمع ثانياً.

عَبرَ القرون، وبدون مساعدة العلاج النفسي وبدون الأساليب المبتكرة، أثمَرَتِ المسيحيةُ ملايينَ الأشخاصِ الذين تَغَيَّرَت حياتُهُم بشكلٍ دائم بالحقائق المُحررة في شخص يسوع المسيح. وفي أقل من قرن استَحوَذَ علم النفس على عقول الملايين برسالة استعبدت الجنس البشري لنظريات مُتأرجحة تشجع على سلوكيات شريرة. علم النفس يوجه الإنسان إلى الذات. بينما الكتاب المقدّس يوجه الإنسان إلى الله.

٣ أوسم وصفي، وماهر صموئيل، *معرفة الله والنفس* (عمان: أوفير، ٢٠١٣)

٤ بيتر سكازيرو و وارين بيرد، *نضوج الكنيسة ونضوج قادتها*. ترجمة جين محيي (القاهرة: دار النشر الأسقفية، ٢٠١١)

لقد أشرت من قبل أنه عبر القرون أثمرت المسيحية ملايين الأشخاص الذين تغيرت حياتهم باستخدام ما يُمكن أن نُسميه «عِلم نفس الكتاب المقدس» الذي للأسف أهملته الكنيسة، ويأتي علم النفس الحديث ليتحدّى الكنيسة أن تُعيد اكتشاف «علم نفسها»، وتستفيد أيضاً من التقنيات الحديثة كما يستفيد المسيحيون من التقنيات الحديثة في كل فروع الطب والعلم، دون الاستسلام لما يُسميه الكاتب «نظريات شريرة.»

انتهى الاقتباس من هذا الكتاب والرد عليه.

واضح من الاقتباس أن كاتب هذا الكتاب يتصَوَّرُ صِراعاً بين علم النفس والكتاب المقدس، وأنه ينبغي على المرء أن يختار بينهما، بينما هدف علم النفس هو معرفة الإنسان لنفسه، وهذه فضيلةٌ مسيحية لا تتعارضُ، بل تتكاملُ، مع معرفة الله والنمو الروحي للإنسان المسيحي. كما أن علم النفس يمُدُّ الإنسانَ بأساليبَ وتقنيات عملية، لا تتعارض مع الإيمان المسيحي، لمواجهة تحديات حياته الإنسانية. وقد بذل كثيرٌ من اللاهوتيين وعلماء النفس المسيحيين على مدى عشرات السنين، جهوداً فكرية مُحترمة لإجراء التكامل بين علم النفس واللاهوت المسيحي، بحيث لا يتم الإضرار بأي منهما، ولا يَتم قبول نظريات نفسية تتعارض مع ما يعلمه لنا الكتاب المقدس.

بالإضافة إلى ذلك فإن قارئ ذلك الكتاب (وأقصد كتاب «*لماذا لا يؤمن المسيحيون بعلم النفس*») سرعان ما سوف يستشعر أسلوبَ الهجومِ وإطلاق الاتهامات الكُلّية على علم النفس بمجمله وكأنّهُ شَرٌ مُطبَق، وذلك بإسلوب تبسيطيّ كمقارنة بين الخير والشر، أو الإيمان والكُفر بطريقة ربما يرى البعض أنها لا تحترم عقولهم.

الوعي الإنساني

نشأت نظريات علم النفس من رَحِم مدارسَ فلسفية ظهرت في العصر الحديث. على سبيل المثال المدرسة التجريبية الكلاسيكية «Classical Empiricism» وهي فلسفة مادّية نشأت في القرن الثامن عشر، هي النظرية الفلسفية التي نَتَجَ عَنها في مطلع القرن العشرين مدرستين نفسيتين، الأولى نشأت في أوروبا وهي المدرسة التحليلية الكلاسيكية «Classical Psychoanalysis School» (فرويد Freud)، والثانية نشأت في الولايات المُتحدة بعنوان: المدرسة السلوكية «Behavioral School» (واتسون وسكينر Watson - Skinner). هذه الفلسفة المادّية (وأقصد التجريبية الكلاسيكية) لا تؤمنُ بأيّ شيءٍ لا يُمكن إختبارُهُ بالحواسِ المُباشرة ولا يُمكِن قياسُهُ بطريقة تجريبية مُحدَّدة. لهذا السبب فإن المدارس النفسية الناشئة عنها لم تؤمن بأي قوة فوق طبيعية يُمكن أن تتدخَّل في حياة الإنسان، بل تؤمن أن الطاقة النفسية للإنسان «نظامٌ مُغلق» «Closed System» يُمكِن تحويله والتحكُم فيه، لكن لا يُمكن للإنسان أن يستقبل أي طاقة أو معونة من خارج هذا النظام المُغلق. هذا بالطبع ضد اللاهوت المسيحي الذي يؤمن أن الله قد خَلَقَ الكونَ مِنَ العَدَم ويتدخل فيه وأن الإنسان يستطيع أن يستقبل معونة من خلال قوة روحية إلهية تفوق قدراته الإنسانية.

من هاتين المدرستين؛ التحليلية الكلاسيكية والسلوكية، انبَثَقَت مدارسُ أخرى كثيرة استطاعت أن تحصل على استبصارات مُهِمّة عن شخصية الإنسان ووعيه وطُرق تفكيره وشعوره، كما استطاعت أيضاً أن تُطَوِّر تقنياتٍ علاجيةً، ثبتت فائدتُها عِلمياً وتجريبياً في تَنميةِ قدراتِ البشر على إدارة أفكارهم ومشاعرهم وسلوكياتهم وعلاقاتهم، وحصولهم على تبصُّر أعمق بماضيهم وحاضرهم وصراعاتهم. من هذه الاستبصارات على سبيل المثال، إدراك الإنسان لطبقات الوعي (العقل الواعي وتحت الواعي واللاواعي). هذا بالمناسبة

لا يتعارض مع ما يُعَلِّم به الكتاب المُقَدَّس، بل على العكس يَّتفِق مع مفهوم أن قلب الإنسان عميق ومُخادع، وكثيراً ما تكون هناك أفكارٌ ودوافعٌ داخلَ الإنسان لا يُدرِكها بشكلٍ واعٍ مُباشر.[٥] لذلك فإننا نخسر كثيراً إذا قاطَعنا هذه الاستبصارات والتقنيات لمجرد اختلاف رؤيتنا للعالم عن رؤية هذه المدارس، ولكننا نستطيع أن نستخدم هذه الاستبصارات والتقنيات في إطار الفلسفة المسيحية التي تؤمن بالخالق كُلّي القدرة المُتداخِل في حياة الكون والبشر.

ولعل أهم إنجازات هاتين المدرستين هو الإعلاء من قيمة «الوعي بالنفس» سواء الوعي بالدوافع والصراعات والعمل على اختبارها وتَمَثُّلها، وهذا نجده في المدارس التحليلية والديناميكية. أو الوعي بالأفكار والمعتقدات وتصحيحها «تجديد الذهن» وهذا نجده في المدارس السلوكية المعرفية. وهذه قِيَم نستطيع أن نقول أنها احتياج لكل إنسان يريد أن يأخذ حياته مأخذ الجد. وبالتأكيد ينبغي أن يكون المسيحيون كذلك.

ولعل أهم إنجازات هاتين المدرستين هو الإعلاء من قيمة «الوعي بالنفس» وهذه قيمة نستطيع أن نقول أنها احتياج لكل إنسان يريد أن يأخذ حياته مأخذ الجد.

إننا في المجتمع المسيحي في أَمَسّ الحاجة إلى أشخاص يستطيعون أن يتَّزِنوا بين رغبةٍ قويةٍ لمعرفة النفس ورغبة قوية لمعرفة الله. يتفق هذا مع ما قاله جون كَلفِن «John Calvin» في أول نقطة من الفصل الأول من الكتاب الأول من مُجَلَّدَهُ الكبير: أساسيات الإيمان المسيحي:

> إن حِكمَتَنا لكي تكونَ حكمةً حقيقيةً وثابتةً، يجب أن تَتَكَوَّنَ من جُزئَيْن: معرفة الله، وأنفسنا. ولكن لكون هذين الجزئين مرتبطين ببعضهما البعض بروابط عديدة، فإنه ليس من السهل تحديد من منهما يسبق الآخر ويؤدي إليه.

٥ مزمور ٦٤: ٦؛ إرميا ١٧: ٩

ففي المقام الأول عندما يفحص الإنسان نفسه و يُدرِكَهَا، فإن هذا يَدفَعَهُ لأن يحول وَجهَهُ نحوَ الله الذي فيه يحيا ويتحرك ويوجد. وعلى الجانب الآخر، لا يمكن لإنسان أن يحصل على معرفة حقيقية للنفس بدون التأمل في وجه الله، ومن ثَمَّ بعد هذا التأمُّل ينزل لأسفل لكي ينظر إلى نفسه.[٦]

في مرات كثيرة تفشل الروحانية المسيحية في تحقيق هذا التوازن فيعتبر كثير من الروحانيين أن معرفة النفس أو الوعي بها ضد الروحانية الحقيقية، مما يضع الناس أمام اختيارين؛ إما معرفة الله أو معرفة النفس في حين أن الاثنين لا يَنفَصِلا كما يؤكد كَلفِن.

المسئولية الإنسانية

عندما يُتَّهَم علم النفس أنه يُشَجِّع الإنسان على عدم المسئولية و يدفعه لأن يرى نفسه كضحية لظروفه، فهذا محض افتراء يَنُمّ عن جهلٍ تام بعلم النفس والعلاج النفسي. يؤمن علم النفس أن هُناك تأثيرات من الخارج تقع على الإنسان هو غير مسئول عنها، لكنه في نفس الوقت يُشَجِّع الإنسان على حمل مسئولية أفكاره وسلوكياته واختياراته في الحياة. ولعل المدارس النفسية التي تؤكد بقوة على المسئولية الإنسانية هي المدارس الإنسانية والوجودية التي بدأت في الظهور مع مُنتصف القرن العشرين متأثرةً بالطبع بمدارس الفلسفة الوجودية. وجديرٌ بالذكر أن هناك مدارس فلسفية وجودية مسيحية (سورن كيرجارد ـ جابرييل مارسيل)، بل ومدارس لاهوتية وجودية (بول تيليك). لكن التيار السائد في الفلسفة الوجودية كان تياراً إنسانياً علمانياً يؤمن بأن الإنسان هو مركز الكون وليس الله. هذا بالطبع يتعارض مع اللاهوت المسيحي الذي يؤمن أن الله هو مصدر الوجود والذي يَمُدُّ كل ما هو موجود بطاقةِ وُجُودِهِ.

6 John Calvin, *The Institutes of Christian Religion.* Translated by Henry Beveridge. 1.1.1.

كانت هذه الفلسفات الوجودية، كما أشرتُ، وراءَ نشوءِ مدارس علم النفس الإنساني والوجودي. لن أخوض في هذه النظريات الفلسفية وعلاقة كل نظرية بمدرسة علم النفس المُنبثقة منها، فهذا مجال كُتُبٍ أخرى.[٧] أما ما أريد أن أشير إليه هنا، فهو أن هذه المدارس بالرغم من أصلها الإنسانيّ الإلحادي، قد أسهَمت إسهامات شديدة الأهمية فيما يتعلق بالصحة النفسية. من بين هذه الإسهامات أنها أكَّدَت على قيمة الصدق والأصالة والتعبير الأمين عن الخبرة الوجدانية المُباشرة. أَوَليست هذه قيمةٌ مسيحيةٌ كتابية؟ أَوَليس هذا أكثر ما يُميِّز رجال ونساء الله الذين يأتي ذكرهم في الكتاب المقدس بدءاً من موسى إلى داود إلى يسوع إلى بولس؟ من هذه الإسهامات أيضاً، تأكيدها (على عكس ما يتهم كاتب الكتاب الذي اقتبست منه في بداية هذا الفصل) على الحُرّية والمسئولية الفردية. أَوَليست هذه أيضاً قيمة مسيحية كتابية؟[٨] ومن القيم التي تؤكد عليها هذه المدارس أيضاً قيمة القبول غير المشروط «Unconditional Positive Regard». أَوَليست هذه هي القيمة العُليا في المسيحية؟[٩]

ومن ضمن التقنيات الهامة التي تُعَلِّمها لنا هذه المدارس تقنية المواجدة (الاشتراك في الوجدان) «Empathy» والتي هي باختصار أن يخرج الإنسان من انحصاره في نفسه ومن إطاره المرجعي ليدخل إلى الخبرة الوجدانية لشخص آخر و ينقل له قبوله غير المشروط و احترامه لخبرته الوجدانية بغض النظر عن موافقته أو عدم موافقته على أرائه وسلوكياته. أتصور أن هذا هو ما قصده بولس الرسول عندما أوصى المؤمنين أن يكون لهم فكر واحد ولهم محبة واحدة بنفس واحدة وأن يحسِبوا بعضَهُم البعض أفضل من أنفسهم.[١٠] فإن كانت

7 S. L. Jones and R. E. Butman, *Modern Psychotherapies, A Comprehensive Christian Appraisal*, (Downers Grove, Illinois, Intervarsity Press, 1991)

٨ كورنثوس الأولى ٧: ٢١، ٩: ١٩ ؛ غلاطية ٥: ١٣

٩ رسالة رومية ١٥: ٧

١٠ رسالة فيلبي ٢: ١- ٣

هذه المدارس تُعَلِّمنا وتُدَرِّبنا بشكلٍ عمليٍّ مُمَنهَجٍ كيف نُجَدِّد أذهاننا ونخرج من ذواتنا لنرى الآخرين ونحترمهم ونتواصل بفاعلية ونصنع علاقات صحّية، فلماذا نتخلى عن هذه المعارف والتدريبات، إن كانت ستساعدنا في مسيرة نمونا الروحي؟

الخطية والسقوط

تأتي النقطة الحَرِجَة في التكامل بين علم النفس واللاهوت المسيحي في كون علم النفس لا يعترف بشيء اسمه الخطية أو السقوط. و إذا كان علم النفس يقاوم بشدة أحد المفاهيم اللاهوتية والروحية المسيحية المحورية وهو مفهوم «إنكار الذات» أو «إماتة الذات» فهو يفعل ذلك لأنه لا يؤمن بالخطية من ناحية، ومن ناحية أخرى لأنه قد تم تقديم هذا المفهوم اللاهوتي بطرق خاطئة تسمح بأن يُساء استخدامه و يُفَسَّرُ على أنه احتقارٌ للنفس وللإنسانية بشكل عام. هُنا يأتي دور التدريبات الروحية لكي تقوم بحل أزمة كبيرة في التكامل بين علم النفس واللاهوت. وفي واقع الأمر قامت التدريبات الروحية في حل أزمتي الشخصية والمهنية والفكرية والروحية، وأنا أقف طوال الخمسة عشرة سنة الماضية على الحدود بين علم النفس واللاهوت.

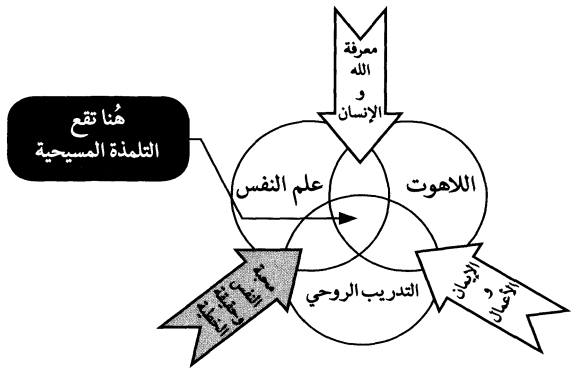

الذات الحقيقية والذات المزيفة

عند هذه النقطة المتوتّرة بين محبة النفس وإنكار الذات، يخشى المُعالِج النفسي المسيحي الوقوع في محظورين: الأول هو أن اللاهوت المسيحي، بسبب مفهوم إنكار الذات، يُمكن أن يُشَجِّع الخزي والقلق والشعور المرضي بالذنب وبالتالي يزيد من الاضطراب النفسي، خاصة بين الناجيات والناجين من الإساءات والصدمات، وبالذات الجنسية، وهم على أقل تقدير ثُلث النساء في كل المجتمعات، وحوالي ١٠- ١٥٪ من الرجال، وهذا اتهام موَجَّه دائماً إلى الإيمان المسيحي. وعلى الجانب الآخر يخشى المعالج النفسي المسيحي أن يقوم علم النفس بتشجيع محورية الإنسان بما في ذلك من أنانية وكبرياء، خاصة وإن نظريات علم النفس العلماني، كما رأينا، تستند إلى فلسفات إنسانية علمانية.

لذلك كان من المُهم أن نقوم بمجهودٍ لاهوتي للتفريق في الفهم والمُمارسة بين «النَفس الإنسانية» المخلوقة على صورة الله والتي يحُثنا الكتاب المقدس على محبتها،[١١] و«الذات» التي تتخذ من الانحصار في النفس والشهوة والكبرياء قواعدَ للتفكير والسلوك. هذه الذات يُمكن أن نُسمّيها أيضاً «الجَسَد» أو «جَسَد الخطية» أو «الإنسان العتيق».[١٢]

لذلك كان مفيداً استدعاء مفهوم «الذات الحقيقية» للإشارة لنَفسِ الإنسان المخلوقة على صورة الله و«الذات المزيفة» للإشارة لحالة الخطية التي تسود على الإنسان.[١٣]

يُعتَبَر طبيب الأطفال الإنجليزي دونالد وينيكوت Donald» Winnicott» (١٨٩٦-١٩٧١) هو أول من تَكَلَّم عن مفهوم الذات الحقيقية والذات المزيفة. اعتَبَرَ وينيكوت أن الطفل يولد بذاتٍ حقيقيةٍ مليئة بالطاقات والإمكانات الإبداعية الخاصة. هذه الذات الحقيقية

١١ لوقا ١٠: ٢٧؛ أفسس ٥: ٢٨

١٢ رومية ٨؛ غلاطية ٥؛ كولوسي ٣

١٣ للاستزادة في هذا الأمر أنصح بقراءة كتاب *معرفة الله والنفس* (عمان: أوفير، ٢٠١٣).

تظهر وتزدهر إذا تلقى الإنسانُ حباً وقبولاً غير مشروطَين من خلال أبوة وأمومة جيدة بما فيه الكفاية «Good Enough Parenting» أما إذا لم يحدث هذا، فإن الإنسان يُكوِّن ما يُمكن أن نُسَمّيه الذات الدفاعية أو الذات المزيفة «False Self» هذه الذات المزيفة هي مجموعة من الدفاعات النفسية غير الناضجة مثل الإنكار والكبت والتبرير والإسقاط وغيرها من الدفاعات اللاواعية، وأيضاً مجموعة من السلوكيات الدفاعية مثل الهَوَس بالجنس أو بالمال أو بالشهرة أو النجاح أو غيرها من السلوكيات التي يظن الإنسان أنها تساعده أن يتعايش مع بيئة فقيرة في المحبة والقبول.

يُمكن أن نقول أن السقوط والتَمَرُّد هو أن البشرية كُلها انفصلت عن الأبوة الحقيقية والمحبة الكاملة في الله، فعاشت في حالة وجودية مُستمرة من الخوف والخزي[١٤] الذي أدّى بالإنسان بشكلٍ عام إلى تبني الانحصارَ في النفس والكبرياء والنرجسية والشهوة كدفاعات ضد الخوف والخزي. لكن لأن الإنسان الفرد، والبشرية كلها، عاشت انطلاقاً من هذه الذات المزيفة كل عُمرها، فإنها لا تعرف سواها وتشعر أنها كما لو كانت ذاتها الحقيقية. فقط عندما يتلامسُ الإنسان مع محبةِ الله ونورِهِ، ويبدأ الروح القدس في العمل فيه لتحقيق الخليقة الجديدة، فإنه يُدرك أن ما كان يظنها ذاته الحقيقية هي ذاتٌ مُزَيَّفة،[١٥] وأن الحياة التي عاشها لم تكن سوى موتاً. هذه البصيرة نراها بوضوح في خطاب المؤمن «الجَسَديّ» الذي يعاني الازدواجية بين الحياة الروحية التي يريد أن يحياها والحياة الجسدانية التي يحياها بالفعل. عندئذ يستطيع أن يُمَيِّز بين ذاته الحقيقية التي أعادها روح الله للحياة وبدأ يُحوِّلها إلى شركة الطبيعة الإلهية، وبين ذاته المزيفة، التي يُشير إليها باعتبارها ذلك الجسد المَيّت المربوط به.

١٤ تكوين ٣: ١٠

١٥ فيلبي ٣: ٧-٨

«لا أفهم ما أعمل، لأن ما أريده لا أعمله، وما أكرهه أعمله. وحين أعمل ما لا أريده، أوافق الشريعة على أنها حق (الذات الحقيقية توافق الشريعة). فلا أكون أنا (الذات الحقيقية) الذي يعمل ما لا يريده، بل الخطيئة التي تسكن فيَّ (الذات المزيفة). لأنّي أعلمُ أن الصلاح لا يسكن فيّ، (لأنه اعتاد أن يعتبرها نفسه لذلك يقول: «فِيَّ»، ثم يستدرك ويقول «أي في جَسَدي» مشيراً إلى ذاته المُزيفة التي تُسيطر تلقائياً على جسده) أي شيءٍ صالح.»[١٦]

السحلية الحمراء والمُمَثِّل التراجيدي

لعل من أروع الأوصاف لمفهوم الذات الحقيقية والذات المزيفة، ما كتبه ك. س. لويس C. S. Lewis في كتابه الخياليّ *الطلاق العظيم* الذي أشرت إليه سابقاً. هذا الكتاب يؤكد على أن الجحيم هو الحياة وفقاً لهذه الذات المزيفة المُنحَصِرة في نفسها. يتخيل لويس أنه لاتزال هُناك فُرصة للأشباح الذين لا يزالوا في «المدينة الرمادية»، والتي تمثل درجة من درجات الجحيم، أن يَتَخَلَّصوا من انحصارهم في أنفسهم وذواتهم المزيفة ليتحولوا من أشباح إلى أشخاص حقيقيين لهم أجساد حقيقية ينطلقون بها إلى «الغابة العميقة» التي تُمَثِّل السماء. لكن للأسف كان أغلبهم يرفضون التَخَلّي عن انحصارهم في أنفسهم ولا يستطيعون فَكَّ ارتباطهم بذواتهم المزيفة، ويفضِّلون بالتالي العودة للمدينة الرمادية حيث يظلوا في حالة الوجود غير الحقيقي (الشَبَح) وفي حالة الانحصار في النفس.

من بين الشخصيات التي كتب عنها لويس في هذا الكتاب شخصية الشاب الذي يحمل على كتفه «سحلية حمراء»، والقزم المُمسك بسلسلة في نهايتها «مُمَثِّل تراجيدي». تُمثِّل السحلية الحمراء الذات المزيفة لذلك الشاب وهي كما يُمكن أن يُفهم من السياق هي

١٦ رومية ٧: ١٥-١٨ (الترجمة العربية المشتركة).

الهوس باللذة الجنسية. فجأة ظهر شبح الشاب الذي يحمل السحلية الحمراء وهي لا تَكُفُّ عن ضَربِهِ بذيلها من حين لآخر كسوطٍ مؤلمٍ. كان الشاب يَهُمّ بالمغادرة والذهاب إلى الحافلة التي سوف تقله عائداً للمدينة الرُمادية، عندما تكلم إليه أحد الملائكة:

- أهكذا ستغادر سريعاً؟ (كان المُتَكَلِّم له شكل إنسان لكن نوراً باهراً كان يشعُّ منه حتى لم أستطع أن أنظر إليه، كما كانت هُناك أيضاً حرارة مع الضوء، فكان مثل الشمس في وهج نهار صيفي)
- نعم. سوف أُغادر، قال الشبح، «شكراً على حُسن الضيافة. لكن لا فائدة، كما ترى. لقد قلتُ لهذا الفتى (وهنا أشار للسحلية الحمراء التي على كتفه) أن عليه أن يهدأ إذا أراد المجيء معي ـــ وقد أَصَرَّ على المجيء. بالطبع لا يُمكن أن يُمارس هُنا اهتماماتِهِ. لقد لاحظت ذلك منذ أن وصلت. لكِنَّهُ لا يتوقف للحظة. لذلك فأنا مضطر أن أعود للمنزل.»
- «هل تُحب أن أجعله يهدأ؟» قال الروح المُنير الذي هو ملاك، كما فهمت الآن
- «بالطبع أُحِب» قال الشبح
- «إذاً سوف أقتله» قال الملاك، وهو يأخذ خطوةً للأمام
- «أوه ـ آه ـــ حذاري! أنت تحرقني، ابتعد عنّي» وتراجع الشبح بعيداً
- «هل تريده ميتاً؟»
- «أنت لم تقل شيئاً عن قتله في البداية. أنا لا أحِب أن أجعلك تفعل شيئاً فظيعاً كهذا.»
- «هذه هي الطريقة الوحيدة» قال ذلك الملاك، وقد صارت يَدَهُ النارِيَة قريبة جداً من السحلية. «هل أقتله؟»

وظل الحوار يدور هكذا بين الشبح والملاك حتى وافق الشبح أن يقوم الملاك بقَتل السِحلِيَّة. عندما مَدَّ الملاكُ يَدَهُ النارِيَّة وقَبَضَ على السِحليَّة، تَأَلَّمَ الشبحُ كثيراً. ثم قامَ الملاكُ بثنيها وهي تتلوى وتعضُّ يده ثم ألقاها على الأرض فانكسر ظهرها. عندئذ صرخ شبح الشاب صرخة مُدَوِّية ظاناً أنه سوف يموت بدون هذه السحلية. لكن تدريجياً، وبعد أن ماتت السِحليَّة، بدأ الشبحُ يتحول إلى شابٍ حقيقيّ مفتول العضلات. ثم بدأت السِحليَّة الميتة تتحول تدريجياً هي الأخرى إلى حصان قوي رَكِبَهُ الشاب وانطلق به وغاب وراء الأشجار الكثيفة ذاهباً إلى الغابة العميقة.[١٧]

كما أشرت سابقاً، من الواضح أن هذه السِحليَّة الحمراء ليست سوى الرغبة الجنسية الطبيعية عندما تضخمت وتَوَحَشَّت وتحولّت بفعل الانحصار في النفس إلى شَهوَةٍ قاتلة. وعندما تُمَات هذه الشهوة، يتم استرداد الرغبة الجنسية الطبيعية لتعود إلى ما كانت قد خُلقت من أجله في ذات الإنسان الحقيقية، قوة دافعة للحياة «Libido» وهي التي يشير إليها بذلك الحُصان القوي الجميل.

أما المشهد الثاني فكان لقزمٍ صغيرٍ يُمسِكُ في يَدِهِ بسلسلةٍ في نهايتها ممثلٌ تراجيدي مسرحي هائل. كانت الدراما والتراجيديا هي طريقة ذلك القزم لكي يقوم بتكبير نفسه وجذب الانتباه إليه. تدريجياً تَحَوَّلَت هذه الحِيلة الدِفاعيَّة إلى كيانٍ قائمٍ بذاته (ذات مزيفة) أكبر من الإنسان نفسه حتى أنه بدأ يختفي هو وتظهر هي، وكأنها هي الذات الحقيقية. ظَهَرَ هَذا القزمُ المُمسِكُ بالمُمَثِّل التراجيديّ الذي رَاحَ يتكلم بدلاً منه بطريقته المسرحية المُبالَغ فيها. ثم بعد قليل ظهرت امرأة، عَرِفنَا فيما بعد أنها كانت في الحياة الأرضية زوجةً لذلِكَ الرجُل. هذه السيدة كانت من سُكّان السماء لأنها كانت شديدة

17 C. S. Lewis, *The Great Divorce*, 107- 115

التواضع والمحبة للآخرين. كانت هذه السيدة تُحب أيضاً زوجها الذي يسكن المدينة الرَمَادِيَّة، وكانت تتمنى أن يأتي معها للغابة العميقة. لذلك عندما عَلِمَت أَنَّهُ قد جَاءَ مَعَ الحافلة من المدينة الرمادية، أَتَت لتُقابِلَهُ. ثم يصِفُ لويس حديثاً دار بينهما حَاوَلَت فيه أن تجعله يتخلَّص من هذا الممثل التراجيدي الذي يقوم بإخراج وتمثيل مسرحيات مُفرِطة في الشفقة على النفس، ويأتي معها للغابة العميقة. لكنه رَفَض بإصرار. وكلما كان يرفض، كان حَجَمَهُ يَصغُر شيئاً فشيئاً حتى اختفى ذلك القِزمُ تماماً (الذات الحقيقية) وأصبحَ الممثل التراجيدي (الذات المزيفة) هو المُسيطر تماماً عليه. وفي النهاية صَرَخَت السيدة بصوت اهتزّت له كل الغابة:

- « فرانك! فرانك!» *انظر* إليَّ. ما الذي تفعله بتلك الدُمية الهائلة القبيحة؟ اترك السلسلة. اطرده بعيداً. أنا أريدك أنت. ألا ترى ذلك الهُراء الذي يتكلم به.»

لكن فرانك لم يعد يستطيع أن يترك السلسلة لأنه قد أصبح أصغر من حلقةٍ من حلقاتها ثم صار هو نفسه، لا يكاد يُرى.[١٨]

نلاحظ من المشهدين أن الإنسان وحده (الذات الحقيقية) هو صاحب الحق في أن يتخلى عن الذات المزيفة.[١٩] ولا يملُك أحدٌ أن يَحمِلَهُ على ذلك فهو إنسانٌ حُرٌ كامل السيادة. المشكلة هي أن هذه الذات المُزيفة كُلما أعطينا لها الفُرصة، كُلّما تضخمت على حساب الذات الحقيقية، فتزداد صعوبة التَخَلُّص منها. لكن لا يزال بالإمكان إماتتها والتَخَلُّص منها. صحيح أن الله والعالم الروحي يُمكن أن يساعدا الإنسان في هذا العمل، بل أن الروحَ القُدُسَ هو وحدُهُ القادرُ على مثل هذا العمل (كما أشرنا خلال كل هذا الكتاب) لكن الله لن يفعل ذلك بدون إذن الإنسان. فالإنسانُ مخلوقٌ على صورة الله في الحُرية والمسئولية،

18 C. S. Lewis, *The Great Divorce*, 117- 127.

١٩ رومية ٨: ١٣

لذلك فهو وحده المنوط به هذا القرار. وعِندما يُقدِم الإنسانُ على اتِّخاذ هذا القرار، فإنه يكتشف بعد ذلك أنه عندما قرر أن يميتَ موته، بدأ الحياة الحقيقية.[٢٠]

التدريبات الروحية وعلم النفس

يساعدنا مفهوم الذات الحقيقية والذات المزيفة أن نَحُلَّ الصراع الوهمي بين علم النفس واللاهوت الكتابي، ويساعدنا أن نُفَرِّق بين الإنسان الحقيقي والدفاعات المُنحصرة في النفس التي قد اعتاد استخدامَها حتى تصوَّر أنها ذاته الحقيقية. هذا يُمَكِّننا أن نقول لأنفسنا ما تقوله السيدة في قصة ك. س. لويس لزوجها وما يقوله الله لكل واحدٍ فينا: «تخلى عن جسد الخطية المَيِّت. هذا ليس أنت. أنا أريدك **أنت**!» لكن يظل هذا المفهوم مفهوماً نظرياً حتى نبدأ في الممارسة الفعلية للتدريبات الروحية التي بها، كما فعل الملاك مع السِحليَّة الحمراء، نَقبل عمل الله وقوة قيامة المسيح التي تصنع فينا خليقةً جديدة ونبدأ في أن نُميتُ جسد الخطية. لكن هذه التدريبات عندما تُمارس بالتكامل مع علم النفس، فإننا نعرف ما الذي ينبغي أن نُميتَه وما الذي ينبغي أن نُحييه. السِحليَّة الحمراء (الشهوة) الجنسية هي ما ينبغي أن يموت وليس الشاب الجميل، ولا الحصان القوي (الرغبة الجنسية). الذي يجب أن يموت هو الممثل التراجيدي (الدُمية)، وليس الإنسان الحقيقي (القزم) المُمسك به.

السحلية الحمراء هي ما ينبغي أن يموت وليس الشاب الجميل. الممثل التراجيدي (الدُمية) وليس الإنسان الحقيقي (القزم) المُمسك به.

٢٠ يوحنا ١٢: ٢٤

تدريبات روحية بلا علم نفس مُضرّة نفسياً

كما أن التدريبات الروحية عندما تمارس بدون لاهوت النعمة، فتُنتج بِرّاً ذاتياً وكبرياءًا روحياً، فهي أيضاً عندما تُمارس بدون وعي بالنفس يساعدنا للتفريق بين الذات الحقيقية والذات المزيفة، فإنها تُنشيء كراهيةً مريضة للنفس. ففي العصور الوُسطى مَارَسَت الكنيسة التدريبات الروحية بدون هذا الوعي ولم تفرق بين الرغبة الجنسية والشهوة الجنسية، فأنشأت تديناً وتزمتاً شديداً. وليس ذلكَ فقط بل ساهمت في رد الفعل العكسي ضد الروحانية وضد المسيحية بجُملَتَها ووضعت بذور «الثورة الجنسية»[٢١] التي ظهرت فيما بعد.[٢٢]

علم نفس بلا تدريبات روحية مُضِرّ روحياً

بدأ علم النفس المسيحي يستشعر أهمية التدريبات الروحية[٢٣] ويدرك خطورة ممارسة علم النفس بدون تدريبات روحية نضغط بها على أنفسنا وندَرِّب إرادتنا لنفعل ما لا نشعر بالرغبة المباشرة في أن نفعله، ولا نفعل ما نشعر بالرغبة المباشرة في أن نفعله. عندما نجوع لا نأكل (تدريب الصوم)، وعندما نشعر بالرغبة في التعبير عن أنفسنا أو الدفاع عنها، لا نفعل ذلك (تدريب الصمت). وعندما نبحث بحثاً محموماً عن صُحبة الناس، نتخلى عن هذه الرغبة المُباشرة ولو مؤقتاً (تدريب الاختلاء). بدون التدريبات الروحية، يُمكننا أن نستخدم علم النفس، كما يقول بولس الرسول ليكون «فُرصةً للجسد»[٢٤] ونعتبر أن الصحة النفسية هي أن نفعل كل ما نشعر بالرغبة فيه وأن نكون نحن أنفسنا قضاةَ أنفسنا من خلال قبول

---

٢١ إشارة إلى التَحَرُّرية الجنسية التي سادت الغرب بدءًا من مُنتصف الستينات والسبعينات من القرن العشرين.

22 Philip Yancey, *Rumors from Another World. What onEarth are we Missing?* (Grand Rapids: Zondervan, 2003), 81.

23 Mark R. McMinn, *Psychology, Theology, and Spirituality in Christian Counseling* (Wheaton: Tyndale, 1996).

٢٤ رسالة غلاطية ٥: ١٣

كل ما يجعلنا «متوافقين مع المجتمع والآخرين» دونما الخضوع لمبادئ الملكوت وأهمها على سبيل المثال المحبة والغفران. علم النفس العلماني يُشجِّعنا ويُعَلِّمنا أن نخرج من انحصارنا في أنفسنا لفهم الإنسان وقبوله، لكنه لا يُشجعنا مطلقاً أن نتصل بالله والعالم الروحي، بل كثيراً ما يعتبر ذلك تغييباً ومرضاً نفسياً.

علم النفس يُشجِّعنا ويعلمنا أن نخرج من انحصارنا في أنفسنا لفهم الإنسان وقبوله، لكنه لا يشجعنا مطلقاً أن نتصل بالله والعالم الروحي، بل كثيراً ما يعتبر ذلك تغييباً ومرضاً نفسياً.

يُعلمنا الكتاب المقدس، ولا يُعلمنا علم النفس، أن العالم المادي الذي حولنا، والقوى الروحية الشريرة التي تُسيطر عليه، يعملان دائماً على إضعاف إرادتنا من خلال المصاعب والمتاعب من ناحية، والراحة والمَلَذَّات من ناحيةٍ أُخرى. وهما يشبهان في ذلك طريقة «ضباط أمن الدولة» في قتل إرادة السجناء السياسيين فيلعبا لعبة «الضابط الشرير» و«الضابط الطَيِّب». الضابط الشرير (المصاعب والمتاعب) يقوم بتعذيب السجين، ثم يأتي الضابط الطيب (الراحة والملذات) ليوقِف عمليات التعذيب ويجعل المُعتَقَل يذهب ليغسل وجهه ويضمد جراحه، ثم يطلب له طعاماً وشاياً وسجائر. وبعد أن يرتاح المُعتَقَل ويأكل ويشرب، يطلب منه «الضابط الطيب» أن يعترف لكيلا يسمح «للضابط الشرير» أن يعود ويُعذبه. عند هذه النقطة ينهار المعتقل ويعترف على زملائه، فمن الصعب جداً على الإنسان أن يختبر الألم مرة أخرى بعد أن ينجو منه ويتورط في المَلَذَّات. لذلك فإن المعتقلين السياسيين المُتَمَرِّسين يُضربون عن الطعام ليقطعوا الطريق على هذه التمثيلية المقصود بها كَسر إرادتهم وحَملَهُم على الانهيار. بنفس الطريقة، على المؤمنين المسيحيين، لكي يحموا أنفسهم من الانهيار تحت ضغط وإغراء هذا العالم، ألا يَسمَحوا

لأيّ من مَلَذَّاتِهِ وراحاتِهِ بالسيطرة التامة عليهم، ويظلوا «مُرتَدِينَ العالَمَ كثوبٍ فَضفاض يَتَلامَسُ مع أجسادِهِم في نقاطٍ قليلةٍ وبخِفَّة» كما يقول القديس فرانسيس الآسيزي، وهذا في واقع الأمر لا يأتي إلا بقبول مصاعب الحياة (شركة آلامه) وأيضاً ممارسة الانضباطات الروحية التي تسمح لهم ألا ينخرطوا في العالم أكثر من اللازم، بل يعيشوا «فيه» وهم أمواتاً «عنه» (مُتَشَبِّهاً بموتِهِ).

روحانية بلا تدريبات روحية مُضِرّة روحياً ونفسياً

يكمُن دورُ التدريبات الروحية في الروحانية المسيحية عموماً في أنها تَضَعُ إماتةَ الجَسَدَ في صورة تدريبات واضحة مُحدّدة ولا تدع مفهوم إماتة الجسد يظل مفهوماً وعظياً مُجرداً يُمكِن إساءة فهمه والخلط بينه وبين كراهية النفس أو تجاهل الرغبات والمشاعر الإنسانية. التدريبات الروحية، على العكس من ذلك، تُوَضِّح لَنا أن إماتَة الجَسَد بالنسبة للحياة الروحية هي ممارسات تعكس مَحَبَّةَ النفس وليس العكس. إن التدريبات الروحية بالنسبة للروح هي مثل التدريبات الرياضية بالنسبة للجسد. إنها بمثابة حَرق الدهون بالنسبة للرياضي أو الإنسان الذي يريد أن يحصل على جسد صحيح ورشيق. الدهون يجب أن تُحرَق ويتم التخلُّص منها لأنها ليست أجسادنا الحقيقية وإنما هي تجسيدٌ لإفراطنا في الطعام. وليس ذلك فقط بل إنها يُمكن أن تُميتنا على المدى البعيد، أما العظام والعضلات فهي أجسادنا الحقيقية. لذلك فإن التدريبات الروحية العملية تساعدنا على الفهم العملي والتفريق الواضح بين ما هو أجسادنا الحقيقية وما هو ليس كذلك. وختاماً لهذا الفصل وهذا الكتاب، أود أقتبس جزءًا من المُقدمة التي قُمتُ بكتابَتِها لكتاب *التدريبات الروحية*[٢٥] الذي هو الترجمة العربية لكتاب دالاس ويلارد «Dallas Willard»

٢٥ دالاس ويلارد *التدريبات الروحية*، ترجمة أوسم وصفي (القاهرة: كنيسة قصر الدوبارة الإنجيلية، ٢٠١٢) ٧- ١٣.

روح التدريبات «The Spirit of the Disciplines» والتي اخترت لها عنوان «الحلقة المفقودة»:

تُمَثِّلُ العَودة للتدريبات الروحية والمُمارسة الصِحّية السليمة لها، الحلقةَ المفقودةَ اليوم في الروحانية المسيحية. إنها تمثل «الجِسرَ» الذي نحتاجه للعبور من أرض الأماني والأحلام الروحية إلى أرض النمو الروحي الحقيقي. من أرض الضعف الأخلاقي إلى أرض التَشَبُّهِ الحقيقي بالمسيح في الفكر والشعور والقَول والفِعل. إنها جسر «التَمَخُّض» الذي بدونه لن يتصوّر المسيح في أيّ منا.

- بدون هذا الجسر سوف نظل نلوم أنفسنا أننا لا نتغير ونلوم الناس أنهم لا يتغيرون دون أن نُقَدِّم لأَنفسنا ولَهُم خارطةَ طريقٍ عَمَلِيّة قابلة للتطبيق والمتابعة، بها يستطيعون التغير.
- بدون هذا الجسر العملي سوف نظل نتأرجح بين روحانية الإنحصار في النفس والبحث عن اللذة والمتعة المادّية (والروحية أيضاً) من ناحية، ومن ناحية أخرى، الإصرار على «صَلب الجسد» دون فهم لاهوتي سليم لما هو هذا «الجَسَد» الذي ينبغي صلبه ودون طُرَقٍ عملية وصحّيةٍ لصَلبِهِ. فتكون النتيجة إما روحانية الوفرة والانتصار على الفقر والمرض دون الانتصار على الخطية، أو هجوم متواصل على «الذات» بدون طريقة عملية لتدريبها فتكون النتيجة كراهية مريضة للنفس.
- بدون هذا الجسر سوف لا توجد لنا طريقة عَمَلِيّة مُتَّزِنة بها «نَقُوت» أَجسادنا ونفوسنا ونحبها، وفي نفس الوقت «نُرَبِّيها» ونُدَرِّبها بحُبٍ وصَرَامة كما يُدَرِّب الرياضيُّ جَسَدَهُ، فتكونُ النتيجةُ إمّا بَدانةً وتَرَهُّل روحيّ وأخلاقي،

أو «آنوركسيا»[٢٦] روحية تؤدي بنا إلى كراهية النفس والجسد وضعفِهما وهُزالِهما معاً. وربما نكفر بصلب الذات والإماتة، ونهرع إلى روحانية الرفاهة والأنانية وهكذا نتراوح حائرين كالبندول.

أخيراً، فإن ضبط البؤرة في مسيرتنا نحو النمو والنضوج الروحي والتشبُّه بشخصية المسيح، تحتاج إلى ذلك الاتِّزان الجَدَلِيّ المُستَمِرّ بين اللاهوت (معرفة الله والعلاقة معه) وعِلم النفس (معرفة النفس وضبطها) والتدريبات الروحية (إماتة الموت الذي فينا) فنحيا وننمو.

٢٦ الآنوركسيا Anorexia هي اضطراب من أضطرابات الأكل يترجم خطأً بفقدان الشهية العُصابي. الشهية موجودة ولكن هناك هَوَسٌ بالرشاقة وخوف مرضي من البدانة يعكس كراهية دفينة للجسد (وكثيراً ما يكون ذلك مرتبطاً بالإساءة الجنسية في الطفولة) هذا يجعل الإنسان يدرب جسده دون أن يَقوتَهُ ويضبِطُ نفسه دون أن يُحِبَّها فتكون النتيجة فقدان غير صحّي للوزن يصل بالإنسان إلى الهزال وربما يعرضه للموت. **والمقصود بالآنوركسيا الروحية هنا الهوس بروحانية مزيفة روحياً و مُضرة نفسياً تشجع على كراهية النفس.**

ختام

- يحتاج الناس لِمَن يَحُثُّهم على النموّ والتغيير. ويحتاجون أيضاً لبرنامج عمليّ واضح وملموس للتغيير.
- يحتاج الناس لمن يَتَكَلَّمَ إليهم. ويحتاجون أيضاً لمن يساعدهم أن يَتَكلَّموا لبعضهم البعض.
- يحتاج الناس لمن يُعَلِّمهم. ويحتاجون أيضاً لمن يُريهم في نفسه، نِتاجَ هذا التعليم.
- يحتاج الناس لمن يُلهِمهُم. ويحتاجون أيضاً لمن يعطيهم الفُرصة لإلهام بعضهم البعض.
- يحتاج الناس إلى «الجَسَدَ الواحد» من خلال التناول. ويحتاجونه أيضاً إليه من خلال المجتمع والحياة المُشتركة.
- يحتاج الناس إلى من يُعطيهم رؤية ويحتاجون أيضاً لمن يراهُم.
- يحتاج الناس إلى التعليم، لكنهم يحتاجون أكثر إلى التدريب.
- يحتاج الناس لمن يُشجِّعَهُم أن يكونوا «قُوَّاداً». ويحتاجون أيضاً لمن يُشَجِّعهُم أن يصيروا «قُرَّاءًا».
- يحتاج الناس لمُعلمين موهوبين يجمعون حولهم الناس. ويحتاجون أيضاً لجماعة تتوزع بينها المواهب المُختلفة.

لأننا أغنياء في الأمور الأولى وفُقراء في الثانية فإن كثيرون يأتون. وكثيرون يمضون أيضاً.

ما أريد أن أقوله هُنا هو أننا دائماً نفعل الخطوة الأولى ونفشل في أن نتحرك منها للثانية. لقد تخصصنا في الأولى واعتبرنا أنها كل البرنامج. هذا هو السبب الذي يجعلنا نقوم بتقييم الأحداث والاجتماعات والمؤتمرات والبرامج المختلفة باستخدام أسئلة مثل: كَم كان عدد الحضور؟ هل كان الناس سعداء؟ هل كانوا مُتَحَمِّسين؟ هل هَتَفوا من كل القلب؟ هل صنعوا قرارات واتخذوا نوايا؟ هل كتبوا بطاقات متابعة؟ هذه بالطبع أسئلة مُهمة لكنها مُجرد البداية ويالبؤسنا إن كانت البداية هي كُل ما نستطيع أن نفعل! وللأسف تظل حياتنا الأخلاقية كما هي لأننا لم نكتَسِب بعد عادات الصلاح. التلمذة ليست انبهارًا بالمسيح، وليست مجرد مَحبة المسيح والعلاقة معه. ولا هي فقط التعليم الصحيح عن المسيح. وإنما هي اكتساب عادات المسيح. أي عادات الحياة في الملكوت. لم يوصِ المسيح تلاميذه أن يذهبوا ليقيموا تجمعات ويصنعوا روابط مثل روابط «الألتراس» ولكن أن يصنعوا «تلاميذ». راوابط «الألتراس» أكثر الناس حماسة لكرة القدم، لكنهم لا يلعبون كرة القدم. الألتراس متحمسون جداً، يسافرون وراء فريقهم ورُبما يموتون من أجله، لكنهم لا يلعبون كرة قدم. المسيح دعانا لنصنع «لاعبي كرة قدم» أي أشخاص يعيشون الحياة المسيحية فعلاً لا يشجعونها بالروح والدم. أنا متأكد أن آلافاً يريدون أن «يلعبوا كرة القدم» ونحن نريد أن نعلمهم. لكن للأسف ليس عندنا إلا ما يجعلهم «ألتراس». ليس عندنا إلا أعلام وآلات موسيقية ولافتات ملونة وأتوبيسات تنقلهم إلى الاستاد. وبكل أمانة نستخدم هذه الأشياء لنجعلهم لاعبي كرة قدم. فلا يكونوا لاعبين. للأسف الشديد الكثيرون منهم يتركون كرة القدم تماماً لأنهم بعد أن تمر السنون ويصلوا للثلاثين مثلاً وبعدها يكونوا قد كبروا على أن يكونوا «ألتراس» ولم يلعبوا كرة قدم، فيذهبوا «ليَتَصَيَّدوا» في العالم. قِلّه منهم يصبحون قادة روابط الألتراس ويتحركوا لصنع المزيد من «الألتراس»، وبطون النساء تعطينا مع كل سنة «ألتراس» جدد. بالطبع وجود روح الألتراس جميلة وهي روح تسري في الجميع، لكنها سوف لا تؤدي إلا لمزيد من الألتراس. فمتى سنصنع «مدرسة الكُرة»؟ سنصنعها بمعونة الرب.

أوسم وصفي طبيب ومعالج نفسي. أسس سنة ١٩٩٩ مؤسسة الحياة للمساندة والتعافي وتنمية الشخصية. له أكثر من ثلاثين مؤلف في مجال الصحة النفسية والنمو الروحي، أشهرها صحة العلاقات والقلب الواعي، ومهارات الحياة وإنسان الملكوت، ومعرفة الله والنفس. متزوج ولديه بنت وولد ويعيش في القاهرة بجمهورية مصر العربية.